

لمن قصص القرآن

دراسة ومعطيات وأهداف

بحث عن قصص الأنبياء والقصص القرآنية مسبباً لسلسلتها
التاريخية وتبديرها على ضوء أحكام الآيات والروايات العنبرية
مع التأكيد على الدروس والعبء المستفادة منها

الجزء الأول

تأليف

العلاء الدين الحق

آية الله جعفر السبكي

مؤسسة الإمام الصادق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القصص القرآنية

القصص القرآنيّة

دراسة ومعطيات وأهداف

يبحث عن قصص الأنبياء والقصص القرآنية حسب تسلسلها التاريخي ويدرسها على ضوء محكمات الآيات والروايات المعتبرة مع التأكيد على الدروس والعبر المستقاة منها.

الجزء الأوّل

شبكة كتب الشيعة

تأليف

العلامة المحقق

آية الله جعفر السبحاني

نشر مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

shiaabooks.net

رابط بديل < mktba.net

سبحانی تبریزی، جعفر، ۱۳۰۸ -

القصص القرآنیة / تألیف جعفر سبحانی. قم: مؤسسه الإمام الصادق (ع)، ۱۴۲۷ ق. - ۱۳۸۵.

ج ۲
ISBN 964 - 357 - 258 - 7 (ج ۱)

ISBN 964 - 357 - 258 - 5 (دوره)

فهرستویسی بر اساس اطلاعات فیها.

۱. قرآن قصه ها. الف. مؤسسه امام صادق (ع). ب. عنوان.

۲۹۷/۱۵۶

BP ۸۸/س

اسم الكتاب: .. القصص القرآنیة

الجزء: .. الأول

المؤلف: .. العلامة المحقق جعفر سبحانی

الطبعة: .. الأولى

تاریخ الطبع: .. ۱۴۲۷ هـ

المطبعة: .. مؤسسة الإمام الصادق (ع)

الكمیة: .. ۲۰۰۰ نسخة

الناشر: .. مؤسسة الإمام الصادق (ع)

الصف والإخراج بالاینوترون: .. مؤسسة الإمام الصادق (ع)

حقوق الطبع محفوظة : لا یسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من المؤلف.

توزیع

مکتبة التوحید

ایران - قم : ساحة الشهداء

۷۷۴۵۴۵۷ - ۲۹۲۵۱۵۲ فاکس ۲۹۲۲۳۳۱

البريد الإلكتروني: imamsadeq@hotmail.com

www.imamsadeq.org العنوان في شبكة المعلومات

الإهداء:

أهدي عملي هذا إلى صاحب الرسالة العظمى والولاية
الكبرى سيد المرسلين وخاتم النبيين الرسول الأكرم ﷺ.
وإلى أساتذة التفسير في المحافل العلمية والجامعات
الإسلامية عسى أن يحظى بالرضا والقبول، آملاً أن يجعلوه
منهجاً دراسياً جديداً في موضوعه.

المؤلف

مقدمة المؤلف

القصص القرآنية

موضوعها، أهدافها وخصائصها

إن حياة الأنبياء وسيرتهم في أقوامهم وحواراتهم مع مخالفيهم وكل ما يتعلق برسالاتهم هي أحد المواضيع التي اهتم بها القرآن الكريم. وربما تعدّ أحد ثلاثة محاور رئيسية تدور عليها آياته، وهذه المحاور هي:

أ. العقائد و المعارف والقيم الإيمانية.

ب. القوانين والأحكام.

ج. قصص الأنبياء وحواراتهم.

وربما يحتضن القسم الثالث سابقه، ففي قصص الأنبياء وحواراتهم آيات حول المعارف والأحكام والعقائد والقيم، وبذلك يحتل المحور الثالث المكانة العليا في ضرورة فهم القرآن.

ولأجل هذه الأهمية القصوى انبرى عددٌ من المفسرين العظام لتفسير ودراسة الآيات التي تستعرض حياة الأنبياء، تفسيراً ترتيبياً (حسب ترتيب السور) أو تفسيراً موضوعياً، حيث خصّوا القصص بالتأليف وأفردوها بالتصنيف. ولو تصدّى بعض الباحثين لجمع ما كتبه علماء الإسلام في هذا الحقل باللغات

المختلفة لشكل مكتبة ضخمة من الكتب والموسوعات.
ويكفي في ذلك مراجعة «كشف الظنون» للكاتب الجليبي و«الذريعة»
لشيخنا الطهراني، لمعرفة جانب مما أُلّف في هذا الموضوع.
وهذا هو زميلنا المغفور له الشيخ غلام رضا عرفانيان، الذي حقق كتاب
«قصص الأنبياء» لقطب الدين الراوندي (المتوفى ٥٧٣هـ) وصدره بمقدمة أورد
فيها أسماء ١٧٤ كتاباً في قصص القرآن، ومع الأسف أن أكثرها مخطوطة لم تر
النور، والمطبوع منها قليل.

وهذا العدد هو ما توصل إليه ذلك الكاتب، بجهد الفردية. ولو تشكلت
لجنة علمية ترصد الفهارس وتُنقب عما في المكتبات من نسخ خطية لجاء العدد
أكبر مما ذكر بكثير، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام العلماء بتفسير هذا
القسم من الآيات تفسيراً موضوعياً لا ترتيبياً. وبذلك نستكشف أن للتفسير
الموضوعي عند المفسرين جذوراً تمتد إلى أمد بعيد، ذلك أنهم اهتموا بهذا النمط
في بعض الحقول، كآيات الأحكام وقصص القرآن، حيث جمع بعضهم الآيات
التي تدور حول الطهارة أو الصلاة أو الصوم في مكان واحد ثم أخذ يفسرها مرة
واحدة وبشكل مترابط، كما أنهم جمعوا وفسروا الآيات التي تدور حول حياة
الأنبياء وجهادهم.

والقَصَص، بالفتح: اسم بمعنى الأثر، وبالكسر: جمع قصة، وفي الذكر
الحكيم: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ»^(١): أي أحسن الأثر.^(٢)
قال الراغب: القصص: الأخبار المُتَّبَعَةُ.^(٣)

٢. مجمع البحرين: ٤/ ١٨٠.

١. يوسف: ٣.

٣. المفردات: ٤٠٤، مادة «قصص».

فنحن إذا قمنا بدراسة القصص القرآنية على نسق التفسير الموضوعي، فهي علم له موضوع وله غاية كما وله خصائص، وإليك بيان هذه الأمور الثلاثة على وجه الإيجاز:

١. موضوع القصص القرآنية

يتخذ القرآن الكريم من حياة الأمم السابقة وحركة أنبيائهم عليهم السلام، محوراً لدراساته، وهذا يفترق عن منهج جل المؤرخين الذين يتناولون حياة الملوك وأصحاب السلطة موضوعاً للبحث والدراسة، وربّما يغالون في نشاطاتهم وعطاءاتهم، بل يغالون في إضفاء الطابع الأخلاقي على تصرفاتهم على نحو لا يصدق العقل ولا تؤيده الشواهد.

ولذلك عاد التاريخ عند الشرقيين تاريخ الملوك والحكام، مع أنه كان يفترض بهم - بعد أن أشرقت الأرض بنور القرآن الكريم - التوفر على دراسة حياة الأمم والتاريخ الإنساني على ضوء حياة الأنبياء وحياة أقوامهم منذ أن نزلت الهداية الإلهية على الإنسان، وهذا ما نتمناه، ولعل الله يقبض بعض الغيارى للقيام بهذا العبء الجليل.

إنّ القرآن الكريم لم يذكر إلا القليل من الأنبياء، إذ بلغ عدد من تعرّض لذكر حياتهم ودورهم في أمهم التي بُعثوا لهدايتها نحو (٢٥) نبياً، وإلى هذه الحقيقة، أشار سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾^(١)، ومع ذلك فإنّ فيها ورد في قصصهم غنى وكفاية لما فيها من عبر و عظات و دروس تُستجلى من مواقفهم، وأهم محطات

حياتهم، ومآل أقوامهم وما أصابها من بأساء وضراء، جزاء لما اقترفوا من أعمال. ولم يقتصر القرآن الكريم على بيان الأحداث التي جاد بها الزمان في بيئات محدودة، بل تعرّض للأحداث التي جرت في العواصم الكبيرة والمدن البعيدة، ولذلك عبّر عنها بـ «أنباء القرى» قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.^(١)

ومما يحسن ذكره أنّ القرية في مصطلح القرآن الكريم هي النقطة المعمورة، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة حتى أنه عبّر عن مصر الفراعنة بالقرية، قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾^(٢)، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على امتداد دائرة التبليغ السماوية للأنبياء وشموله لكافة أرجاء المعمورة. قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.^(٣)

وكان الأنبياء يتخذون من أم القرى - التي هي العاصمة - مركزاً لتبليغهم حتى تتم الحجّة على أهل القرى المحيطة بها من مختلف المدائن والأمصار، يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا﴾^(٤)، لوجود الصلة بين أم القرى، وفروعها.

٢. غايات القصص القرآنية

إنّ الاطلاع على حياة الماضين والوقوف على آثارهم ومعرفة ما ألمّ بهم من الحوادث والكوارث، مثار العظات ومصدر العلم بالسنن الإلهية في تكوين الأمم وإصعادها وإهباطها. ولذلك تجد كلّ إنسان يميل إلى التاريخ وكلّ يتحرى منه

٢. يوسف: ٨٢.

١. هود: ١٠٠.

٤. القصص: ٥٩.

٣. فاطر: ٢٤.

غاية تناسبه ومقصداً يَخَصُّه.

والغاية التي تهدف إليها القصص القرآنية تأتي في سياق الهدف القرآني العام الذي يتمثل في الدعوة إلى الله تعالى وإلى اتباع منهجه الذي اختطه للإنسان وسعادته ورقته والتحذير من العصيان وتنكب طريق الإيمان. وتكريساً لهذا الهدف، جاءت القصص القرآنية من أجل إيقاف الإنسان على حياة الأمم السالفة وعوامل عزتها ومنعتها، أو هبوطها وسقوطها، وبالتالي الوقوف على سنن الله سبحانه في تاريخ الأمم، والتي تُفضي إما إلى تكريم وإعزاز أو إبادة وإهلاك.

أما القصص التي ينسجها الخيال البشري و القصاصون المحترفون فلها غايات تباين غاية القصص القرآنية، إما في نمط الغاية أو في سعتها وشمولها، فالكثير من القصص ينشد تحريك المشاعر باتجاه أغراض محدودة حتى وإن كانت خيرة أو مؤقتة كاللذائذ المادية، وقد ترمي إلى تأجيح الغرائز الحيوانية عند الإنسان إلى غير ذلك من الغايات المتدنية.

فهذا أبو القاسم الفردوسي صاحب الملحمة الفارسية الكبيرة والمسماة بـ«الشاهنامه» قد أمضى ثلاثين سنة في نظمها واشتملت على ستين ألف بيت، وكانت الغاية التي يقصدها هي المفاخرة بالأباء والأجداد، وذكر ما خاضوا من معارك دامية مع أعدائهم، وهذه الملحمة وإن كانت تحمل جوانب أدبية ممتازة لكنها كانت مهمة بجانب ضئيل من الحياة.

وأما الغايات التي يريدتها القرآن الكريم في قصصه، فهي على طرف النقيض من أهداف القصص الخيالية. ويمكن تبين غاياتها كما يلي:

أ. الدروس والعبر

تحدث القرآن الكريم عن حياة الأمم بالوانها المختلفة وأشار إليها وهي في أوج رقيتها، وذروة قوتها وعظمتها، ثم لفت الأنظار إليها وهي تأخذ بالانحدار إلى قعر الذل والهوان. ومن خلال هذا السرد التاريخي لحياة الأمم، تتجلى لنا الأسباب الكامنة وراء النصر والظفر أو الهزيمة والفشل، والعوامل التي أدت بهم إلى هذا المصير، وبذلك يقتطف المتدبر النصائح والعبر النافعة.

ومن هنا صارت القصص القرآنية خير ذكرى للمؤمنين، كما قال تعالى:

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

أو سبباً لتحريك التفكير الإنساني ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ

يَتَعَكَّرُونَ﴾^(٢)، أي يتخذون القصص عبرة في حياتهم حتى يتحرزوا عن المزالق والمهالك.

ب. وحدة هدف الأنبياء

تشهد الآيات القرآنية على أن الهدف الوحيد من بعث الأنبياء هو

نشر التوحيد في العبادة بين الناس، لأنه ليس في صحيفة الوجود من هو أهل للعبادة غير الله تعالى، فكان لزاماً على الإنسان أن يعبد، ويجتنب الطاغوت.

قال سبحانه: ﴿لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣).

١. هود: ١٢٠.

٢. الأعراف: ١٧٦.

٣. النحل: ٣٦.

وأما سائر مراحل التوحيد من التوحيد الذاتي والتوحيد الربوبي، فإنها وإن كانت ذات أهمية بالغة، بيد أننا نرى الأنبياء قد ركزوا على التوحيد في العبادة، وما ذاك إلا لأن الانحراف عنه، كان هو الأمر الغالب دون المراتب الأخرى.

فإذا تمعن الإنسان في قراءة الآيات الكريمة الواردة حول حوار الأنبياء ودعوتهم يجد أنهم كانوا ذوي مشروع واحد ودعوة مشتركة حيث كانوا يركزون على أمر واحد وهو التوحيد في العبادة كما قلنا، كما أنّ طواغيت أعصارهم كانوا يركزون على الشرك فيها، وهذا يدل على أنّ الجميع ينطلقون من مصدر واحد إلى هدف فارد.

ومن أجل هذا أمر سبحانه المؤمنين بعدم التفريق بين الرسل بقوله: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(١).

ج. تثبيت فؤاد النبي ﷺ

تعرض الأنبياء والرسل لأنواع الشدائد، وصنوف الأذى والتنكيل من أقوامهم، حتى لقد سُفكت دماء فريق منهم على مذبح الهداية والدعوة إلى الحق والخير.

وقد اقتضت حكمته تعالى إيراد أنباء هؤلاء الرسل وذكر قصصهم لتثبيت قلب النبي ﷺ وحثه على المضي في درب الدعوة والتبليغ، وتقوية عزمه على ما يلقاه من إغراض وجحود واستهزاء وأذى كبير من قومه، وتذكيره بسنته تعالى في أنبيائه الذين لم يظفروا بثمرة النصر إلا بصبرهم على أشواك الطريق

ومصاعبه .

وإلى هذه الغاية يشير قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(١).

هذه غايات ثلاث تهدف إليها القصص القرآنية، وهناك غايات أخرى نوكل بيانها إلى محل آخر.

فلنرجع إلى الأمر الثالث وهو بيان خصائص قصص القرآن وميزاتها.

٣. خصائص القصص القرآنية

القصص الرائجة بين الأمم (من غير فرق بين شعب وآخر) لها خصائص وميزات يتفرد كل بها، فبعضها يغلب عليه إثارة القوى الحيوانية الشهوية والغضبية وتهدف إلى المجون والخلاعة، وأخرى تدعو إلى العنصرية والتعالي وتفضيل شعب على آخر، وثالثة إلى غرس فضيلة من الفضائل في النفوس، إلى غير ذلك من الميزات.

إنما المهم أن نقف على ميزات القصص القرآنية وخصائصها ونذكر منها ما

يلي:

أ. الموضوعية والواقعية

تمتاز القصص القرآنية بالموضوعية والواقعية، خلافاً لأكثر ما يكتب باسم القصة، فإنها وليدة خيال الكاتب الذي يخلق في سماء الوهم فيأتي بحوادث يصورها من عنده بما ينسجم والجو الذي يريد أن يخلقه في قصته.

وعندما يحس القارئ أن لا واقعية للقصة يقلُّ تأثره بها في مجال العبرة والاتعاظ، وهذا بخلاف ما لو كانت القصة حاكية لظاهرة واقعية برزت على سطح الحياة وظهرت آثارها الإيجابية والسلبية، فعندئذ يتخذ القارئ منها دروساً وعظات وافرة ويتأثر بمعطياتها.

إن الذكر الحكيم يشير إلى هذه الميزة في غير واحدة من آياته ويقول: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصُّ الْحَقُّ﴾^(١).

فهذه الآية - كما نرى - تشير إلى أن ما في هذه القصص، هو أمور واقعية وليست خيالية.

ب. تصحيح التحريف

ما يقصه القرآن الكريم من أنباء الرسل والأنبياء مع أهمهم، مما لم ينفرد به القرآن الكريم، بل سجّله أيضاً الكتب السماوية السالفة، ولكن المائز بينهما أن القرآن الكريم حينما يذكر هذه القصص يسردها على ما هي عليه منزهاً عن الترهات والأباطيل والخرافات، في حين ترى الكتب السماوية الأخرى المتداولة مشحونة بها.

ومن هنا أصبح القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السماوية، أي ميزاناً لتمييز الحق عن الباطل السوارد في الكتب المعروفة بالسماوية. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾^(٢).

١. آل عمران: ٦٢.

٢. المائدة: ٤٨.

فالكتاب العزيز بما أنه مصدق لما ورد فيما سبقه من الكتب ومسيطر عليها، فهو يقص ما ورد فيها على نهج صحيح، ويبين ما هو الحق من القصة عما ألصق بها من زيادات أو وقع فيها من تحريف.

فلو رغب كتابي في الوقوف على التوراة أو الإنجيل الصحيحين فعليه أن يرجع إلى القرآن الكريم وبخاصة في المواضع المشتركة، فإنه سوف يجد الحق الذي لا مرية فيه.

ج. الإيجاز في سرد القصة

يحلّم أغلب القصص في كتاباتهم وكلماتهم بالتسلية والفكاهة والإثارة وإبراز قدراتهم في الوصف والبيان، وهذا ما يدعوهم إلى الإطناب، والإشارة إلى كل جوانب القصة سواء أكان مهماً أو لا، مؤثراً كان أو غير مؤثر، لأن الهدف عنده هو التفكّه والإلهاء والإثارة، ولكن القرآن الكريم لا يستهدف سوى الإشارة إلى الآثار الإيجابية في قصصه، ولذا يورد شيئاً ويُعرض عن شيء، وما هذا إلا لأنه يذكر المؤثر في كلامه وبيت القصيد في بيانه.

وقلما يتفق أن يذكر القصة من أولها إلى آخرها وفي عامّة خصوصياتها، إلا في مورد واحد وهي قصة يوسف، لأن الإيفاء بالغرض فيها رهن ذكرها جميعاً في موضع واحد، بخلاف سائر القصص فربما يذكر شيئاً ويترك الباقي.

ولهذا نجد أن قصة أبينا آدم وغيره قد توزعت على أكثر من سورة واحدة، لأن الغرض الذي يرمي إليه القرآن، هو تجلية الأبعاد التربوية والخلقية من القصة، وإبراز مواضع العبرة منها، فيذكر منها ما يكون مؤثراً في الغاية التي سبق لأجلها الكلام.

وكأن القرآن الكريم واعظ متحرّق، ومرب شفيق يريد تربية المجتمع

الإسلامي على الخلق العالِي، والقيَم السامية، ولذلك يستشهد بما جرى في حياة الأنبياء من حوادث، ويعطف نظر القارئ إلى هذا الجانب ولا يهدف إلى الإلهاء والتطويل.

وأخيراً إن هذا الكتاب يقع في جزأين:

الجزء الأول يشتمل على حياة الأنبياء مبتدئاً بآدم ﷺ ومنتهاً بحياة يوسف ﷺ.

والجزء الثاني يشتمل على حياة بقية الأنبياء وينتهي بحياة سيدنا المسيح ﷺ.

وبما أننا أفردنا لحياة نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين بحثاً مستقلة في مفاهيم القرآن اكتفينا بها ولم نتناول حياته هنا. كما أردنا قصص الأنبياء بإيراد ما ذكره القرآن الكريم من القصص الأخرى لغير الأنبياء والمرسلين.

شكر وتقدير

وفي الختام: لا يسعني إلا أن أشكر الأستاذ الفاضل السيد حيدر محمد علي البغدادي (أبو أسد) - أحد المحققين البارزين في مؤسسة الإمام الصادق ﷺ - حيث أزرني بأنظاره وآرائه عند إنجاز فصول هذا الكتاب، كما قام مشكوراً بتلخيص مضامين القصص في آخر كل فصل. فشكر الله مساعيه الجميلة.

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق ﷺ

إيران - قم

١٨ شوال المعظم ١٤٢٦ هـ

آدم أبوالبشر

إن أبانا آدم عليه الصلاة والسلام يُمثل الحلقة الأولى من الحلقات النبوية الممتدة إلى سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل ﷺ. وقد جاء اسمه في ٢٥ آية في تسع سور، وقد اعتنى القرآن ببيان حياته ومصيره على وجه التفصيل في ست سور، هي: البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، وطه.

وتدور دراساتنا لحياته ﷺ والحوادث المرتبطة بها على ضوء الذكر الحكيم في محاور ثمانية:

١. خلقته ونشأته.
٢. استخلاف آدم في الأرض.
٣. تعليم الأسماء له.
٤. سجود الملائكة له.
٥. إسكانه في الجنة والنهي عن الأكل من الشجرة.

٦. مخالفته للنهي.

٧. هبوطه إلى الأرض، وخلاصة القصة.

٨. ولدا آدم ومصيرهما.

وهذه العناوين الثمانية هي الأمور المهمة التي اعتنى ببيانها القرآن الكريم

ونحن نقتفيه على وجه الإيجاز.

نشأته وخلقته

مرّت خلقة آدم ونشأته إلى أن صار بشراً سوياً على مراحل ثلاث، هي:

أ. المرحلة الترابية وتوابعها.

ب. مرحلة التصوير.

ج. مرحلة نفخ الروح.

وإليك دراسة كلّ من هذه المراحل واحدة بعد الأخرى.

الأولى: المرحلة الترابية وتوابعها

يؤكد القرآن الكريم أنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان من تراب متحول من

مرحلة إلى مرحلة، وهي:

١. التراب

قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

٢. الطين

قال سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ

طِينٍ﴾^(١).

٣. الطين اللازب

قال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾^(٢)، واللازب: هو الطين

الملتصق باليد.

٤. حمأ مسنون

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾^(٣).

والحمأ: هو الطين الأسود، والمسنون، المتغير، أي خلقه من طين أسود متغير.

٥. سلاله من طين

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٤).

والسلالة: هو صفوة الطين من الكدر وخلاصته، من سللت الشيء من

الشيء أي استخرجته منه.

٦. صلصال كالفخار

يقول سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(٥).

٢. الصافات: ١١.

٤. المؤمنون: ١٢.

١. السجدة: ٧.

٣. الحجر: ٢٦.

٥. الرحمن: ١٤.

أي من طين يابس إذا نقر صلصل وصوت كالحزف.

ففي المرحلة التي سميناها بالمرحلة الأولى نرى تكامل خلقه آدم من طور إلى طور، ولكن الجميع يدور حول التراب والطين بأشكالها المختلفة إلى أن صار جسم الإنسان أشبه بالطين اليابس الذي إذا نقر، صوت.

وهذه الأطوار الستة التي يذكرها القرآن في خلقه آدم، ربما ينسبها إلى خلقه الإنسان كله، فيقول: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ أو قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾، وما هذا إلا لأن آدم أبوهم وأصلهم فصيح أن يصف أولاده بما للأب من الأوصاف.

والإنسان المعاصر وإن كان وليد النطفة، ولكن يصح وصفه بهذه الأطوار أيضاً من باب وصف الشيء بحال متعلقه.

الثانية: مرحلة التصوير

لما انتهت خلقه الإنسان إلى أن صار جسمه طيناً يابساً له صوت إذا نقر، جاءت مرحلة ثانية هي مرحلة التصوير.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١).

فقد أشارت الآية إلى مرحلتين من مراحل نشأته، أعني: خلقه من تراب بأطواره وتسويته الأولى بقوله سبحانه: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ وإلى الثانية بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾. والمراد من التصوير، هو التسوية الظاهرية لجسمه.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ

حَمًا مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١١﴾، فقد أشارت الآية إلى مرحلتين من نشأة آدم وهما: التسوية، ونفخ الروح.

فبالمقارنة بين الآيتين يعلم أن المراد من التصوير هو التسوية، غير أنه سبحانه ينسب التصوير في سورة الأعراف إلى الإنسان كله وفي سورة الحجر إلى آدم ﷺ، وقد مرّ أن القرآن يصف كل إنسان بصفات أبيه آدم. فالتصوير كان لآدم ولكن أثبتته للإنسان كله من باب وصف الشيء بحال متعلقه.

وعلى ضوء هذا فالتسوية والتصوير وهو التشكل بهيئة معينة تحققت قبل أن ينفخ فيه الروح، وهي الصورة التي خلق آدم وأولاده عليها.

وأما الفاصل الزمني بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية فيظهر من الآيات القرآنية أنها كانت قليلة حيث يعبر سبحانه في سورة الأعراف عن الفاصل الزمني بلفظ ﴿ثُمَّ﴾ فيقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ولكنه في سورة الحجر بلفظ «ف» ويقول: ﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، وهذا يكشف عن أن الفاصل الزمني لم يكن شيئاً كثيراً، بل كان على وجه يصح فيه استعمال كلتا الكلمتين بنظريتين مختلفتين، وأيضاً تفيد الآيات أن خلق آدم لم تكن أمراً دفعياً بل كان تدريجياً تم خلال أيام أو شهور قليلة.

الثالثة: مرحلة نفخ الروح

وهذه المرحلة السامية المرحلة الفاخرة التي بها تفوق الإنسان على سائر المخلوقات، وهي مرحلة نفخ الروح الذي يلزم كونه إنساناً عاقلاً مفكراً حرّاً ذا إرادة وغرائز وميول، التي بها استحق أن يكون مسجوداً للملائكة ومعلماً لهم - كما

سيوافيك بيانها..

قال سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١).

وبمثل هذا التعبير عبّر مرة أخرى في سورة (ص)^(٢).

وقد أضاف سبحانه الروح التي نفخها في آدم إلى نفسه، وقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، ومن المعلوم أنه سبحانه أجلّ من أن يكون له جسم وروح، لأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣)، فإذا تكون الإضافة هنا، إضافة تشريفية نظير إضافة البيت إلى نفسه في قوله: ﴿أَنْ طَهَّرْنَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٤). ومثله تسمية شهر رمضان، بشهر الله، كل ذلك لأجل التنويه بشرف الروح والبيت والشهر.

خلقة آدم ونظرية تكامل الأنواع

ما مرّ من الآيات ظاهر في أنّ آدم خلُق منذ خلق على هيئة خاصة وأنه لم يتحول من نوع إلى نوع آخر، خلافاً لنظرية تطور أصل الأنواع التي طرحها لأول مرة العالم الفرنسي «لامارك» (١٧٤٤ - ١٨٢٩ م) وبعده «تشارلز دارون» (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) الذي صاغ نظرية تطور الأنواع فعرفت بالدارونية، وقد ظهرت النظرية لأول مرة عندما طبع كتابه «أصل الأنواع» في منتصف القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أنّ أسس نظرية التطور التي طلع بها دارون كانت موجودة

١. الحجر: ٢٩.

٢. ص: ٧٢.

٣. الشورى: ١١.

٤. البقرة: ١٢٥.

في ثنايا ما عرضه «لامارك»، ولكنها لقيت من الاستقبال ما لم تلقه نظرية «لامارك»، لأن الوقت الذي عرض فيه دارون نظريته، كان مناسباً، إذ طرحها على المجتمع الغربي يوم كانت أوروبا في صراع شديد مع الكنيسة وفي حرب على مبادئها ومفاهيمها، فكانت هذه النظرية - التي استفاد منها البعض لمعارضتها مبادئ الكنيسة - خير سلاح شهره أعداء الكنيسة ضدها.

وقد شيّد دارون نظريته على نواميس أربعة لخصها بالعبارات التالية:

١. ناموس تنازع البقاء.

٢. ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح.

٣. ناموس الوراثة.

٤. ناموس الملائمة مع البيئة.

وعلى وفق هذه النظرية كان الإنسان وغيره من الأنواع كائنات حية بسيطة، ثم تطورت حسب الأصول والنواميس المذكورة إلى أن بلغت هذه التطورات حدّاً جعلته نوعاً ممتازاً على سائر الأنواع.

وعلى هذا الأساس لم يكن الإنسان يوم وجد على أديم الأرض على هيئته التي نراها اليوم، بل كان كائناً عضوياً بسيطاً صيرته التطورات الكثيرة في القرون المديدة إنساناً في صورته الفعلية، والإنسان في النتيجة هو أرقى الكائنات العضوية الحية.

وعلى ضوء ما ذكره، فالتطور والتكامل حصلاً تدريجياً عبر قرون وأزمنة كثيرة.

وحينما كانت نظرية «دارون» تدرّس في الجامعات والمحافل العلمية - وأخذها بعض البسطاء من الناس كأنها حقيقة راهنة - برزت إلى الساحة العلمية

نظرية أخرى باسم نظرية «التطور الفجائي» فقضت على أكثر ما اعتمد عليه دارون ومن قبله لامارك من أسس، وصارت النظرية الدارونية معرضاً لإشكالات واعتراضات وأخطاء كثيرة.

يقول العلامة الطباطبائي حول فرضية تكامل الأنواع: وهذه فرضية افترضت لتوجيه ما يلحق بهذه الأنواع من الخواص والآثار من غير قيام دليل عليها بالخصوص ونفي ما عداها مع إمكان فرض هذه الأنواع متباينة من غير اتصال بينها بالتطور وقصر التطور على حالات هذه الأنواع دون ذواتها وهي التي جرى فيها التجارب، فإن التجارب لم تتناول فرداً من أفراد هذه الأنواع تحوّل إلى فرد من نوع آخر كقردة إلى إنسان، وإنما تتناول بعض هذه الأنواع من حيث خواصها ولوازمها وأعراضها.

واستقصاء هذا البحث يُطلب من غير هذا الموضع، وإنما المقصود الإشارة إلى أنه فرض افترضوه لتوجيه ما يرتبط به من المسائل من غير أن يقوم عليه دليل قاطع، فالحقيقة التي يشير إليها القرآن الكريم من كون الإنسان نوعاً مفصلاً عن سائر الأنواع غير معارضة بشيء علمي.^(١)

وعلى كل تقدير فهذه النظريات التي وضعها علماء الطبيعة لا تتعدى كونها فروضاً متزلزلة دون أن تكون من الحقائق العلمية الثابتة حتى تلجئنا إلى تأويل كتاب الله العزيز وصرفه عن ظاهره. فالمعتقد الإسلامي هو أن أبانا آدم خلق على هذا الشكل ولم يتعرض للتطور الجوهري، واستمرت الخلقة على هذا الشكل إلى يومنا هذا.

تطبيق بعض الآيات على نظرية التطور

قد عرفت أنّ نظرية «دارون» قد أكل عليها الدهر وشرب ونسختها نظرية أخرى باسم نظرية التطور الفجائي أو الطفرات الوراثية، ومع ذلك يوجد في الشرق الإسلامي من غرته تلك النظرية فحاول أن يستدلّ عليها بآيات من الذكر الحكيم. فاستدلّ مثلاً بالآية التالية: على أن خلق آدم كان تدريجياً أشبه بما يدعيه «دارون» حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.^(١)

ووجه استدلاله أنّ الله سبحانه يذكر أنه اصطفى نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وأنه اختارهم من بين سائر الناس وأولاد آدم، ثمّ إنه عطف هؤلاء على آدم بأنه كان من المصطفين، فبالمقارنة يعلم أنه تعالى اصطفى آدم وانتخبه من النسل الموجود على الأرض، وهذا يعني - في زعمه - أن آدم لم يكن أوّل من وطأ هذه الأرض، بل كان هناك نسل من الإنسان النازل، وقد انتخب سبحانه الأفضل وجعله خليفة وأباً للنسل الحاضر.

ثمّ إنه يستقرب انطباعه عن الآية بلفظة العالمين، وإنّ المراد منه الإنسان الموجود في عصر آدم كالإنسان الموجود في سائر الأعصار.

يلاحظ على هذا الاستدلال: أنه مبني على أنّ المراد من «على العالمين» الأشخاص المتواجدون في أعصارهم، وعند ذلك يكون انتخاب آدم انتخاباً طبيعياً من بينهم.

وهذا خلاف الظاهر، فالمراد من العالمين هو مجموع الإنسان، سواء أكان

معاصراً لآدم أم لم يكن معاصراً له حتى الإنسان المتواجد قريباً من يوم القيامة، ويدلّ على ذلك استعمال العالمين في الذكر الحكيم في عامة الناس، قال سبحانه: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).
وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

فإن الله سبحانه لا يريد ظلماً لأي إنسان وجد على وجه هذه البسيطة، كما أنه جعل البيت الحرام مباركاً ومناراً للهداية لعامة الناس إلى يوم القيامة. وعلى ضوء هذا فيكون معنى قوله سبحانه: ﴿اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ ومن جاء بعده من الأنبياء على كل من يأتي بعده من البشر، وأين هذا من تخصيصه بمعاصريه؟! فيكون المراد اصطفاؤه بالنبوة وتعليمه الأسماء وأمر الملائكة بالسجود له، إلى غير ذلك من الصفات التي بلغ بها آدم إلى الدرجة العليا من الكمال.

استمرار ذريته

ذكرنا مراحل خلقه أبينا آدم ﷺ وأما نسله، فقد جعله الله سبحانه ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^(٣)، أي جعل ذريته من علقه مخلوقة من ماء مهين ضعيف في الغاية. نعم يتكامل ولد آدم في أرحام الأمهات خلقاً بعد خلق وينتقلون من طور إلى طور، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ

١. آل عمران: ١٠٨.

٢. آل عمران: ٩٦.

٣. السجدة: ٨.

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١﴾ .

هذه هي شجرة الإنسان التي يعرضها القرآن الكريم، واضحة في أصلها وفروعها، يذكرها الإنسان دون أن يغمره شعور بالنقص أو إحساس بعقدة نفسية، كالتي تشيعهما نظريات «لامارك» و«دارون» وأمثالهما، وهي تتحدث عن أصل آباءه وأجداده.

إن نظرية التطور أو ما تسمى بنظرية النشوء والارتقاء تزعم أن أشكال الحياة المختلفة بدأت من خلايا حية بسيطة ثم تطوّرت إلى كائنات كبيرة معقدة. وكان «لامارك» قد ذهب إلى أن البيئة هي القوة المؤثرة في التطور الذي يؤدي إلى ظهور صفات جديدة تورّث من جيل إلى جيل، وقد يبلغ التطور ذروته، فينتج عنه ظهور أنواع جديدة، إلا أن هذه النظرية فشلت علمياً، إذ أثبت العلماء أن الصفات الوراثية تنتقل إلى الأجيال عن طريق الخلايا الوراثية (التي لا تخضع للظروف البيئية)، ولا تأثير للخلايا الجسمية فيها. ثم جاء «دارون» فبنى نظريته على قانوني: التنافس على البقاء، والانتخاب الطبيعي. وكلا هذين القانونين تعرّضا لنقد شديد من قبل العلماء. والمجال هنا لا يتسع لذكر ذلك.

ومن الأدلة التي يستند إليها التطوريون في وجود العلاقة التطورية بين الحيوانات وبين الإنسان (الذي هو مجال بحثنا) هو وجوه التشابه المتواجدة بينهما. وهذا الزعم غير مسلم به، إذ أثبت علم التشريح المعاصر فروقاً هائلة بين الإنسان وبين القردة التي هي أقرب الحيوانات شكلاً إلى الإنسان، منها نمو الدماغ عند الإنسان، والتعبير بالنطق عن الأفكار، والقدرة على التصوّر وتكوين الأفكار. وهذه الفروق وغيرها جعلت بعض التطوريين ينفون اندراج الإنسان

تحت قانون الانتخاب الطبيعي مثل «والدس» و «فرخو».

ولولا إصرار التطوريين على عدم الإيمان بقوة خالقة للكون مدبرة للحياة، لكان لهم موقف آخر من هذه النظرية، كشف عنه أحد أنصارها وهو «السير آرثر كيث» بقوله: إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه ^(١)!!!

يقول العلامة الطباطبائي رحمته: وأما القرآن فظاهره القريب من النص أن هذا النسل الحاضر المشهود من الإنسان ينتهي بالارتقاء إلى ذكر وأنثى هما الأب والأم لجميع الأفراد، أما الأب فقد سمّاه الله تعالى في كتابه بآدم، وأما زوجته فلم يُسمّها في كتابه ولكن الروايات تسمّيها حواء كما في التوراة الموجودة .

قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا

١ . انظر الموسوعة العربية العالمية: ٢٥ / ٣٥٣ - ٣٥٩ (الطبعة الثانية).

٢ . السجدة: ٧ - ٨ .

٣ . آل عمران: ٥٩ .

٤ . البقرة: ٣٠ - ٣١ .

سَوِيَّتُهُ وَتَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١﴾.

فإن الآيات - كما ترى - تشهد بأن سنة الله في بقاء هذا النسل أن يتسبب إليه بالنطفة لكنه أظهره حينما أظهره بخلقه من تراب، وأن آدم خلق من تراب وأن الناس بنوه، فظهور الآيات في انتهاء هذا النسل إلى آدم وزوجته مما لا ريب فيه وإن لم تمتنع من التأويل. (٢)

ثم إن الغاية من ذكره سبحانه النشأة الأولى للإنسان والمراحل التي يمر بها خلقه، هي إلفات نظرنا إلى عظمة الخالق وقدرته اللامتناهية، ومن ثم التوجه إليه بالعبادة والشكر، حيث جعل التراب والطين وسلالتها إنساناً عالماً سميعاً بصيراً يسخر الأرض والسماء ويخلق بينهما.

٢

استخلاف آدم في الأرض

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. (٣)

إن الله سبحانه لما خلق آدم جعله بشراً سوياً إذ نفخ فيه من روحه، فصيره سميعاً بصيراً عاقلاً مفكراً إلى غير ذلك من الخصائص التي صلح بها أن يكون خليفة الله في أرضه، يحكي بكماله وجماله ما لخالقه من الكمال والجمال والأسماء

٢ . الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ١٤٢ .

١ . ص: ٧١-٧٢ .

٣ . البقرة: ٣٠ .

والصفات.

وقد عرض سبحانه على الملائكة استخلافه في الأرض وأخبرهم بذلك وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فلو كان ظرف هذا الإخبار قبل خلق آدم فالجعل بمعنى الخلق، ولو كان بعد خلقه فيكون معنى الجعل هنا انتخابه لهذا المنصب.

ولما كانت الملائكة غير عارفين بما يتمتع به آدم من كمالات استعظموا الأمر وقالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وحاصل كلامهم: أنه لا يليق بمن يفسد ويسفك الدماء أن يكون خليفة الله في الأرض، وإنما اللائق بهذا المنصب هم الملائكة الذين يسبحون بحمده ليلاً ونهاراً وينزهونه عن كل عيب وشين، وسيوافيك توضيح خلافته في الأرض. فأجيبوا بقوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لقد ذكر سبحانه قصة آدم في غير واحدة من السور لدواعٍ مختلفة، ولكنه لم يذكر استخلافه في الأرض وتعليمه الأسماء إلا مرة واحدة، ولذلك صار الأمران المذكوران من المعارف القرآنية التي قلما يتفق لإنسان الإحاطة بمغزاهما، ولأجل ذلك نفصل الكلام فيهما كما يلي:

خلافته في الأرض

لا شك أن أنبياء الله ورسوله ومن يخلفهم من الأوصياء والأئمة خلفاء الله في أرضه حيث إنهم وسائط بين الله وبين عباده يبلغون رسالات الله إلى الناس، وهذا النوع من الاستخلاف يختص بهذه الطبقة.

وبما أنه سبحانه يذكر خلافة آدم بصورة خاصة ويعدها من خصائصه،

فلخلافته إذاً معنى آخر، غير المعنى الذي عمّ الأنبياء والأوصياء قاطبة.

ويُتصور في بادئ الأمر لخلافته معنيان أولهما باطل و الآخر صحيح.

المعنى الأول: خلافته عن الله في الأرض بمعنى تفويض أمر الإلهوية والربوبية إليه فيها. وهذا الاحتمال مرفوض جداً بل لا يليق أن يذكر ويسطره، لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ فهو الشرك الأكبر الذي لا يتفوه به من له أدنى إلمام بالشرائع السماوية، فلا رب ولا مدبر ولا معبود سواه سبحانه، قال جل شأنه: ﴿لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١).

المعنى الثاني: - وهو المهم - خلافته عن الله سبحانه بشكل لا ينافي الأصول الصحيحة التي نزل بها الذكر الحكيم ودعا إليها الأنبياء والرسل. وهذا يتصور على وجهين:

الأول: محاكاة المستخلف في صفاته

لما ارتقى آدم درجة عالية من الكمال والجمال ولم يكن في صحيفة الوجود أفضل منه، صار يحاكي - بجماله وكماله - جاعله وخالقه في هذه الصفات، فكانه مرآة للرب تكشف عما في ذلك المقام من العظمة والقدرة على الإبداع.

نعم كل موجود إمكاني في صحيفة الوجود من غير فرق بين الإنسان وغيره يحكي بمقدار كماله وجماله، كمال ربه وعلمه وقدرته، ولكن لا يوجد في تلك الصحيفة موجود أفضل وأرقى من آدم وأولاده، ولأجل ذلك صار خليفة الله في أرضه، وموضع تجلي حكمته وعلمه وجلاله، وهو المقام الذي لم ترتق إليه حتى

الملائكة مع ما لهم من المكانة السامية إلا أنهم لم يرتقوا إلى ذلك المقام الذي كان لأدم.

يقول محمد عبده: إن الإنسان يتصرف بشعوره وإحساسه بالكائنات فيسخرها ويذلّلها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة التي يستمونها العقل ولا يعقلون سرّها، ولا يدركون حقيقتها وكنهها، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان.

أعطى الله الإنسان أحكاماً وشرائع تساعد على بلوغ كماله، لأنها مرشد ومرب للعقل الذي كان له كلّ تلك المزايا، فلماذا كلّ جعله خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة.

وقد ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فهو يتفنّن ويتبدع ويكشف ويخترع ويمجد ويعمل.

إلى أن قال: أليس من حكمة الله الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض. يقيم سنته، ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليفته، وبدائع حكمه، ومنافع أحكامه، وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم؟ وإذا كان الإنسان خليفة بهذا المعنى فكيف تعجب الملائكة منه؟^(١)

الثاني: خلافته عنه سبحانه في التصرف بالعالم

وهناك تفسير آخر لخلافة آدم عن الله سبحانه، وكأنّه والتفسير الأنف الذكر وجهان لعملة واحدة وحاصله: أنه سبحانه خلق العالم مليئاً بالقوى

الطبيعية والنعم الوافرة، وليس لأحد حق التصرف فيها إلا بتحويل من الله تعالى، فخلق آدم وأذن له أن يعمر الأرض ويخرج مواهبها ويستثمر طاقاتها وخيراتها، وبهذا صار خليفة الله سبحانه في الإعمار وال عمران، كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (١).

فالوارد في هذه الآية تعبير آخر عما جاء في الآية الأخرى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فقوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ تعبير عن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ يعادل قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾.

فالتفسيران يهدفان إلى أنه تبارك وتعالى استخلف آدم في الأرض لغايتين: الأولى: محاكاته بما أوتي من المواهب والقدرات في علمه وقدرته سبحانه. الثانية: قيامه بإعمار الأرض وإخراج طاقاتها وقدراتها بإذن منه سبحانه، فالمنوب عنه هو الله سبحانه وآدم هو الخليفة ووجه الخلافة أحد الأمرين الماضيين.

هذا هو المعنى الذي يتبادر من الآية مع ملاحظة بعض الآيات الأخرى. ثم إن هناك معنى آخر للخلافة يخالف المعنى السابق تماماً وهو:

الخلافة عن الأمم البائدة

ثمة قول آخر يذهب إليه بعض المفسرين، وهو أن الأرض كانت مسكونة

قبل أن تطأها قدما آدم ﷺ، ثم انقرض سكانها، فأراد الله أن يخلفهم بآدم وذريته، وليست الخلافة إلا مجيء شيء بعد آخر؛ يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ (١).

فالليل يخلف النهار، والنهار يخلف الليل بالتبادل و التعاقب.

وعلى ضوء ذلك، يكون المعنى أن الله سبحانه أخبر الملائكة بأنه سيجعل في الأرض من يخلف الأمم السابقة، وهذا شبيه بقول الله سبحانه، في الناجين من قوم نوح (إذ جعلهم خلفاء للغارقين والمهلكين): ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأُخْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (٢).

وليس هذا ببعيد بالنظر إلى بعض الآيات في القرآن، كالتي تتحدث عن هود أنه خاطب قومه بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (٣). أو التي تتحدث عن صالح، إذ خاطب قومه بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ (٤).

كل ذلك يقرب حقيقة أن خلق قوم بعد قوم يعد استخلافاً، فهذا هو موسى الكليم ﷺ يعد قومه بأن الله سبحانه يستخلفهم في الأرض قال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٥).

حتى أنه سبحانه وعد المؤمنين بأنه سيستخلفهم في الأرض وقال: ﴿وَعَدَ

١. الفرقان: ٦٢.

٢. يونس: ٧٣.

٣. الأعراف: ٦٩.

٤. الأعراف: ٧٤.

٥. الأعراف: ١٢٩.

اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾.

فعلى ضوء هذه الآيات يمكن أن نقول: إن خلافة آدم نظير خلافة هذه الأقسام بعضها لبعض.

ولو صحَّ هذا المعنى لكان مغايراً للمعنى الأول مغايرة تامة.

وإلى هذا الرأي يشير صاحب المنار ويقول: ذهب بعضهم إلى أن هذا اللفظ يُشعر بأنه كان في الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق وأنه انقرض، وإن هذا الصنف الذي أخبر الله الملائكة بأنه سيجعله خليفة في الأرض محل محله ويخلفه.

وبما أن هذا الصنف البائد قد أفسد في الأرض وسفك الدماء، فاستنبطت الملائكة سؤاها بالقياس عليه فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (٢).

وقد ورد في بعض الروايات ما يشير إلى هذا المعنى، حيث جاء فيها «ما علم الملائكة... لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء».

ولكن هذا التفسير غير واضح وغير موافق لظاهر الآية وذلك:

أولاً: لو كان المراد هو الخلافة عن الصنف البائد لماذا ذكر سبحانه - بعد استعظام الملائكة لذلك - تعليم الأسماء وقال: ﴿وَهَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ...﴾، وهذا يدل على أن خلافة آدم لم تكن خلافة عن الأقسام البائدة بل هي خلافة عن الله سبحانه، ولهذا الكرامة علمه سبحانه الأسماء وعرضها على الملائكة فاعترفوا بجهلهم بها.

١. النور: ٥٥.

٢. تفسير المنار: ١/٢٥٨.

وثانياً: أنّ الأمر بسجود الملائكة لآدم الذي هو تكريم في أعلى صورة لهذا المخلوق لا يناسب كونه خليفة عن الأمم البائدة الفاسدة السفّافة للدماء، حيث وهبه الله من الأسرار ما رفعه على الملائكة، والله سبحانه يذكر في الآيات المتقدمة خلافة قوم لقوم دون أن يذكر فيها شيئاً مما ذكره في خلافة آدم.

الخلافة لآدم بنوعه

هل الخلافة التي تحدّث عنها القرآن مختصة بأبينا آدم ﷺ، أو أنها لآدم وأبنائه قاطبة؟

يمكن استظهار الوجه الثاني بالأمر التالية:

١. لو كانت الخلافة مختصة لآدم بشخصه لم يكن للسؤال الاستنكاري للملائكة وجه، لأنّ آدم ﷺ لم يفسد ولم يسفك الدماء وأنها خاض في الدماء ونشر الفساد بعض أبنائه وأولاده. وهذا يدلّ على أنّ الملائكة فهموا من الخلافة خلافة آدم بنوعه لا بشخصه.

٢. سيوافيك في المحور الرابع أنّ المسجود له بظاهره هو أبونا آدم ﷺ ولكن السجود له كان سجوداً لأولاده عامة، فالإنسان بنوعه لأجل مواهبه وقدراته بلغ مرتبة استحق بها أن تسجد الملائكة له.

وهذا يثبت أنّ الخلافة لم تكن لشخص آدم، بل كانت رمزاً للخلافة الإنسان عن الله سبحانه بأحد الوجهين الماضيين: إمّا حكايته لجلاله وجماله سبحانه، أو بنيابته عن الله في الأرض لإعمارها.

تعليم الأسماء لآدم ﷺ

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (١)

من المحطات الموجودة في أول خلق آدم ﷺ والتي يجب على الباحث التوقف والتدبر فيها هو تعليمه سبحانه الأسماء له، وقد ورد تعليم الأسماء لآدم مرة واحدة في الذكر الحكيم، ولذلك أُحيط الموضوع بهالة من الإبهام، ولذا فإن إيضاح الموضوع رهن تبين معاني مفردات ومقاطع من الآيات المذكورة.

١. الأسماء

وهو جمع اسم فقد يطلق ويراد به ما يقابل الفعل والحرف ولكنه غير مقصود، وربما يعتبر به عن الموجودات، وهذا هو المراد به في المقام.

قال الراغب: والاسم ما يعرف به ذات الشيء. وأصله «سمو» بدلالة قولهم أسماء وسمي، وأصله من السموّ وهو الذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به، قال

سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ أي الألفاظ والمعاني مفرداتها ومركباتها. (١)
ثم إن الألف و اللام في الأسماء مفيدة للاستغراق أو هي نائبة عن المضاف إليه، فقوله الأسماء أي أسماء المسميات وأسماء الأشياء.

٢. العرض على الملائكة

ثم إنه سبحانه بعد ما علم آدم الأسماء ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، وضمير الجمع هنا دليل على أنه سبحانه عرض واقع الأسماء والمسميات على الملائكة، ويشهد على أن المراد هو عرض المسميات لا الأسماء فقط، أنه سبحانه خاطب الملائكة بقوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، فلو كان المعروض هو الأسماء لما صح أن يقول: «بأسماء هؤلاء»، الذي يدل على أنه سبحانه عرض المسميات عليهم، ثم استنبأهم عن أسمائهم.

٣. إن كنتم صادقين

جملة إن الشرطية متعلقة بمحذوف وهو: لو كنتم صادقين بأنكم أهل للخلافة دون آدم وولده فأنبئوني بأسماء هؤلاء.

٤. إنباء آدم بالأسماء

أمر الله سبحانه آدم أن ينبئ الملائكة بأسماء المسميات. وقوله: ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يدل على أن المسميات كانت حاضرة مشهودة للملائكة وآدم، ولذلك قال: بأسمائهم.

١. المفردات: ٢٤٤، مادة «سمو».

٥. علمه سبحانه بغيب السماوات والأرض

إنّ هذا المقطع من الآية يحكي أنّ هذا المخلوق قد وُهب سرّاً، كان خافياً عن الملائكة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

كما أنّ قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يُشعر بأنّ الملائكة قد أعربوا عن بعض ما كان في ضميرهم وكتّموا البعض الآخر، فأخبرهم الله سبحانه بأنّه يعلم ما يبذون وما يكتُمون.

إلى هنا تمّ ما أردنا تبيينه من مفردات الآيات ومقاطعها فلندخل في صلب الموضوع، وهو:

٤

سجود الملائكة لآدم عليه السلام

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٢).

يظهر من سياق الآيات الواردة في سورة البقرة أنّه سبحانه لما علّم آدم الأسماء كلّها وأمره أن يُنبئ الملائكة بها، وجّه أمره سبحانه إلى الملائكة بالسجود

١. البقرة: ٣٤.

٢. الأعراف: ١٢.

لأدم إجلالاً له وتكريماً، فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس، فصار آدم مسجوداً حقيقياً لهم لا قبله لهم، نظير الكعبة للمصلين، ومع ذلك لم تكن الملائكة عابدين لأدم، ولا مشركين في عبادتهم لله سبحانه، ولم يكن أمره سبحانه بالسجود لأدم أمر بعبادته. كيف والشرك ظلم عظيم^(١)، وهو قبيح في منطق العقل والشرع، والله سبحانه لا يأمر به.^(٢)

وعلى ضوء ذلك يجب أن نقف على الفارق الموجود بين سجود الملائكة لأدم، الذي يُعتبر تكريماً له لا عبادة، وبين سجود عبدة الأصنام، الذي يُعتبر عبادة لها.

والملائكة ما زالوا في صفوف الموحدين والمسبحين والمنزهين لله بخلاف عبدة الأصنام وهم مشركون غارقون في الشرك. وفي بيان الفارق بين العملين وجوه، تأتي بها تباعاً:

الأول: جعل آدم قبله فقط

يعتمد هذا القول على أن السجود عبادة فلا يمكن تشريعه لغير الله سبحانه. ولما كان سجود الملائكة سجوداً جماعياً متجهاً إلى نقطة واحدة جعل آدم قبله^(٣) لتوحيد اتجاههم إلى نقطة واحدة، وكان في ذلك إجلالاً لأدم وتكريماً له.

يلاحظ على هذا الوجه أولاً: بأنه مخالف للآيات الواردة في هذا الشأن،

١. ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. لقمان: ١٣.
٢. ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾. الأنعام: ١٤٨.
٣. نقله الشيخ الطوسي في «التبيان في تفسير القرآن» عن الجبائي والبلخي وجماعة.

والتي صرحت بأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأما القبلة فلا يسجد لها الإنسان وإنما يتجه إليها في السجود لله.

وبعبارة أخرى: قوله سبحانه: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ نفس قوله: «اسجدوا لله»

فالتفكيك بين التعبيرين غير صحيح.

وثانياً: لو كان السجود لآدم بمنزلة التوجه إلى الكعبة دون أن يكون تواضعاً وتذلاً له، فلماذا استكبر إبليس و امتنع من السجود له وقال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِئٍ مَسْنُونٍ﴾^(١)؟ فامتناعه واستكباره آية أن آدم مسجوداً له لا كونه قبلة فقط.

الثاني: السجود بأمر الله سبحانه

ثم من يتحدث عن العبادة، دون أن يضع لها حداً منطقياً يميّزها عن التبجيل و التكريم، زاعماً أن كلّ تذلل أمام شخص عبادة له، وأن سجود الملائكة لآدم إنما خرج عن كونه عبادة له، لأنه بأمر الله تعالى، ولولا أمره سبحانه، لكان سجودهم له عبادة. وبهذا أيضاً يُفسّر سجود أبوي يوسف وإخوته له في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.^(٢)

وهذا القول كثيراً ما يردده ويؤكد عليه مشايخ الحرمين الشريفين.

ويلاحظ عليه: بأنه لو كان سجود الملائكة لبشر مثل آدم داخلاً في الشرك موضوعاً وماهيةً، تكون حقيقته كحقيقة سجود المشركين لأصنامهم وأوثانهم، وعندئذ لا يُخرج أمر الله سبحانه بالسجود لآدم عن كون السجود عبادة لآدم، فإن

١. الحجر: ٣٣.

٢. يوسف: ١٠٠.

الأمر لا يغيّر الموضوع، غاية الأمر أن الشيء إذا كان حراماً فأمر الله سبحانه في مجال خاص يجعله مباحاً دون أن يمسّ ماهية الموضوع قيد شعرة. ولنمثل لذلك بمثال:

إن السبّ محكوم بالحرمة في الإسلام، فإذا أمر الله سبحانه بسبّ المنافقين أو المشركين فأمره هذا لا يخرج السبّ عن واقعه، فالسبّ في عامة الحالات سبّ، غاية الأمر أن أمر الله سبحانه يعطي ترخيصاً في العمل، فيخرجه من الحرمة إلى الجواز.

ولذلك اشتهر بين الأصوليين أن التخصيص غير التخصّص، فالثاني خروج موضوعي والأول خروج حكمي، فلو قال: أكرم العلماء إلا زيدا وكان زيد عالماً، فاستثناؤه زيد يعد إخراجاً من الحكم لا إخراجاً من الموضوع، فهو عالم من العلماء غاية الأمر لا يجب إكرامه، بخلاف ما إذا قال: لا تكرم زيدا الجاهل، فخروجه خروج تخصصي من الموضوع.

الثالث: العبادة هي الخضوع عن اعتقاد خاص

الإشكال مبني على تعريف العبادة بكونها مطلق الخضوع والتذلل، وعلى هذا يصبح سجود الملائكة لأدم من أقسام العبادة. ولكن هذا التفسير مردود جداً، إذ ليست العبادة هي مطلق الخضوع والتذلل وإلا لا تجد على أديم الأرض موحداً منزهاً عن الشرك. وهذا القرآن ينطق بأن يعقوب وزوجته وأولاده قد خرّوا أمام يوسف ساجدين، وعند ذلك تذكّر يوسف ما رآه في سالف الأيام: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.^(١)

وكان يوسف قد قصر رؤياه على أبيه قائلاً: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١).

كيف يكون مطلق التذلل عبادة للمتذلل له، والله سبحانه في كتابه الحكيم يأمر الولد بالخضوع لوالديه، قائلاً عز من قائل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^{(٢)؟!}

وإذا كان مطلق الخضوع والتذلل من مصاديق العبادة، كان خضوع الجنود لقادتهم عبادة لهم أيضاً.

كل ذلك يكشف عن تغاير العبادة مع التذلل والخضوع، وإن كان اللغويون فسروها بالتذلل والخضوع.

قال ابن منظور: أصل العبودية: الخضوع والتذلل ويقول الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها نهاية التذلل.

وقال الفيروزآبادي: العبادة: الطاعة.^(٣)

وأنت جد عليم، بأن الجميع تفسير بالأعم وإن العبادة أخص من هذه التعاريف ضرورة أن كل تذلل، أو كل طاعة ليسا عبادة للمتذلل له أو المطاع، وإلا صح أن نعد إطاعة الرسول وأولي الأمر التي أوجبها الله تعالى بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا الْأَمْرَ مِنْكُمْ﴾^(٤) - صح أن نعدّها - عبادة

لهم!!!

١. يوسف: ٤.

٢. الإسراء: ٢٤.

٣. راجع لسان العرب، والمفردات، والقاموس، مادة «عبد».

٤. النساء: ٥٩.

تحديد العبادة تحديداً منطقياً

إنَّ حلَّ الإشكال رهن تحديد العبادة وتعريفها، تعريفاً منطقياً، يكون جامعاً لعامة افراده ومانعاً عن الانحياز، فهناك تعاريف ثلاثة يهدف الجميع إلى أمر واحد، واليك بيانها:

١. العبادة عبارة عن: الخضوع عن اعتقاد بالوهية المعبود، فما لم يكن القول والعمل ناشئين من الاعتقاد بالإلوهية لا يكون الخضوع والتعظيم عبادة. والمراد من الإلوهية هو الاعتقاد بكونه إله العالم وخالقه ومدبره، وأن أزمّة الأمور كلها أو بعضها بيده، فهذا هو المراد من الإله في عامة الآيات، وأمّا تفسيرها بالمعبود فهو تفسير باللازم. فالإله ولفظ الجلالة «الله» بمعنى واحد إلا أن الثاني عَلمٌ دون الأول.

والذي يدلُّ على ذلك (العبادة: هي الخضوع النابع عن الاعتقاد بالإلوهية) فهو يأمر بعبادة الله وينهى عن عبادة غيره، محجّجاً بأنّه لا إله غيره. أن كلَّ نبيٍّ يهتف في قومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١).

فالعبودية من شؤون إله الكون ومدبره كلاً أو بعضاً. ومن هذه الناحية اعتقد المشركون بالإلوهية الأوثان والأصنام حيث كانوا يثبتون لها بعض شؤون الإله كحق الشفاعة والمغفرة، أو العزة^(٢) والنصر في الحرب.^(٣) وبكلمة واحدة: كانوا يسوّونهم برب العزة في بعض شؤون الإله كما يحكي عنهم قوله سبحانه: ﴿قَالَ لَهُ إِنْ

١. الاعراف: ٥٩.

٢. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ مريم: ٨١.

٣. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ يس: ٧٤.

كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نَسَوْنَكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾. وأين عقيدتهم وأعمالهم هذه من عقيدة الملائكة بأن آدم خليفة الله في أرضه، كرمه الله تعالى بتعليم الأسماء أو من عقيدة المسلم الموحد، الذي لا يرى للنبي وأولي الأمر شيئاً من هذه المقامات ولا يسويهم برب العالمين. بل يرى أنهم عباد صالحون مطيعون لله أو ابون، آتاهم الله فضلاً عظيماً، وهم عند الله زلفى وحسن مآب.

٢. العبادة هي الخضوع أمام من يعتقد أنه رب يملك شأناً من شؤون وجوده وحياته في آجله وعاجله، سواء كان أمراً مادياً كالعزة والنصر، أم معنوياً كمغفرة الذنوب.

والمقصود من الرب، هو المالك لشؤون الشيء، المتكفل لتدبيره وتربيته، ولذلك تكون العبودية في مقابل الربوبية.

ويدل على ذلك طائفة من الآيات التي تعلق الأمر بحصر العبادة في الله وحده بأنه الرب لا غير، وإليك بعض هذه الآيات:

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. (٢)

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾. (٣)

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. (٤)

وقد ورد مضمون هذه الآيات في آيات أخرى هي: يونس: ٣؛ الحجر: ٩٩؛

مريم: ٣٦، ٦٥؛ الزخرف: ٦٤.

١. الشعراء: ٩٧-٩٨.

٢. المائدة: ٧٢.

٣. الأنبياء: ٩٢.

٤. آل عمران: ٥١.

٣. العبادة هي الخضوع أمام من نعتقد أنه إله العالم، أو من فُوض إليه أعماله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة التي تعد من الأفعال الكونية، أو التقنين والتشريع وحق الشفاعة والمغفرة التي تعد من الأفعال التشريعية.

إنَّ الموحد يعبد الله سبحانه بما أنه قائم بهذه الأفعال، من دون أن يفوض شيئاً منها إلى مخلوقاته، ولكنَّ المشركين مع اعتقادهم بأنَّ آلهتهم وأربابهم، مخلوقون لله تبارك وتعالى، فإنهم يعتقدون أيضاً أنه فُوض إلى آلهتهم أمور التكوين والتشريع كلها أو بعضها، ومن أجل هذا كانوا يستمطرون بالأنواء والأصنام^(١)، ويطلبون الشفاعة منهم بتصور أنَّهم مالكون لحق الشفاعة، ويطلبون منهم النصر والعزة في الحرب بزعم أنَّ الأمر بيدهم وأنه فُوض إليهم. وعلى ضوء هذه التعاريف الثلاثة يظهر الفرق الجوهرية بين التوحيد في العبادة والشرك فيها، فكلُّ خضوع نابع عن اعتقاد خاص بالهية المخضوع له وربوبيته أو تفويض الأمر إليه فهو عبادة للمخضوع له سواء كان ذلك الاعتقاد الخاص في حقَّ المعبود حقاً - كما في الله سبحانه - أو باطلاً كما في حقَّ الأصنام وكلِّ معبود غيرها.

فظهر أنَّ كلَّ خضوع ناجم عن هذا النوع من الاعتقاد، عبادة للمخضوع له. وأما لو كان الخضوع مجرداً عن هذه العقيدة فهو تعظيم وتكريم، وليس بعبادة، ولا يكون الخاضع مشركاً، ولا عمله موصوفاً بالشرك، غاية الأمر أنه قد

١. جاء في السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٧٩ أن أول من أدخل الوثنية إلى مكة هو عمرو بن لحي، حيث استصحب معه من أرض الشام صنماً يقال له (هبل)، فنصبه في مكة، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

يكون حلالاً كما في الخضوع للأنبياء والأولياء ومن وجب له حق بالتعليم والتربية، وقد يكون حراماً كالسجود للنبي ﷺ والولي ﷺ وغيرهما لا لأنه عبادة للمسجود له، بل لأنه لا يجوز السجود لغيره سبحانه في الشريعة الإسلامية.

وبمثل هذا التبيان تتميز العبادة عن التعظيم، فتقيل المصحف وضرائح الأنبياء وما يمت إليهم بصلة إذا كان فارغاً عن اعتقاد الألوهية والربوبية والتفويض فهو ليس عبادة للمخضوع له.

كل ذلك يعرب عن أن سجود الملائكة لأدم لم يكن من سنخ العبادة، بل كان تكريماً وتعظيماً.

نعم يحرم السجود في الشريعة الإسلامية لكل بشر، لا بما أنه عبادة، بل بما أنه حاك عن أفضل صور العبادة في مواردنا، فهو حرام مطلقاً إلا لله سبحانه، سواء أكان عبادة أم غير عبادة.

هل كان السجود لشخص آدم؟

ظاهر بعض الآيات أن السجود كان لشخص آدم حيث قال تعالى: ﴿اسْجُدْوا لِأَدَمَ﴾. فكان آدم بشخصه وعينه هو المسجود له دون غيره، وهناك نظر آخر غير بعيد عن ظاهر بعض الآيات الأخر وهو أن السجود له كان رمزاً للسجود له ولذريته، وذلك لوجهين:

١. أنه يوجد في ذرية آدم أنبياء ورسل وأولياء وأوصياء، سيرتقون مراتب عالية فلا بدعة أن يكون السجود له سجوداً رمزياً له ولغيره. كل ذلك تكريماً لهم في بدء الخليقة.

٢. أنه تبارك وتعالى ينسب خلقه آدم وتصويره إلى أولاده حتى ينسب

هبوطه إلى الأرض إليهم، ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ (١)

ويقول تعالى: ﴿انْهَبُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢)

كل ذلك يشعر بأن ما وصف به أبونا آدم ﷺ صح أن توصف به ذريته، والله العالم.

هل كان إبليس من الملائكة؟

ظاهر بعض الآيات أن إبليس كان من الملائكة وذلك بحكم الاستثناء المحمول على الاستثناء المتصل، في قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣)

ومع ذلك فصريح بعض الآيات أنه كان من الجن، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٤)

فقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعة أمر ربه، ومعنى قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي كان من ذلك الخلق.

ويدل على عدم كونه ملكاً أمران:

١. الأعراف: ١١.

٢. الأعراف: ٢٤.

٣. الحجر: ٢٩-٣٠.

٤. الكهف: ٥٠.

أ. أنه سبحانه يصف الملائكة بأوصاف تلازم العصمة، كقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾^(١).

وقوله في حقهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢)، وقوله في وصف دأبهم على تسبيح الرب: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(٣).

فأين هذه الصفات التي وصفت بها الملائكة مما تفوه به إبليس: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ﴾^(٤).

ب. إن ظاهر بعض الآيات أن لإبليس أولاداً وذرية قبلاً، قال سبحانه وهو يتحدث عن إبليس: ﴿أَفَتَسْخِذُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ﴾^(٥). وقال: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾^(٦) ويظهر أيضاً أن الجن (الذين يسمي إليهم إبليس، كما مر بنا قريباً) يتكاثرون، وأن فيهم رجالاً ونساءً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٧).

أما الملائكة فليس فيهم ذكور وإناث، ومن هنا فنجد سبحانه قول المشركين المعتقدين بأن الملائكة إناث، وقال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَنَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾^(٨).

وهنا يطرح السؤال التالي: إذا لم يكن إبليس من صنف الملائكة فما هو الوجه في استثناء إبليس منهم؟

والجواب: أنه سبحانه خاطب الملائكة بالسجود لآدم وإبليس حيثئذ كان

- | | |
|-----------------------|-------------------|
| ١ . الأنبياء: ٢٦-٢٧ . | ٢ . النحل: ٥٠ . |
| ٣ . الأنبياء: ٢٠ . | ٤ . الحجر: ٣٣ . |
| ٥ . الكهف: ٥٠ . | ٦ . الأعراف: ٢٧ . |
| ٧ . الجن: ٦ . | ٨ . الزخرف: ١٩ . |

معهم، وفي الوقت نفسه خص إبليس بخطاب آخر، والذي يعرب عن تخصصه بالخطاب، وراء خطاب الملائكة، قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (١).

وعندئذ صارت الوحدة المكانية والاشترار في التكليف مبرراً لاستثناء إبليس عند ذكر سجود الملائكة.

وإلى ذلك يشير الطبرسي بقوله: إن استثناء الله تعالى إياه منهم لا يدل على كونه من جملتهم، وإنما استثناءه منهم لأنه كان مأموراً بالسجود معهم فلما دخل معهم في الأمر جاز إخراجه بالاستثناء منهم. (٢)

وفي الحديث عن جميل بن دراج عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سأله عن إبليس أكان من الملائكة أو كان يلي شيئاً من أمر السماء؟ قال: «لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء وكان من الجن وكان مع الملائكة، وكانت الملائكة ترى أنه منهم وكان الله سبحانه يعلم أنه ليس منها، فلما أمر بالسجود لآدم كان منه الذي كان». (٣)

وثمة من يذهب إلى أن الجن صنف من الملائكة، ولأجل ذلك صح استثناء إبليس منهم، نقل هذا الرأي الشيخ الطوسي (٤) وغيره، وتبناه صاحب المنار قائلاً: وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر وإنما هو اختلاف أصناف، عندما تختلف أوصاف، كما تشير إليه الآيات.

١. الأعراف: ١٢.

٢. مجمع البيان: ١/٨٢.

٣. مجمع البيان: ١/٨٢.

٤. التبيان في تفسير القرآن: ١/١٥٢.

فالظاهر أنّ الجنّ صنف من الملائكة، وقد أطلق في القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأي جمهور المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾^(١).^(٢)

ولكن هذا الرأي مما ينبغي التأمل فيه، لأنّ القرآن حيثما يذكر الملائكة يقرن ذكرهم بالمدح والثناء المطلق، على خلاف الجن والإنس (أعني الكثير منهم) الذي يقترن ذكرهم فيه بالذم، كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات.

وأين هذا من الملائكة الرافلين في رياض القدس...؟! والله العالم.

حقيقة استكبار إبليس

ورد في الآيات القرآنية أنّ إبليس عصى أمر ربه مستكبراً، وأنّه - حسب زعمه - خير من آدم، إذ خُلِقَ من نار وآدم من طين. وظاهر هذه الآيات التي مضى ذكر قسم منها أنّه استكبر على آدم، ولم يستكبر على الله تعالى. ويؤيد ذلك كلام إبليس عندما أمر بالسجود لآدم على ما رواه هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام قال: «أمر إبليس بالسجود لآدم وقال: يا ربي وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنك عبادة ما عبدك أحد قط مثلها»^(٥).

ولكن الغور في أعماق القصة وما جاء في ذيل الحديث عن الإمام

١. الصافات: ١٥٨.

٢. تفسير المنار: ١/٢٦٥.

٣. الأنعام: ١١٢.

٤. الأعراف: ١٧٩.

٥. بحار الأنوار: ١١/١٤٥.

الصادق عليه السلام يكشف لنا أنه تكبر في الباطن على الله تبارك وتعالى.
وذلك لوجوه:

١. لو كان إبليس مسلماً ومطيعاً لله تعالى من صميم وجوده لما أقدم على عصيانه ومخالفة أمره، ولذا أبى الله تعالى أن يستجيب لطلبه بإعفائه من السجود، قائلاً عز من قائل - كما في الرواية المذكورة آنفاً - : «إني أحبُّ أن أُطاع من حيث أُريد»^(١) ومعنى ذلك أن آية التسليم هي النزول على أوامر الله سبحانه من غير تفريق بين أمر وآخر.

٢. تمثل مخالفة إبليس لأمر الله بالسجود لآدم - اغتراراً بأصله - استخفافاً بهالك الملك والملكوت، تماماً كتكذيب الأنبياء الذي عدّه سبحانه تكديماً لآياته، حيث قال جل شأنه: ﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَخْرُنُّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٢). فكان تكذيب النبي له وجهان: ظاهره تكذيب النبي، وباطنه إنكار آيات الله سبحانه وتكذيب لها. وعلى ضوء ذلك فاستكباره على آدم هو ظاهر القصة، واستكباره على الله باطنها وكلاهما صحيحان.

٣. لما استكبر إبليس واعتصم بأنانيته في مكان قدسي لا يعصي الله فيه أحد، خاطبه سبحانه بقوله: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٣).

ومعنى ذلك أن اللائق بكل من حل بهذا المكان أن يخلع عنه رداء التكبر،

١. بحار الأنوار: ١١ / ١٤٥.

٢. الأنعام: ٣٣.

٣. الأعراف: ١٣.

ولذلك أمر بالهبوط من هذا المكان.

٤. من مظاهر التكريم لآدم وإعلاء شأنه أنه سبحانه أضاف الروح التي أوجدها فيه إلى نفسه، ثم أمر الملائكة وإبليس بالسجود له، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١).

كما أنه سبحانه ندد بإبليس لاستكباره وامتناعه من السجود لما خلقه بيديه، وهو كناية عن اهتمامه بخلقه وقدرته على الخلق والإيجاد، قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(٢). وفي الآيتين إشعار بأنه استكبر على خالقه، حيث لم يسجد لمخلوق كان الله فيه عناية خاصة، نفخ فيه من روحه، وخلق بيديه.

استمهال إبليس

إنه سبحانه بعدما طرد إبليس من رحمته، استمهله هذا بقوله: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٣)، فأجابه سبحانه تارة بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾^(٤) دون أن يحدد بوقت، وأخرى بالتحديد إلى يوم الوقت المعلوم: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾^(٥).

ومع أن إبليس طلب الإمهال إلى يوم يبعثون، لكنه سبحانه أمهله إلى يوم الوقت المعلوم كما عرفت، لأن الموجودات الإمكانية عامة تذوق الموت في النفخة

١. الحجر: ٢٩.

٢. ص: ٧٥.

٣. الأعراف: ١٤.

٤. الأعراف: ١٥.

٥. الحجر: ٣٧-٣٨.

الأولى ومنهم إبليس ثم إنهم يبعثون في النفخة الثانية التي تقوم القيامة بعدها، قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾. (١)

وهنا يردُّ هذا التساؤل: لماذا أمهل الله سبحانه إبليس بعد أن طرده عن

حظيرة القدس؟

ويجاب بوجهين:

١. إن إبليس ممن عبد الله سبحانه ستة آلاف سنة، وإن كان قد أحبط عمله بالكبر ساعة واحدة، لكنَّه سبحانه كرامة منه أمهله مكافأة لما عبد.

قال الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة». (٢)

٢. لقد أمهل الله الشيطان لتمييز من يفتن باغوائه عمَّن يدبر عنه ولا يطيعه.

ولما أيقن إبليس بتلبية طلبه في الإمهال، أظهر ما في نفسه من العداة لآدم وذريته والرغبة في الانتقام منهم، قائلاً: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. (٣)

١. الزمر: ٦٨.

٢. نهج البلاغة، الخطبة القاصعة رقم ٩٢.

٣. الأعراف: ١٦-١٧.

وقد حلف في موضع آخر بعزته سبحانه، قائلاً: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

إنَّ العداوة التي تمكّنت من نفس إبليس منذ أن استحق اللعنة الأبدية لاستكباره وامتناعه من السجود لأدم، والتي قادت إلى الثأر منه ومن ذريته، إن هذه العداوة، لتدعو الإنسان إلى الحذر من وساوسه ونفثاته، والتحفّظ من الوقوع في شباكه وحبائله، وهو لا ينفك عن خداع الناس والكيد لهم لإفسادهم وإضلالهم.

أما الجاحدون العاصون فيُصغون إليه ويغترون به، فيستحوذ على قلوبهم، وأما المؤمنون المعتصمون بالله اللاهجون بذكره، فهم منه بمنجاة: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(٢).

والشيطان نفسه قد اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين، واضطرّ إلى أن يقول: ﴿وَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٣).

ثم إنَّ سلطانه على الذين يتبعونه ليس من باب الجبر والقهر، بأن يأخذ بزمام حياتهم بيده، ويلقيهم في الهاوي والمهالك، وإنما يتجلى سلطانه بالإغراء والخداع، وتزويق الباطل وزخرفته، أو ما يعبر عنه القرآن بالتزيين والهمز والوسوسة في الصدور: ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾^(٤)، ﴿وَقُلْ رَبِّ أعوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾^(٥)، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾^(٦).

٢. النحل: ٩٩-١٠٠.

٤. الحجر: ٣٩.

٦. الأعراف: ٢٠.

١. ص: ٨٢.

٣. الحجر: ٣٩-٤٠.

٥. المؤمنون: ٩٧.

وقائع لا مثاليات

إنّ المتقين - هم - الذين يؤمنون بالغيب ويتلقون ما يذكره القرآن حول خلق آدم وتعليمه الأسماء وسجود الملائكة وتمرد إبليس عن السجود وإخراجه عن حظيرة القدس، يتلقون ذلك كحقائق وواقعيات دون أن يتسرّب الريب إلى قلوبهم في جانب من هذه القصص.

وأما الذين انبهروا بالعلوم المادية واغتروا بأدواتها فحاولوا أن يصبوا المسائل الغيبية الخارجة عن إطار التجربة والمشاهدة في قوالب مادية، وحاولوا عندما وقفوا أمام هذه الآيات التي تذكر حقائق غيبية لا مجال لمعرفتها بالحس والتجربة، - حاولوا - أن يأولوا بأمر خيالية ومثالية، مدّعين أنّ ما يذكره القرآن الكريم في هذا الصدد قد وقع في عالم الخيال الذي هو أشبه بالمنامات. أو أنّها كنايات عن النزاع بين جنود العقل وجنود الجهل، أو قوى الخير وقوى الشر، وهم بصنعهم هذا يحسبون - واهمين - أنّهم قد نجحوا في التوفيق بين التصديق بما يذكره القرآن الكريم وبين ما تفرضه التجربة والعلوم المادية.

ومّا لا شك فيه أنّ هؤلاء وإن كانوا من المسلمين لكن انبهارهم بالعلوم التجريبية وبها حققتهم من تقدّم في حقل المادة، قد هيمن على أفكارهم ومشاعرهم، فجعلتهم لا يطمثون إلا إلى ما أثبتته العلم، وصدّقتهم التجربة، وكان الخط وأخره هو ما تسطره هذه العلوم، فليس وراءها حقيقة، كما ليس وراء عبادان قرية.

ولكن الإنسان القوي الإيمان بالغيب والوحي، والذي ملأ نور القرآن قلبه وفكره يؤمن بالغيب كلّ دون أن يُخضعه لأراء الآخرين وتجاربهم، ومن هنا يصف

الله سبحانه في كتابه المجيد بأنه هدى للمتقين ويصف هؤلاء المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة. (١)

٥

سُكْنَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ الْجَنَّةَ

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. (٢)

تدل الآية الشريفة على أنه سبحانه أمر آدم بسكنى الجنة، والأكل من ثمرات أشجارها حيثما شاء، ولكن نهاهما عن الاقتراب من شجرة معينة، لئلا يكونا من الظالمين.

وفي الوقت نفسه حذره من الشيطان ومن الانصياع إلى تفريره، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾. (٣)

لكن الشيطان تقرب منها بهيئة الناصح الراجي لها الخير، زاعماً أنّ الإنسان غب الأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً ويكتب له الخلد في الجنة، وانها نهباً عن تلك الشجرة لئلا يبلغا هذا المقام الكريم، يقول سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا

١. لاحظ البقرة: ٣.

٢. البقرة: ٣٥.

٣. طه: ١١٧.

الشَّيْطَانُ لِيُؤْتِيَهُمَا مَآءٌ مَّا وَوَرِيَّ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١﴾.

ولم يكتف اللعين بهذا المقدار من التفرير والفريفة على الله سبحانه بل حلف أنه لها ناصح، كما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾. (٢)

هذا ما يقف عليه القارئ من التدبر في هذه الآيات.

وهنا نكات يجب التنبيه عليها:

١. مكان آدم قبل سكناه الجنة

لا شك أنه سبحانه أمر آدم بسكنى الجنة، عقب سجود الملائكة له، وإياء إبليس عن ذلك وعندئذ يطرح السؤال التالي نفسه: أين كان مثنى آدم قبل أن يؤمر بالسكن في الجنة؟

والجواب: أنه سبحانه خلقه في الجنة وأمر الملائكة بالسجود له غير أن بقاءه فيها لم يكن قطعياً، فعندما تمت حادثة السجود، أمره سبحانه بسكنى الجنة، و التمتع بكل ما فيها، إلا شجرة واحدة نهاه سبحانه عنها. ويؤيد هذه النظرية أنه سبحانه يقول: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ دون أن يقول: ادخل.

وهناك نظرية أخرى ترى أنه خلق في غير الجنة وجرى عليه ما جرى، إذ لو كان أصله وخلقته في الجنة لعاد الأمر بالسكن فيها أمراً زائداً. (٣)

١. الأعراف: ٢٠.

٢. الأعراف: ٢١.

٣. تفسير الفرقان: ١/٣١٣.

يلاحظ عليه: بأنَّ آدم وإن خُلِق في الجنة، ولكن استقراره فيها لم يكن أمراً حتمياً، فلما انقضى تكريمه وإجلاله بسجود الملائكة له وتقريع عدوه، آمنه سبحانه وفضله باتخاذ الجنة سكناً.

٢. ما هي الجنة التي سكن فيها آدم؟

هل الجنة التي سكن فيها آدم وزوجته هي جنة المأوى أو جنة من جنات الدنيا؟ وهل كانت من جنات الأرض أو من جنات السماء؟ فيه قولان:

المنقول عن الجمهور أنها جنة المأوى أخذاً بظواهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(١). واستقر به ابن كثير في «البداية والنهاية» وقال مستدلاً بحديث مسلم عن أبي هريرة: يجمع الله الناس ويقوم المؤمنون حين تزدلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم؟ فقال ابن كثير بعد نقل هذا الحديث: وفي هذا قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى.^(٢)

ولكن هذا القول بعيد، لأن أوصاف جنة المأوى المذكورة في القرآن الكريم لا تنطبق على الجنة التي سكن فيها آدم، فمن صفاتها الخلود لمن دخلها يقول سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^(٣).

وقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾^(٤).

١. البقرة: ٣٥.

٢. البداية والنهاية: ١/٦٩.

٣. الحجر: ٤٨.

٤. التوبة: ٢١.

فلو كان آدم من سكانها، لما أُخرج منها أبداً.

وأما الرواية التي ذكرها مسلم عن أبي هريرة فإنها أشبه بالاسرائيليات، لأن ظاهر الآيات هو أن المؤمنين إذا اقتربوا من الجنة وجدوها مفتوحة أبوابها، لا مقفلة حتى يتوسلوا بآدم لفتحها؛ يقول سبحانه: ﴿جَنَّاتٍ هُنَّ مَفْتَحَةٌ لَّهُمُ الْآبْوَابُ﴾^(١)، ﴿وَسَيَقُودُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٢).

فالواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ للحال،^(٣) ومعنى الآية أنهم يصلون إلى الجنة في حال كونها مفتوحة. فالاعتقاد على الرواية في تعيين الجنة التي سكنها آدم، غير صحيح.

ويؤيده ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سئل عن جنة آدم؟ فقال: «من جنات الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الآخرة ما خرج منها أبداً»^(٤).

وأما أنها هل كانت في الأرض أو في مكان آخر؟

الظاهر هو الثاني، لأن الصفات التي يذكرها القرآن للجنة التي سكن فيها آدم لا تنطبق على جنات الأرض حيث يصفها سبحانه عند خطابه لأدم بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلًا يَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾^(٥).

وفي آية أخرى يصف الجنة التي سكن فيها آدم بخلوها من الشقاء والعناء

١. ص: ٥٠.

٢. الزمر: ٧٣.

٣. تفسير الجلالين: ٤٦٦.

٤. البرهان: ١/ ٨٠.

٥. طه: ١١٨-١١٩.

فيها، يقول سبحانه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١).

وكل ذلك لا ينطبق على جنات الأرض.

ويؤيد أنها لم تكن في الأرض، أنه سبحانه خاطب آدم وزوجه - بعد مخالفتها أمره - بقوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢). بناء على أن الإهباط كان مكانياً لا معنوياً.

وحصيلة الكلام: أنه سبحانه أسكن آدم وزوجه في جنة من جنات الدنيا، في مكان غير الأرض، كانت دار سعادة وهناء ونعيم، لا جوع فيها ولا عُري ولا ظمأ، فمكثا فيها إلى أن أغراهما الشيطان بالعصيان، فأخرجهما منها وأهبطا إلى الأرض. هذا ما يظهر من الآيات، وبذلك يعلم سر قوله سبحانه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فالغاية من خلق آدم هي جعله خليفة في الأرض لا في جنة المأوى ولا في جنة أخرى من جنات الدنيا، ولكن اقتضت حكمته تعالى أن يمرّ بحوادث ويتعرض لابتلاء قبل أن يهبط إلى مقرّ خلافته.

وهنا يُثار هذا التساؤل لماذا لم يخلق الله تعالى في الأرض منذ بداية الأمر إذا كان مآله إليها؟ ولعل الجواب يكمن في السر الذي اكتنف خلقته في الجنة إذ ثبتت خلافته، وتجلّت مكانته العظيمة بسجود الملائكة له، كما انتفع خلال مسيرته بتجربة هامة أتاحت له معرفة عدوّه الذي لم يفتأ يغريه ويغري ذريته من بعده بركوب الشرّ ونبد الخير، وذاق مرارة المحنة، وعرف سبيل تجاوزها بالرجوع إلى ربّه تائباً مستغفراً، إلى غير ذلك من الأسرار التي تعلمها أبونا آدم ﷺ في تلك المسيرة الطويلة.

٣. ماهية الشجرة المحرمة

اختلفت كلمات المفسرين في ماهية الشجرة التي نهي آدم وزوجته عن أكل ثمرتها إلى أقوال ربما تناهز ١٦ قولاً. غير أن تعيين واحد منها يحتاج إلى دليل قاطع. ولكن القدر المتيقن أن الشجرة المنهي عنها لم تكن شجرة المعرفة... كما عليه التوراة إذ جاء فيها: «وأمر الرب الإله الإنسان قائلاً من جميع أشجار الجنة تأكل وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً»^(١) وذلك أنه تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها، وقد مرّ أن المراد ليس تعليم ألفاظها بل الأسرار المكنونة في الأشياء والمسّميات بها فيها هذه المعرفة التي ذكرت في التوراة.

نعم ورد في بعض الروايات أنها كانت «شجرة العنب» أو «التمر» أو «الليمون» أو «سنابل القمح». ولكن ما ذكر هو أشجار مباركة، فكيف يكون أكل ثمرتها مورثاً للشقاء الذي أصاب آدم وزوجته؟! واللازم أن نقول: «الله العالم».

٤. كيف غرّ إبليس آدم؟

قد مرّ في الآيات السابقة أن الشيطان بعد أن طُرد من الجنة أخذ يكنّ العداة لآدم وحواء ويسعى لإخراجهما من الجنة. وقد حدّرها سبحانه وتعالى منه بقوله: «إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى»^(٢). وقد اكتشف الشيطان الثغرة التي تيسر له الدخول منها إلى نفس آدم وهي

١. التوراة، سفر التكوين - الإصحاح الثاني، الآية ١٦-١٧.

٢. طه: ١١٧.

حُبُّه الخلود بالجنة، فجعل ذلك ذريعة لإغوائهما.

فدخل من تلك الثغرة وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُؤُا﴾^(١)، فصار هذا سبباً لإصغاء آدم لكلام الشيطان، ولم يكتف بذلك بل عزز ذلك بكلام آخر وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٢).

وبما أن هذا الكلام كان يهز مشاعر آدم وزوجته وأنه كيف نهاهما ربهما عن أكل هذه الشجرة لتلك الغايتين الكريمتين، عاد الشيطان لرفع حيرته بالحلف على أنه من الناصحين، كما حكى سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٣).

وعلى ضوء ذلك فقد غرّ الشيطان آدم بأمرين:

١. تذكيره بأن الأكل من الشجرة يورث الملك الخالد والسكنى في الجنة.

٢. حلفه وإظهار كلامه بلهجة الناصح الأمين.

وربما يشير الله سبحانه إلى هذه الكيفية بقوله: ﴿فَدَلَّامَا بِغُرُورٍ﴾^(٤) ففي تلك الأجواء اغترا بكلامه ونصحه وحلفه، ونسي آدم ما عهد الله سبحانه إليه حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ هَمِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٥).

وأما العهد الوارد في هذه الآية فهو عهد يختص بهما كما أشار إليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٦).
وأما العهد العام لعامة أبنائه، الوارد في قوله: ﴿أَلَمْ أَخْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ

٢. الأعراف: ٢٠.

٤. الأعراف: ٢٢.

٦. طه: ١١٧.

١. طه: ١٢٠.

٣. الأعراف: ٢١.

٥. طه: ١١٥.

لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴿١﴾ فهو راجع إلى أولاده لا إلى نفسه.

ويُستفاد مما تقدّم: أنّ العدو ربما يظهر بلباس الصداقة فيغترّ الإنسان من الطرق التي تهوى إليها النفس وتميل، وعندئذ يبدو المخادع وكأنه ناصح مشفق خصوصاً إذا كان حلوا الكلام مازجاً كلامه بالحلف والقسم وهنا مكن الخطة، وهنا «مزلة أقدام الإنسان» التي لا نجاة منها إلا بالتوكل على الله في أن يحفظه من ريب الزمان وأهله، ورحم الله الشاعر الفحل أبو فراس الحمداني الذي يقول:

بمن يشقُّ الإنسان فيما ينوئه ومن أين للحر الكريم صحابٌ؟

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهنّ ثيابٌ

هذا هو ما يقصه علينا القرآن الكريم من إغراء الشيطان لآدم بعيداً عن كل أسطورة، وأما ما ورد في التوراة فشيء عجيب لا تطمنن إليه النفس، إذ جاء فيها: وكانت الحية أحيى جميع حيوانات الحقول التي صنعها الربّ الإله. فقالت للمرأة: أيقيناً قال الله: لا تأكلا من جميع أشجار الجنة».

فقالت المرأة للحية: من ثمر أشجار الجنة ناكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منها ولا تمسأه كيلا تموتا».

فقالت الحية للمرأة: «موتاً لا تموتان، فالله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة تعرفان الخير والشر».^(٢)

فأنت إذا قارنت بين نصوص القرآن الكريم وبين ما جاء في التوراة حول هذا الموضوع، لوقفت على سرّ قوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً

١. يس: ٦٠.

٢. التوراة سفر التكوين: ٣/ ١٦١.

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿١﴾. أي رقيباً على سائر الكتب يشهد بصحتها ويصونها من التبديل.

٦

مخالفة آدم نصيحة ربه

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿٢﴾﴾.

يدل قوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ على أنها خالفاً أمر ربهما وعصياه وتساءل: كيف عصى آدم ربه وهو نبي معصوم؟ هذا التساؤل شغل بال المفسرين عبر قرون، وقد ذكروا في جوابه وجوهاً عديدة أودعوها في تفاسيرهم. وقبل الشروع في الإجابة، ودراسة الآيات الواردة في الموضوع وتفسير بعضها ببعض نشير إلى تقسيم الأصوليين الأوامر والنواهي على قسمين:

أ. أمر أو نهي مولوي.

١. المائدة: ٤٨.

٢. طه: ١١٧-١٢١.

ب. أمر أو نهى إرشادي.

أما الأول: فإن للمولى حق الأمر والنهي والبعث والزجر، فإذا أمر عبده بشيء أو زجره عن شيء، فبما أن له الولاية وله حق البعث والزجر وحق الطاعة ولم تكن هناك قرينة على كونها على وجه الندب أو الكراهة، تعد مخالفته عصياناً يستوجب العقوبة، لأن العقل يحكم بوجوب إطاعة العبد لمولاه في هذه الحالة ويسوغ عقوبته إذا خالف، وهذا ما يسمى بالأمر أو النهي المولويين.

وأما الثاني: فهو ما إذا أمر ونهى وهو في مقام الإرشاد والعظة، وبصدد هداية العبد إلى ما فيه سعاده وإبعاده عما فيه شقاؤه، فلو خالف أمره أو نهيه، لا يترتب على مخالفتها أي عقاب، سوى فوت المصلحة أو الوقوع في المفسدة، فأمر المولى أو نهيه في هذا المقام أشبه بأوامر الطبيب والمعلم والمصلح الاجتماعي، فالطبيب حينما يأمر المريض بشيء أو ينهاه عن شيء، إنما يتوخى بذلك تأمين سلامته وحفظ صحته، فإذا نهاه مثلاً عن التدخين، ولم يتته المريض، فإنه لا يترتب على مخالفته هذه سوى ما يترتب على التدخين نفسه من أضرار.

إذا عرفت ذلك: فلنرجع إلى الآيات الواردة في نهى آدم عن الشجرة هل كان النهي عنها نهياً مولوياً أو كان إرشادياً؟ وبعبارة أوضح: هل صدر النهي عنه بما أنه سلطان مقتدر، أو صدر عنه على سبيل النصيحة والهداية الموصلة إلى السعادة التي لا شقاء بعدها ولا عناء؟

وبديهي أن مخالفة الأول تستوجب العقاب، لأن المولى هنا في مقام الأمر الذي تجب طاعته.

أما مخالفة الثاني، فلا تترتب عليها (أي ذات المخالفة) أية آثار، وإنما تترتب عليها آثار العمل (المنهي عنه) نفسه، لأن المولى هنا في مقام الهادي المرشد.

والقرائن في الآيات تشهد على أن النهي كان من القسم الثاني، وإليك

البيان:

إنه تبارك وتعالى يعرف عدوهما ويهيب بهما بقوله: ﴿فَلَا تُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾^(١).

فالآيات تشير إلى أن نتيجة الانتهاء عن الشجرة، هي عدم الشقاء، ثم يفسر عدم شقائهما بعدم الجوع والعري والظما والإضحاء.

فإذا كانت هذه ثمرة الانتهاء، فإن ثمرة المخالفة (أي الأكل من الشجرة هذه) ستكون هو الشقاء ويفسر ذلك بفسد ما فسر به عدم الشقاء، أي بالجوع والعري والظما والإضحاء.

فهذه الآيات تعبر عن أن المتكلم لم يكن يأمر وينهى بما أن له سلطان الأمر والنهي وأنه مولى والمخاطب عبد، وإنما كان يخاطب الطرف الآخر المرشد، ويذكره بآثار كل من الحالين: الاجتناب عن الشجرة والاقتراب منها. ومن هنا لا تُعد مخالفة هذا النهي عصياناً وتمرداً على المولى وجرأة عليه حتى يستحق العقوبة، وإنما هي بمثابة من خالف نصيح الناصح المشفق، فيرى جزاء عمله وثمره فعله، فلا يلوم إلا نفسه.

وعلى ضوء ذلك فلا تعد النواهي الواردة في كلامه سبحانه في قصة آدم إلا إرشادات إلى ما في نفس الأكل من آثار مَرَّة، وإليك تلك النواهي:

١. ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

١. طه: ١١٧-١١٩.

٢. البقرة: ٣٥.

٢. ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ

مُبِينٌ﴾. (١)

٣. ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾. (٢)

والذي يؤيد أيضاً كون النهي إرشادياً قول إبليس عند إغراء آدم: ﴿إِنِّي لَكُمَا

لِمَنِ النَّاصِحِينَ﴾. (٣)

فبالتقابل يفهم أنّ الشيطان لما سمع خطاب الربّ لأدم، الدالّ على

النصح والهداية والإرشاد، صاغ كلامه على غرار كلامه تعالى من أجل إغراء آدم

بالأكل من الشجرة، فأظهر له أنه ناصح مشفق.

ألفاظ ستة يجب إيضاها

قد تبين مما قدمنا أنّ حقيقة النهي بصورة المختلفة كانت إرشادية لا

مولوية، ولكن وردت في القصة ألفاظ ربها توهم أنّ آدم خالف وتمرد على ربه،

وإليك هذه الكلمات:

أ. الظلم في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٤)، وقوله:

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾. (٥)

ب. عَصَى وَهَوَى في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. (٦)

ج. الزلل في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾. (٧)

٢. طه: ١١٧.

٤. البقرة: ٣٥.

٦. طه: ١٢١.

١. الأعراف: ٢٢.

٣. الأعراف: ٢١.

٥. الأعراف: ٢٣.

٧. البقرة: ٣٦.

د. الغفران في قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. (١)

هـ. التوبة في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾. (٢)

فيلزم دراسة هذه الألفاظ والجمل ليعلم أن أبانا آدم لم يتجرأ على الله ولم يخالف ربه خلافاً لا يناسب مقام النبوة. وإليك دراستها.

١. الظلم

الظلم في اللغة تجاوز الحد، كما في اللسان.

قال الراغب: الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء وضع الشيء في غير

موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة أو بعدول عن وقته ومكانه. (٣)

ومن المعلوم أن تجاوز الحد أو وضع الشيء في غير موضعه كما يصدق في

مورد النواهي المولوية يصدق في مورد النواهي الإرشادية، فإن من خالف نصح

الناصح وترك أمره فقد وضع الشيء في غير موضعه أو تجاوز الحد.

٢. العصيان

العصيان في مصطلح المشرعة هو ارتكاب الذنب والمخالفة للإرادة

القطعية الملزمة، وفي اللغة هو مجرد المخالفة، قال ابن منظور: العصيان خلاف

الطاعة، والعاصي: الفصيل إذا لم يتبع أمه.

ولا شك أن آدم لم يتنه عما نهاه عنه ربه، ولكن مخالفته كانت لنهي إرشادي،

١. الأعراف: ٢٣.

٢. طه: ١٢٢.

٣. مفردات الراغب: ٣١٥، مادة «ظلم».

ولذا لا تعدّ عصياناً بالمعنى الاصطلاحي، بل عصياناً بالمعنى اللغوي الذي ينطبق على المخالفة للأوامر الملوية، وللخطابات الإرشادية أيضاً.

٣. الغواية

الغِيّ: الضلال، والغِيّ: الخيبة، يقال: غوى الرجل خاب، وأغواه غيره، والغِيّ: الفساد، وبه فُسر قوله سبحانه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أي فسد عليه عيشه.^(١)

وكل من المعنيين المذكورين (الخبية، والفساد) يصلحان لتفسير الآية به، فأما فساد عيش آدم فواضح، إذ أهبطه الله إلى دار «لا تدوم خيرتها، ولا تؤمن فجعتها... عَيْشُهَا رَنَقٌ، وعذبها أجاج، وحلوها صَبِرٌ». ^(٢) وأما الخيبة، فبحرمانه من بلوغ أمنيته في أن يجيا خالداً في ظلال الراحة وغضارة النعيم.

وإذا افترض أن المراد بالغِيّ هنا: الضلال الذي هو في مقابل الرُّشد، فليعلم أنه لا ملازمة بين الضلال والمعصية (التي هي بمعنى اقرار الذنب والجرم)، فقد يضل الإنسان عن مقاصده الدنيوية ومصالحه الشخصية، وحينئذ يصدق إطلاق لفظ (غوى) عليه مقابل (رشد)، ولكن ذلك لا يلزم المعصية المصطلحة.

وثمة وجه آخر للإجابة، وهو أن المخلصين (وفي طبيعتهم الأنبياء) منزّهون عن إغواء الشيطان الذي صرح بقوله: ﴿لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ

١. انظر لسان العرب: ١٥/١٤٠.

٢. نهج البلاغة: ١٦٤، الخطبة ١١١.

أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿١﴾، وهذا يعني أنّ الشيطان أغوى آدم قبل النبوة التي اجتباها الله لها بعد توبته، ويدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾^(١). والظاهر أنّ ملاك الاجتباء هو جعله نبياً ومن المخلصين.

وهنا وجه ثالث: أنّ مصطلح الطاعة والعصيان إنّما يتصوران في دار التكليف، ولم تكن الجنة التي سكنها أبونا آدم دار التكليف حتى يكون عمله موجباً للعصيان حتى يصبح مخالفاً للعصمة.

٤. الزلل

الزلة في الأصل استرسال الرّجلٍ من غير قصد، يقال: زلّت رجله تزل، والزلة المكان الزلق، وقيل للذنب من غير قصد زلة تشبيهاً بزلة الرجل.^(٢) فالمادة تدلّ على أنّ مخالفته كانت من غير قصد وإنّما جرّه الشيطان إليها حتى زلّ.

٥. الغفران

الغفران في اللغة بمعنى الستر والتغطية، فيقال لبيضة الحديد: المغفر والمغفرة.

وطلب المغفرة إنّما صدر من آدم باعتبار أنّه أفضل الخليقة وكان المرجو منه الانصياع لأمر الله وإرشاده، ولكنّه ارتكب ما لا يليق به، فاستعظم ذلك، ودعا الله تعالى أن يستره عليه.

١. طه: ١٢٢.

٢. مفردات الراغب: ٢١٤.

ويتضح المعنى أكثر إذا علمنا أن للمسؤولية درجات ترتبط بدرجات المعرفة، وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: يا حفص يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالم ذنب واحد.^(١)

وقد اشتهر في كلمات العلماء قولهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين.^(٢)

٦. كيفية التوبة

يدلّ بعض الآيات على أنه سبحانه قبل توبة آدم وذلك في ضمن آيتين:

١. ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.^(٣)

٢. ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.^(٤)

والضمير المستتر في «تاب» في كلا الموردين يرجع إلى الله والمعنى رجع الله إليه بالرحمة والمغفرة، نظير قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾^(٥)، فرجوعه سبحانه إلى آدم بعد تلقي الكلمات دليل على توبة آدم وندامته عما فعل، إنما الكلام فيما هو المراد من تلك الكلمات التي صارت سبباً لقبول توبته ورجوع الله إليه بالرحمة.

ربما يتصور أن المراد من الكلمات هو ما ورد في سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَا

ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.^(٦)

١. الكافي: ٤٧/١.

٢. الكافي: ٤٣٨/٢ (باب استغفار النبي والأئمة عليهم السلام).

٣. البقرة: ٣٧.

٤. طه: ١٢٢.

٥. التوبة: ١١٧.

٦. الأعراف: ٢٣.

ولكن الظاهر من قوله: ﴿فَتَلَقَى...﴾ أنه سبحانه قَبِلَ توبتهما بعد التوسل بهذه الكلمات. فلو كان المراد من الكلمات هو قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا﴾ كان المناسب الإخبار بقبول توبتهما بعد قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا...﴾ مع أننا نرى أنه سبحانه يأمرهما بعده بالهبوط ويقول: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. (١)

وهذا يؤيد أن الكلمات المتلقاة غير هذه الآية ومضمونها، وقد ذكرت الروايات الشريفة أن الكلمات التي تلقاها آدم هي توسله بالنبي ﷺ وأهل بيته ﷺ.

روى السيوطي بأنه أقسم على الله سبحانه وقال: أسألك بحق محمد إلا غفرت لي.

وفي رواية أخرى: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانه لا إله إلا أنت عملت سوءاً و ظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم. وروى ابن النجار عن ابن عباس أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الكلمات فقال: سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت عليّ فتاب عليه. (٢)

بقي الكلام في اجتناء آدم ﷺ في بعض الآيات.

اجتناء آدم

يدل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (٣) أنه سبحانه،

١. الأعراف: ٢٤.

٢. الدر المنثور: ١/٥٨-٦١؛ تفسير البرهان: ١/٨٦، الحديث ٢.

٣. طه: ١٢٢.

اختاره بعد توبته وندامته عما فعل، ويدلّ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١) أنه تعالى قد اصطفاه.

فيقع الكلام فيما هو الملاك للاجتناب في الآية الأولى، والاصطفاء في الآية الثانية، فهل كانا بملاك واحد، أو بملاكين؟ الظاهر هو الثاني.

أما الأول فالمراد به هو اجتباؤه بالنبوة بعدما تاب. وأما اصطفاءه ومن عطف عليه من نوح وآل إبراهيم وآل عمران، فلكلّ ملاك أيضاً غير النبوة.

أما آدم فيكفي أنه سبحانه جعله خليفة في الأرض وعلمه الأسماء وجعله مسجوداً للملائكة ومعلماً لهم، وهذا اصطفاء بلا شك.

أما نوح فقد اصطفاه سبحانه حيث صار أباً ثانياً للمجتمع البشري كما هو الحال في آدم ﷺ. واحتمل أن يكون ملاك الاصطفاء فيه كونه أول نبي يبعث ومعه شريعة، قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾^(٢).

أما اصطفاء آل إبراهيم فلأن الله جعل إبراهيم قدوة لمن جاء بعده من الأنبياء، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

وإبراهيم ﷺ هو أبو الأنبياء جميعاً بعد نوح، إذ لا نبي بعده إلا من ذريته. إلى غير ذلك من المواصفات التي اختص بها إبراهيم ﷺ، يقول سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّثْلَ أَيْكُمُ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٤).

٢. الشورى: ١٣.

٤. الحج: ٧٨.

١. آل عمران: ٣٣.

٣. آل عمران: ٦٨.

وأما آل عمران ففيهم مريم والمسيح عليهما السلام وقد اختصا بأمر ذكر تفصيلها سبحانه في سورة آل عمران بعد هذه الآية.
فظهر بذلك أن اجتباء آدم غير اصطفائه، فالاجتباء كان بالنبوة، واصطفاءه وغيره كان بما ذكرنا من الملاكات.

٧

هبوط آدم إلى الأرض

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

يذكر سبحانه أنه بعد ما جرى على آدم ما جرى، أمره بالهبوط إلى الأرض،

لكنه يذكر في هذه الآيات الثلاث هبوطين:

الأول: هبوطه بعد الزلّة وقبل التوبة كما في الآية الأولى.

الثاني: هبوطه بعد التوبة كما في الآية الثالثة.

وعندئذ يقع الكلام في وحدة الهبوطين أو تعددهما، ولكنه سبحانه لا يذكر

في سورة الأعراف إلا هبوطاً واحداً: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢).

والظاهر وحدة الهبوطين، غير أن الهبوط الأول ذكره سبحانه بما أنه جزء للقصة ومنتتم لها، وأمّا الثاني فقد ذكر بصورة الاستتاج من سردها أي ترتب على ما فعله آدم.

خلاصة قصة آدم ﷺ

اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل خليفة في هذه الأرض، وأخبر الملائكة بهذا الأمر، فاستعظموا أن يجعل فيها من يُفسد ويسفك الدماء، وهم يستبحون بحمده، ويلهجون بتقديسه وتمجيده، (لم تحف بطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتقطع بهمس الجوار إليه أصواتهم).^(١)

ثم خلق آدم من تراب، وأجرى فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأمره أن ينبي بها الملائكة الذين أقرّوا من قبل بعجزهم عن علمها، قائلين: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، فلما أنبأهم بها، أدركوا حكمته تعالى في استخلافه.

لقد أصبح بمستطاع الإنسان بما أودع فيه من مواهب وقوى أن يحاكي مستخلفه في كمالته وصفاته، وأن يكون قادراً على بناء الحياة وعمارة الأرض وإبراز مكنوناتها، ومعرفة أسرار الكون وعجائب الخلق وغيرها من بدائع الآثار التي تكشف عن عظمة الخالق سبحانه، وتدّل على إحكام تقديره، ولطف تدبيره.

ثم أمر سبحانه ملائكته بالسجود لآدم، تشرifaً لهذا المخلوق وتكريماً له، فأذعن جميعهم لأمره إلا إبليس (وَكَانَ مِنَ الْجِنِّ) لم ياتمر، متعزّزاً بأصله، ومستطيلاً

١. نهج البلاغة: ١٣٠ (الخطبة ٩١، وتعرف بخطبة الأشباح). وأسلة اللسان: طرفه. والهمس: الخفي من الصوت، والجوار: رفع الصوت بالتضرع.

بخلقه من النار، فحلّ عليه اللعنُ الأبدي، و الشقاء السرمدى.

ثم أسكن سبحانه آدم وزوجه جنةً، ينعمان فيها برغيد العيش آمنين مطمئنين، يأكلان من حيث شاءا، ونهاهما ربهما عن شجرة معينة، وحذرهما إبليس ومكره وعداوته. فاستبدّ الحقد بالشقيّ اللعين، وسعى محتالاً لتوريطهما بمخالفة أمر العزيز الجبار، فخاطبهما بلهجة المحبّ المشفق الذي يرجو لهما الخير، وأقسم دون خوف أو وجلّ من ربّه أنّه لهما من الناصحين، وهو العدو الخبيث السريرة، الظامئ للانتقام، فوثقا بمعسول كلامه، واغترّا بأمانته ومواعيده، فوهن عزمهما، وقارفا المعصية. (١)

ثمّ ندما على ما فرط منهما في جنب الله، فاستجارا بعفوه وصفحته، ولاذا بكرمه ورحمته، ولن يُخَيّب الله من دعاه بقلب طاهر نقيّ، ولكنه سبحانه قضى بإهباطهما إلى الأرض.

﴿فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، هي (كما في النصوص الماثورة) التوسل بالنبي الأكرم وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، فمنّ الله عليه بالتوبة، وتفضل عليه بالرضوان والمغفرة.

لقد أهبط آدم إلى الأرض، تحقيقاً للوعد الإلهي ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ونأى عن جنته المفعمة بالخير والنعيم، والمترعة بالصفاء والهناء، ليواجه هو وذريته حياة مليئة بالمشقات والمصاعب، وليبقى الصراع متأججاً بين ناهجي سبيل الحق، وسالكى طريق الباطل من شياطين الجنّ والإنس إلى أن يرث الله

١. أوضحنا فيما سبق معنى المعصية وغيرها من الألفاظ التي وصف بها آدم في القرآن المجيد، وبيننا حقيقة النهي الموجه إليه بما يترى ساحة آدم ﷺ عن ارتكاب المخالفة للأوامر الملوية، واقرار المعصية بالمعنى المصطلح عليه بين المشرعة.

الأرض ومن عليها، وعندئذ يفوز المحقون، ويخسر الضالون المبطون.

دروس وعبر

في قصة آدم توجيهات وحقائق ساطعة وسنن إلهية، تُثري الفرد والمجتمع بالدروس والعبر، وتترك آثارها الإيجابية والكبيرة على حياتها إذا ارتثيا الانتفاع بها، والاستهداء بضوئها. وإليك جانباً منها:

١. أنّ الإنسان وليد التراب، فليس له أن يتكبر أو يتعالى على غيره، وهو لا يملك حولاً ولا قوة إلا بعون الله، الذي كرمه وشرفه بما وهبه من قوى واستعدادات، وبما فتح عليه من أبواب العلم، وما أسبغ عليه من النعم، التي تستوجب الشكر والطاعة والانقياد. (فالله الله في كبر الحمية وفخر الجاهلية، فإنه ملاقح الشنآن، ومنافع الشيطان).^(١)

٢. إنّ الإنسان وإن خُلق من تراب إلا أنه في ظل النهج الإلهي مكرم ومحترم الجانب، قد أسجد له ملائكته على مكائهم الرفيعة، وسخر له مختلف القوى لاستثمارها في تنمية حياته وترقيتها. فأية كرامة أسمى من هذه الكرامة التي تمنحه الثقة بنفسه (بلا غرور) وتفجر فيه الطاقات، وتُنيط به حمل الأمانة؟! وأين منها نظريات التطورين أمثال «لامارك» و«دارون»، التي تكرس عقدة الحفارة والامتهان في نفس الإنسان؟!

٣. إنّ الحوار الذي جرى بينه سبحانه وبين الملائكة بشأن جعل خليفة في الأرض، ينطوي على عدة دروس، منها:

أ. إنّ الاستبداد بالرأي ومحاولة فرضه على الآخرين، وعدم الانفتاح على

١. نهج البلاغة: ٢٨٩، الخطبة ١٩٢ (وتسمى القاصعة).

الآراء أو الاعتراضات، من الأمور المرفوضة في منطق القرآن الكريم، فالله جل شأنه على عظمته وسعة قدرته وعلمه، قد أتاح للملائكة أن يجاوروا ويتساءلوا، ثم يقتنعوا بالفكرة عن دليل وبرهان.

ب. إن التساؤل عن غاية الخلق ومحاولة معرفة أسرارها، أمر مرغوب فيه، إذ يوحى تساؤل الملائكة بأن التسييح بحمد الله هو غاية الخلق وعلته، ولم يدركوا ما وراء ذلك من أسرار.

ج. إن ترجيح المرجوح على الراجح أمر قبيح، وقد اعتمد عليه الملائكة في كلامهم، الذي يُشعر أنهم يرون أنهم أفضل من الإنسان بدأبهم على التسييح من دون شوب فساد خلافاً للخليفة ففي خلقه لغاية التسييح ترجيح للمرجوح على الراجح، ولكنه سبحانه أعلمهم بأنه يعلم ما لا يعلمون، وأن خلق آدم ليس ترجيحاً للمرجوح على الراجح.

٤. إن الله سبحانه قد وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ نَصِيبٌ مِنَ الْعِلْمِ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَمَنْ خَزَائِنُ عِلْمِهِ سَبْحَانَهُ.

٥. إن الشيطان هو العدو اللدود الذي لا همّ له إلا إغواء الإنسان وإيقاعه في المعصية، فلنستعد بالله من نزغاته ومكائده، وندعو(اللهم أحسأه عنا بعبادتك، وأكبتهُ بدؤوبنا في محبتك، واجعل بيننا وبينه سترًا لا يهتكه...اللهم وأيقظنا عن سِنَةِ الْغَفْلَةِ بِالرُّكُونِ إِلَيْهِ، وَأَحْسِنْ بِتَوْفِيقِكَ عَوْنًا عَلَيْنَا).^(١)

٦. إن الكبر منشأ المعاصي ومبداها، وأن الشيطان لم يتمرد إلا عن الكبر الذي أحاط بوجوده.

١. من دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام إذا ذكر الشيطان، الصحيفة السجادية.

٧. أنه سبحانه قد خلق آدم ووهبه ما شاء من النعم في الجنة، غير أن طمعه في شيء جزئي أمام النعم العظيمة صار سبباً لزوال هذه النعم.

٨. اليأس والقنوط في الحياة لا يتجان إلا الخسران، والإنسان الكامل هو الذي لا ييأس بل يرى أبواب التوبة مفتحة له إذا أناب إلى الله تعالى، ولم يصر على المعاصي.

٨

ولدا آدم ومصيرهما

تأجج الصراع بين آدم وذريته وإبليس وذريته، وعادى بنو آدم بعضهم بعضاً، منذ أن قضى الله تعالى بإهباط آدم وزوجه إلى هذه الأرض، قائلاً عز من قائل: ﴿أهبطوا بغضكم لبغض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.^(١)

وقد بدأ التنازع بين البشر في النسل الأول - أعني: بين ولديهما المسميين بـ «هابيل» و «قابيل» - وقد جاءت قصة تخاصمهما (دون التصريح باسمهما) في الآيات التالية:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. (١)

توحي كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ المتعلقة بقوله ﴿وَاتْلُ﴾ بأن ثمة أكاذيب نسجها الناس حول القصة، وأن ما يُتلى هنا هو الحق الذي لا يشوبه باطل من كذب وتحريف.

والمقصود من ﴿آدَمَ﴾ في قوله: ﴿ابْنِي آدَمَ﴾ هو المعروف بهذا الاسم، أعني: أبا البشر، واحتمال أن المراد به رجل من بني إسرائيل غير صحيح، لأنه سبحانه يحكي في تلك القصة عن جهل القاتل، بكيفية مواراة جسد أخيه، ولم يهتد إلى ذلك إلى أن رأى غراباً يحفر الأرض، وهذا لا يتناسب إلا مع بدء الخليقة.

إذا علمت ذلك فلنذكر إجمال القصة.

كان لآدم ولدان، سمى المؤرخون والمفسرون من المسلمين أحدهما «قائيل» والآخر «هابيل»، فلما بلغا مبلغاً من العمر، قدم كل منهما قرباناً لله سبحانه، ولم يُشر سبحانه إلى نوع القربان، وقد جاء في بعض الروايات (٢) أن هابيل قرب أسمن كبش كان عنده، في حين قرب الآخر ضغثاً من سنبل (والله العالم) فتقبل سبحانه

من هابيل، ولم يتقبل من قابيل، ولم يذكر سبحانه كيفية التقبل من أحدهما دون الآخر، ولكن ورد في بعض الأخبار عن الصحابة أن علامة القبول كانت ناراً تأتي فتأكل المتقبل (والله العالم)، فغضب قابيل، واشتعل قلبه حسداً، وتوعد أخاه بالقتل، فأجابه هابيل بحكمة وإيمان راسخ، خلاصته إنني لست ملوماً في ذلك، لأن قبول الصدقة بيد الله تعالى، وهو مرهون بالتقوى والإخلاص.

ثم حاول أن يرشده لوجه آخر فقال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وحاصله: أنك إذا أردت قتلي ظلماً وعدواناً فإني لا أفعل ذلك خوفاً من الله، لأن قتل النفس ظلم وعدوان والظالم مأخوذ عند الله سبحانه.

ويرى بعضهم أن هابيل بقوله هذا قد فرط في حق نفسه، وأعان عليها باستسلامه لإرادة أخيه، وهذا غير صحيح بتاتا، وإنما كان مقصوده أن أخاه إذا ظلمه وبغى عليه ولم يتحرج عن قتله، فإنه لا يقدم على مثل ذلك، وأما دفاعه عن نفسه فلم يرده ولم ينغه، فإن الدفاع عن النفس أمر فطري لازم يحكم العقل به، والدليل على ما ذكرنا أنه قال: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ ولم يقل ما أنا بياسط يدي إليك لأدافع عن نفسي.

ونستخلص مما مر أنه حاول إصلاح فكرة أخيه بأمرين:

أحدهما: أن منشأ القبول والرفض هو التقوى وعدمها وليس له (أي لهابيل) شأن في ذلك، فلا لوم عليه إذن، وصدق أمير المؤمنين إذ قال: (رب ملوم لا ذنب له).^(١)

ثانيهما: إن أردت قتلي ظلماً وجوراً، فأنا لا أريد ذلك خوفاً من الله.

ثم أردف كلامه بكلام آخر، قال فيه: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

والنظرة الأولى إلى الآية ربما تفيد أن هاويل رضي بقتل نفسه ورجوع أخيه إلى ربه بإثمين. ولكن هذا الظاهر غير مراد قطعاً والآية تهدف إلى أمر آخر، وهو أن رجوعه إلى الرب بإثمين نتيجة إصراره على قتله، فكان الأخ يقول: إذا كنت مصمماً على ذلك فافعل ما شئت وارجع إلى ربك بإثمين.

فهذه الإرادة لم تكن منه إرادة ابتدائية، بل كانت الغاية منها إعلماً لنتيجة العمل الذي يريد أن يقدم عليه وهي ملاقة ربه بإثمين.

وإن شئت فلنوضح ذلك بمثال وهو أنه إذا نصح الوالد المشفق ولده وحذره عما يريد أن يفعل، ولمس منه المقاومة والعصيان، يرجع ويقول له: كأنك لا تريد النصيحة والسعادة فإذن كن من الأشقياء الخاسرين، فيُظهر بذلك، أن نتيجة الإعراض عن النصيحة هو هذا، لا أنه يريد أن يكون ولده وفلذة كبده من الخاسرين.

ثم بين سبحانه أن هذه المواعظ لم تنفع أخاه، الذي ظلت تتنازع في نفسه قوتا الخير والشر، فبينما كانت علاقة الأخوة وشيعة الرحم، تصده عن إراقة دم أخيه، كان رجل الحسد الذي يغلي في صدره يدفعه إلى اقرار جريمة القتل، وفي النهاية تغلبت قوة الشر، وإلى ذلك يشير سبحانه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾^(١)، أي أنه كان في بدء الأمر يهاب الإقدام على قتل أخيه ولكن نفسه الأمانة شجعت عليه، فاقرت جريمته البشعة.

وأي خسران أعظم وأفدح من قطع وشيعة القربى وقتل الأخ الذي كان

يُنصحه ويزجره ويصده عن غضب الرب؟

نعم بقي متحيراً بعد قتل أخيه، ولم يعرف كيف يوارى جسده إلى أن رأى الغراب يحفر الأرض فأحسّ بجهله، وأدرك أنه دون الغراب معرفةً، وتلك والله الفضيحة الكبرى التي تبعث على الندم، ولات حين مندم، ومن هنا عبر عن فضيحته بقوله: ﴿يَا وَيْلَتَى أَهْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

نكات وعبر

في قصة ولدي آدم التي سردها القرآن الكريم نكات لا يستغني عنها المجتمع الإنساني مهما بلغ درجة عالية في العقل والفكر، وهذه النكات هي:

- الإخلاص والتقوى هما روح العمل وجوهره، وبدونها يصبح العمل هباءً منثوراً. قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١)، والمراد بالدين في الآية هو الطاعة. فالطاعة مختصة بالله تبارك وتعالى ولا تجوز طاعة غيره إلا بإذنه وأمره كما هو الحال في طاعة الأنبياء والأولياء؛ قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٢). وقال سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣). والتقوى (دار حصين عزيز)^(٤) يعجز العدو (الهوى والشيطان) عن اقتحامه. ومن هنا يبقى الموصوف بها قوياً، ثابت الخطى، لا يزل شيء، في حين يزل العاري عنها، ويهوي إلى مكان سحيق بارتكابه المعاصي والآثام الكبيرة كالقتل وغيره.

١. البينة: ٥.

٢. النساء: ٨٠.

٣. النساء: ٥٩.

٤. نهج البلاغة: ٢٢١، الخطبة ١٥٧.

٢. إن الحسد شرٌّ مستطير قد يفضي بصاحبه إلى البغي والعدوان، فما إن علم قابيل بقبول صدقة أخيه دون صدقته حمي حسده. وبدل أن يسعى إلى تزكية نفسه وتطهير قلبه بالعبادة الخالصة والتقوى، يصرف همه وقواه للانتقام من أخيه والاعتداء عليه، وهذا مصير كل حسود لا يعالج هذا المرض الذي يأكل قلبه، بل يسعى جاهداً للإضرار بالمحسود.

٣. لا شك أن الإنسان أفضل الخليقة وأشرف المخلوقات ولكن ذلك لا يمنعه من أن يتعلم ممن هو أدنى منه، كما تعلم قابيل مواراة جسد أخيه من الغراب، وكان العالم كتاب علم وعبرة وعظة يعظ الإنسان ويهديه إلى الصراط الأقوم.

٥. أنه سبحانه عندما يذكر قصة ابني آدم يعقبها بكلمة ﴿بالحق﴾ مشعراً بأن ما يذكره من القصة قد خلا من الأكاذيب والأساطير، وأنه أمر واقعي لا تمثيلي، لكن هذا لا يصدنا عن انتزاع ضابطة كلية منها وهي أن هابيل رمز الإنسان الطيب المنزه عن مساوئ الأخلاق ورذائلها. كما أن قابيل رمز الإنسان القاسي والذي لا يعير لوشيجة القريبى أي اعتبار، فيقترب جريمة لا تنفعه بل تعود عليه بالفضيحة والخسران المبين.

٦. إن القتل أول جريمة ارتكبها الإنسان على وجه الأرض.

٧. بعد أن ذكر سبحانه قصة ابني آدم عليهما السلام رتب على جريمة القتل هذه النتيجة، وهي: إن قتل إنسان واحد أو إحياءه كقتل الجميع أو إحيائهم، قال سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

وقد ذكر المفسرون حول هذه النتيجة وجوهاً عديدة تناهز الخمسة^(١)،
ونذكر هنا وجهين:

أ. من قتل نفساً بغير حق فعليه مآثم من قتل جميع الناس، لأنه سنّ القتل وسهله لغيره فكان بمنزلة المشارك فيه، ومن زجر عن قتلها بما فيه حياتها على وجه يقتدي به غيره فقد أحيا الناس بسلامتهم منه وذلك إحياءه إياهم.

ب. إن الآية بصددها بيان حقيقة القاتل والمحسن، لأنّ الذي يقتل شخصاً واحداً بغير وجه حق، يملك نفساً متوثبة للشر، ومستعدة لقتل جميع الناس إذا قدر على ذلك.

ويقال نظير ذلك في المحسن الذي يحيي شخصاً واحداً، فإنه يملك نفساً خيرة تدفعه إلى إحياء كل الناس عند توفر القدرة على ذلك.

قال الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله: ﴿ومن أحيها فكأنها أحياء الناس جميعاً﴾: «أي أنجى من غرق أو حرق، وأعظم من ذلك كله يخرجها من ضلالة إلى هدى».

وفي حديث آخر عنه أيضاً في تفسير الآية: «من استخرجها من الكفر إلى الإيمان»^(٢).

هذه نكات سبع تستفاد من الآيات المذكورة:

بقي الكلام في أمرين:

١. خلقة حواء.

٢. كيفية تزويج أولاد آدم.

١. مجمع البيان: ٢/١٨٧.

٢. مستدرک الوسائل: ١٢/٢٣٩ ح ٤ و ٥.

خلقة زوجة آدم

ذكر القرآن الكريم خلقه آدم على التفصيل كما عرفت، ولكنه ذكر كيفية خلقه زوجته في آية واحدة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(١).

فذهب بعض المفسرين في تفسير قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ إلى أن «من» في قوله «منها» للتبعيض، وأن المراد بزوجها (حواء) وأنه سبحانه خلقها من أحد أضلاع آدم.

وهذا التفسير مقتبس - كما يبدو - من التوراة التي جاء فيها: فأوقع الإله الرب سباتاً على آدم فقام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً (٢٢) وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم (٢٣) فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي تدعى امرأة لأنها من أمري أخذت.^(٢) والتفسير - كما مر - مبني على أخذ «من» في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ للتبعيض، ولكنه خلاف الظاهر بل هي لبيان الجنس كما في قولنا: خاتم من فضة. والمراد من قوله ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلق من جنس تلك النفس زوجها، فزوج آدم كانت مثله في الجنس لا من الملائكة ولا من الجن.

ويدل على ذلك قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، فقوله من أنفسكم بمنزلة قوله وخلق منها زوجها.

١. النساء: ١.

٢. الإصحاح الثاني - سفر التكوين.

إِنَّ أُمَّةَ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام شَدَّدُوا النِّكَيرَ عَلَى النَّظَرِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي عِدَّةِ رَوَايَاتٍ وَرَدَّتْ عَنْهُمْ، مِنْهَا:

عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي الْمَقْدَادِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ حَوَاءَ؟ فَقَالَ: «أَيُّ شَيْءٍ يَقُولُونَ هَذَا الْخَلْقُ؟» قُلْتُ: يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا مِنْ ضَلَعٍ مِنْ أَضْلاعِ آدَمَ، فَقَالَ: «كَذَبُوا أَكَّانَ اللَّهُ يَعْجِزُهُ أَنْ يَخْلُقَهَا مِنْ غَيْرِ ضَلْعِهِ؟» فَقُلْتُ: جَعَلْتَ فِدَاكَ يَا بِنَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهَا؟ فَقَالَ: «أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ آبَائِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ طِينٍ فَخَلَطَهَا بِيَمِينِهِ - وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٍ - فَخَلَقَ مِنْهَا آدَمَ وَفَضَلَتْ فَضْلَةً مِنَ الطِّينِ فَخَلَقَ مِنْهَا حَوَاءَ.»^(١)

أولاد آدم وزوجها

وهناك مسألة غامضة ترجع إلى ما قبل التاريخ، وهي أن أولاد آدم كانوا إخوة وأخوات فكيف تزوج الإخوة والأخوات؟ وقد أُجيب عن ذلك بما يلي:

١. أن الضرورة في أول الخليقة ألجأتهم إلى ذلك النوع من الزواج المحرم في الشرائع السماوية. وقد وردت هذه النظرية في الروايات الماثورة عن أئمة أهل البيت وردت بأن معنى هذا أن الله عز وجل جعل صفة خلقه وأبو أنبيائه من حرام ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال.^(٢)

٢. أنها تزوج الذكور بإناث من غير جنس الإنسان.

٣. أن آدم ليس أول من وطأ الأرض وإن كان هو رأس السلسلة بالنسبة إلى

١. بحار الأنوار: ١١/١١٦ ح ٤٦؛ تفسير العياشي: ١/٢١٦؛ تفسير الصافي: ١/٣٢٥.

٢. النورالمبين، للسيد الجزائري: ٥٢.

الخلائق الموجودة ولكن كان قبله أناس في الأرض باسم النسناس وقد انقرضوا
وكانوا متواجدين في عصره. فتزوج أولاد آدم بمن بقي من تلك الطبقة.
وبما أن المسألة راجعة إلى ما قبل التاريخ فإبداء النظر فيها يعدّ رجماً
بالغيب، إذ لا نمتلك وسيلة لمعرفة، وقد سكت عنها التنزيل، ولم ترد فيها رواية
تطمئن بها النفس.

النبي إدريس

معلم الخط

﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ اِدْرِيسَ اِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(١).

﴿وَ اِسْمَاعِيلَ وَ اِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصّٰبِرِيْنَ * وَاَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا اِنَّهُمْ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ﴾^(٢).

ذكر إدريس ﷺ في هذين الموضعين من القرآن الكريم مقروناً بأجمل الأوصاف، وأعطر الثناء.

ورغم أن اسمه ﷺ تلا اسم إسماعيل ﷺ إلا أن المؤرخين والنسابين يقولون: إنه جدّ أبي نوح ﷺ، وإن نسبه كالتالي:

إدريس بن يادر بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ﷺ، ويقول ابن كثير إنه أول بني آدم أوتي النبوة بعد آدم وشيث ﷺ، وقد أدرك من حياة آدم (٨٠٨) سنة.^(٣)

قال العلامة السيد الطباطبائي: إن القرآن لم يراع في ذكر الأنبياء هنا

٢. الأنبياء: ٨٥ - ٨٦.

١. مريم: ٥٦ - ٥٧.

٣. البداية والنهاية: ١ / ٩٢ - ٩٣.

الترتيب بحسب الزمان ولا الانتقال من السابق إلى اللاحق.

هذا، وقد اختلف في مولد إدريس عليه السلام، فقالت فرقة: إنه ولد في مصر وسموه بهرمس الهرامسة، وقالوا: هو باليونانية إرميس (ومعناه عطارد) وعرب بهرمس، وقال آخرون: اسمه باليونانية طرميس، وهو عند العبرانيين خنوخ، وعرب اخنوخ.

وقالت فرقة أخرى: إنه ولد ببابل (في العراق)، وآتاه الله النبوة فيها، ثم رحل إلى مصر.

وقد شاع بين أصحاب السير والآثار أنه أول من خط بالقلم وحاك الثياب وارتداها، وأول من نظر في النجوم وتعلم الحساب، إلى غير ذلك من الأخبار التي وردت في حقه، والتي لا ينبغي الركون إلى أكثرها، لتقادم العهد به عليه السلام، وللدور الذي لعبته الإسرائيليات فيها، حيث إن قسماً منها مروى عن كعب الأخبار ووهب بن منبه، وهما من هما.

ومهما يكن، فإن خلود اسم إدريس عليه السلام بين الحكماء والعلماء، يدل بجلالة على مكانته السامية بينهم، وعلى عمق دوره في التعليم ونشر المعارف الإلهية، وفوق ذلك كله مقامه الرفيع عند الله، والزلفى لديه سبحانه.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو أن النبي نوحاً عليه السلام هو شيخ الأنبياء وأول نبي بعث ومعه شريعة سماوية ولم تكن قبله أي شريعة أخرى، فما هي وظيفة ومسؤولية الأنبياء المبعوثين بين آدم ونوح؟

والذي يمكن أن يقال: إن هؤلاء الأنبياء كانوا يدعون إلى توحيد الباري تعالى، وإلى أحكام الفطرة التي لا تتغير، وإلى أحكام العقل الحصيف كحسن العقل وقبح الظلم والإحسان إلى الوالدين إلى غير ذلك من الأحكام الفطرية والعقلية الواضحة.

نوح

شيخ الأنبياء

ذكر الله سبحانه اسم نوح في ثمانية وعشرين سورة ضمن ٤٣ آية شريفة^(١)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه من الأنبياء الكبار الذين كان لهم دور في الدعوة إلى التوحيد ومكافحة الوثنية، كما أنه يعتبر الأب الثاني للمجتمع الإنساني الحالي.

ويمكن تلخيص ما ذكر عن حياته في القرآن الكريم في محاور سبعة:

١. فضائله ومناقبه وسماته.

١. آل عمران: ٣٣؛ النساء: ١٦٣؛ الأعراف: ٥٩ و ٦٩؛ التوبة: ١٧٠؛ يونس: ١٧١؛ هود: ٢٥، ٣٢، ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٧٩؛ إبراهيم: ٩؛ الإسراء: ٢، ١٧؛ مريم: ٥٨؛ الأنبياء: ٧٦؛ الحج: ٤٢؛ المؤمنون: ٢٣؛ الفرقان: ٣٧؛ الشعراء: ١٠٥، ١٠٦، ١١٦؛ العنكبوت: ١٤؛ الأحزاب: ٧؛ الصافات: ٧٥ و ٧٩؛ ص: ١٢؛ غافر: ٥ و ٣١؛ الشورى: ١٣؛ ق: ١٤؛ الذاريات: ٤٦؛ النجم: ٥٢؛ القمر: ٩؛ الحديد: ٢٦؛ التحريم: ١٠؛ نوح: ١، ٢١ و ٢٦.

٢. إطلاق التهم وإثارة الشبهات حوله وحول أتباعه.
 ٣. رده **عنه** على التهم و الاعتراضات، ودحضه للشبهات.
 ٤. ثباته في طريق الدعوة، وتمادي قومه في الظلم.
 ٥. دعاؤه على قومه، واستصالحهم بالطوفان.
 ٦. حقيقة سؤاله عن ابنه.
 ٧. نكات وعبر.
- وإليك دراسة هذه المحاور واحداً بعد الآخر.

١

فضائل نوح ومناقبه وسماته

- ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. ^(١)
- ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾. ^(٢)
- ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. ^(٣)
- ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. ^(٤)

١. آل عمران: ٣٣.

٢. الشورى: ١٣.

٣. الإسراء: ٣.

٤. الصافات: ٨١.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾^(١).

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٣).

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٤).

أضفى الله سبحانه على نوح ﷺ - فيما تقدم من الآيات - أجمل الصفات وأسناها، والتي ترفعه إلى أسمى المقامات وأبهاها، إذ اصطفاه تعالى على العالمين، وجعله من أولي العزم الذين جباهم بالشرائع (وشريعته ﷺ هي أولى الشرائع الإلهية)، ونعته بالعبد الشكور، والمؤمن المخلص في عبوديته لله تعالى، وأبقى له ذكراً طيباً وثناءً زاكياً بين الأجيال، وخصه بسلام تام تردده الأمم على مر العصور.

ومن خصائصه ﷺ لبثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما يُعتبر ﷺ

الأب الثاني للمجتمع البشري.

١ . الصافات: ٧٨.

٢ . الصافات: ٧٩.

٣ . العنكبوت: ١٤.

٤ . الصافات: ٧٧.

التهم والشبهات المثارة حوله وحول أتباعه

لم يزل المصلحون وما زالوا في قفص الاتهام، وعلى رأسهم الأنبياء العظام. فقد رُمِيَ كلُّ نبي في عصره بتهم كاذبة تشهد حياة الأنبياء بكذبها وتفاهتها، والتهمة بلا ريب سلاح الجاهل الذي يقعد به العجز عن مواجهة دعوة النبي وحججه الدامغة فيلجأ إلى إثارة التهم حتى يسقطه من أعين الناس. وكان هذا الخط حاكماً طول التاريخ بين الجهلة والأنبياء. وقد ذكر القرآن الكريم شيئاً من التهم والاعتراضات التي وجهوها إلى ذلك النبي الكريم ﷺ، وإليك الآيات:

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾. (١)

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهْدِيهِ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾. (٢)

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. (٣)

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا

١. القمر: ٩.

٢. المؤمنون: ٢٤-٢٥.

٣. الأعراف: ٦٠.

نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١﴾

﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَاتِنَا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا أَنْزَلْتَ مِنَ السَّمَاءِ آيَاتَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ لَعَلَّ نُنَاقِلُ﴾ (٢)

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (٣)

وهكذا تُساق التهم جُزافاً:

١. الجنون

والتهمة بالجنون تهمة جاهزة يلصقها الطغاة والجاهلون بالأنبياء والمصلحين ولم يسلم منها حتى النبي الخاتم عليه السلام لأن النبي أو المصلح بمخالفته للرأي العام كمن يريد أن يسبح خلاف التيار، ويُلقى بنفسه في المهالك، وهذا في تصوّرهم هو الجنون بعينه، ولم يدِرِ هؤلاء أنّ صاحب الأهداف السامية يمضي بعزم صارم ويقين، ولا يستوحش في طريقه لقلّة ناصره.

٢. التفوّق والتفضّل

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ (٤). وهذا اتهام آخر

له عليه السلام: إنه يُضمّر حبّ الرئاسة، والاستئثار بغنائم الحياة. إنه - في زعمهم - يتخذ من دعوته غطاءً لتحقيق مآربه الشخصية!!

١. هود: ٢٧.

٢. الشعراء: ١١١.

٣. الشعراء: ١١٦.

٤. المؤمنون: ٢٤.

٣. الضلالة

كان قوم نوح غارقين في الوثنية ومع ذلك يتهمون نوحاً بالضلال لدعوته إياهم إلى توحيد الله وإنقاذهم من الأوثان. وهذا هو دأب الجاهل الذي يصف الحكيم بالضلال ونفسه بالهداية، مجسداً للمثل القائل: (رمتني بدائها وانسلت).
أما الاعتراضات الناجمة عن الإنانية والجهل بمبادئ الحق والحقيقة، فإليك بيانها:

١. اجتماع الأراذل حولك

كان ملاك الفضل والحق والصواب عند قوم نوح عليه السلام هو الثراء والجاه والقوة، ومن هنا نفرّوا من دعوته عليه السلام، لالتفاف الضعفاء والمحرومين حوله، لأن أصحاب الثروة والمقدرة - حسب زعمهم الفاسد - هم أولى الناس باتّباع الداعي لو كان محقاً!! أما هؤلاء الأراذل والأخساء - في نظرهم - فقد أسرعوا إلى اتباعه من دون تفكير ولا تدبّر ﴿بَادِي الرّأْيِ﴾. وهل يُعقل ونحن الأسياد والوجهاء - كما يتخيّلون - أن نقف على قدم المساواة معهم، وننضوي جميعاً تحت لواء دعوة واحدة؟!

وهذا المنطق البائس - للأسف الشديد - لا يزال قائماً في أكثر المجتمعات، ويتحكم في مفاصل حياتها.

٢. ما أنت إلا بشر

غريب أمر هؤلاء الطغاة، يخلقون من أهوائهم وتصوّراتهم المريضة مقاييس ونظريات، ثم يعجبون من جريان الأمور على خلاف مقاييسهم ونظرياتهم!!

والقول بأن النبي ينبغي أن لا يكون من البشر، يأتي في إطار هذا التحكم النابع من نزعتهم الاستعلائية.

٣. التهديد

العادة الجارية بين الأمم هو الاتهام أولاً والاعتراض ثانياً فإذا لم يُنتفع بالأميرين، استعمل سلاح التهديد بالقتل والرجم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾^(١).

وهذه التهم والشبهات والاعتراضات لم تؤثر في عزيمة نوح ودعوته إلى التوحيد والهدى، بل واصل العمل في تأدية رسالته دون كلل أو ملل، ولم يأل جهداً في رد تلك التهم والاعتراضات ويزيفها بأسلوب قائم على الحجج والبراهين، ومفعم بروح الإيمان والحرص على هداية قومه وهذا هو المحور الثالث، الذي نشرع الآن في بحثه.

٣

ردّه على التهم والاعتراضات، ودحضه للشبهات

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾^(٢).
 ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

١. الشعراء: ١١٦.

٢. هود: ٣١.

٣. الأعراف: ٦١.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. (١)
 ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ
 آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾. (٢)
 ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. (٣)
 ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا
 وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. (٤)

قد تعرفت على التهم الموجهة إلى نبي الله نوح ﷺ والاعتراضات التي واجهها. وكان ﷺ - كسائر الأنبياء - يقابل ما أُثير حوله بقوة المنطق والبرهان الواضح وبدفق العاطفة الصادقة عسى أن يُفلح في التقليل من عنادهم وعدائهم وبالتالي فتح قلوبهم لتقبل دعوة التوحيد.

لم يشأ أن يردّ على اتهامه بالجنون (ولا كلُّ قَوَالٍ لَدَيَّ يُجَابُ) (٥)، فحياته ﷺ بين ظهرائهم أدلّ دليل على كمال عقله وسعة حلمه وحسن تصرفه.

وأما الرغبة في التفوق فقد ردّ ﷺ على هذا الاتهام بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. فمن يرغب في التفوق، يطمع بما في أيدي الناس من الأموال ويسعى للاستحواذ عليها، وأتى لهم أن يتهموه بذلك، ولم يسألهم أجراً على إنذارهم وتبليغهم؟

كما نفى ﷺ تهمة الضلالة عن نفسه بقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي

١. الأعراف: ٦٢.

٢. هود: ٢٩.

٣. الشعراء: ١١٤-١١٥.

٤. الأعراف: ٦٣.

٥. شطر بيت لأبي فراس الحمداني، أوله: وما كلُّ فقال يُجازيُ بفعله.

رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(١) . فهل يضلّ من اهتدى بهدي الله واتّبع صراطه المستقيم واختاره الله لتبليغ رسالاته؟ وهل يضلّ من حمّله ربُّ العالمين مسؤولية النصح لأُمَّته وإنذارهم وتبشيرهم بما يعلمه من وحدانية الله وسنته وأحكامه؟

ومعنى ذلك أنّ جهلكم برسالات ربكم صار سبباً لوصفي بالضلالة مع أنّي على الصراط المستقيم .

هذه هي ردوده ﷺ على ما أكيّل له من التهم . وهلم معي ندرس كيف واجه اعتراضات قومه .

ردوده على اعتراضات قومه

١ . لقد أنكروا عليه التفات الفقراء والمستضعفين حوله، ودّعوه إلى إبعاد هؤلاء الأراذل - حسب تعبيرهم - الذين انقادوا له دون بصيرة وتدبّر . إن هؤلاء المترفين الطفّاة لم يستأثروا بالأموال ومتع الحياة فحسب، بل جعلوا من أنفسهم أوصياء على الآخرين حتى في مجال التفكير والإيمان والاعتقاد! فحجروا عليهم هذا الحق، وراحوا يهدرون إنسانيتهم بإزدرائهم واستصغارهم . لم يرفض نوح ﷺ فقط دعوتهم الظالمة بإبعاد المستضعفين، بل أسبغ عليهم حُلل الكرامة الإلهية بوصفهم بالمؤمنين ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٣) ، وأخذ يكرّس واقعاً اجتماعياً جديداً بعيداً عن

١ . الأعراف: ٦١-٦٢ .

٢ . الشعراء: ١١٤ .

٣ . هود: ٢٩ .

الإجاءات السلبية للغنى والترف ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾. أجل حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، من حق الله وحده يوم يلقونه ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حقيقة ذلك، ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(١) هذه هي مسؤوليتي الملقاة على عاتقي، ولم أكلف بمحاسبة الناس ومجازاتهم.

٢. أنكروا أيضاً أن يكون ﷺ بشراً مثلهم فردّ عليهم بقوله: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.^(٢)
فقوله: ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ إشارة إلى ضرورة كون الرسول من جنس المرسل إليهم وإلا لامتنع التفاهم بينهما.

وقفة تأمل مهمة

إن التهم والاعتراضات التي أثارها قوم نوح في وجه نبيهم ﷺ صدرت أيضاً من سائر الأمم تجاه أنبيائهم، ومنهم سيدهم وسيد الخلق أجمعين النبي الخاتم، فقد كذبه قومه: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.^(٣)
وكان الأمم توأمت بهذه الأقوال الزائفة: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾.^(٤)
كما أن طغاة قريش طالبوا النبي الأكرم بتنحية أصحابه المستضعفين، أسوة بقوم نوح ﷺ، فقال سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ

١. الشعراء: ١١٥.

٢. الأعراف: ٦٣.

٣. الحجر: ٦.

٤. الذاريات: ٥٢-٥٣.

وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿١﴾

ولا نطيل الكلام حول التهم المتشابهة والتي وجهت إلى سائر الأنبياء ﷺ وجميعها يشير - بعد التأمل - إلى أمر مهم وهو أن النبي - كل نبي - قد بلغ من الطهارة والقداسة حداً لم يتمكن فيه أعداؤه من اتهامه بمساوئ الأخلاق ورتائل الأعمال، ولكن عنادهم دفعهم إلى القول بأنه مجنون، أو ساحر، أو كاهن، أو شاعر، وغير ذلك من الأوصاف التي لا تمس قداسة النبي التي تفوح من سيرته العطرة. ومع ذلك فإن نفس هذه التهم تنفع العالم الاجتماعي الذي يسعى لدراسة حياة الأنبياء ومعرفة سلوكهم في مجتمعاتهم، وهي خير وسيلة للوصول إلى قداستهم.

٤

ثباته في طريق الدعوة، وتمادي قومه في الظلم

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٢)

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ﴾ (٣)

١ . الأنعام: ٥٢-٥٣ .

٢ . نوح: ٥٠ .

٣ . هود: ٣٢ .

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَسِينِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾. (١)

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾. (٢)

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾. (٣)

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾. (٤)

هذا الفصل من حياة النبي نوح عليه السلام يشتمل على أمور ثلاثة:

١. ثباته في طريق دعوته إلى التوحيد.

٢. أسلوبه في إرشاد قومه.

٣. عنادهم ولجاجهم أمام دعوته.

وإليك التفصيل.

١. ثباته في طريق دعوته

إن صبر نوح عليه السلام واستقامته وثباته في طريق دعوته، لما يُضرب به المثل، إذ مكث في قومه تسعمائة وخمسين عاماً، قضاها في طريق التبليغ والإرشاد من غير سأم ولا كلل رغم قلة المؤمنين به وإعراض جل قومه عنه.

وليس دأبه على التبليغ والنصح لقومه ليلاً ونهاراً وعدم الاستسلام لعنادهم

٢. نوح: ١٣-١٦.

٤. نوح: ٧.

١. نوح: ١٠-١٢.

٣. نوح: ١٧ و ١٨.

وعتوهم إلا دليلاً على ثباته وعزمه على تحقيق رسالته، وبلوغ أمنيته في هدايتهم وإرشادهم إلى الحياة الكريمة .

ولم يزل ﷺ يدعوهم ويحاورهم ويحاججهم بأبلغ حجة وأجمل بيان حتى ضاقت صدورهم به لبطان كل حججهم وشبهاتهم، وسقوط جميع تهمهم، فضجوا قائلين : «يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» معبرين بذلك عن إصرارهم على التمسك بعقائدهم الباطلة وأفكارهم المنحرفة.

إن الاستقامة في طريق الدعوة هي شيمة الأنبياء، ولهم في هذا المضمار مراتب وقد كان نوح في مرتبة متقدمة منه.

٢. أسلوبه في الدعوة

يظهر من الآيات أن النبي نوحاً كان يتبع أسلوباً ذا اتجاهين:

أ. الترغيب بالنعم الدنيوية غب الإيمان.

إن حب المال والأولاد أمر فطري جعله الله سبحانه في خلقة الإنسان، ولولا ذلك لما ربي بشر ولدأ ولا حملت أم طفلاً، وهكذا الأموال. وقد نبه النبي نوح إلى أن للإيمان بالله وطلب الغفران أثراً واضحاً في الدنيا. وفي مظاهر الحياة. فخطب قومه بقوله : «... اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَاراً».

ويريد ﷺ بهذا الخطاب توجيه نظرهم إلى أن للإيمان بالله أثراً واضحاً في رعادة العيش التي من مظاهرها الأموال والأولاد والجنت والآنهار، وهي نتائج الإيمان بالله وطلب الغفران مما مضى من عبادة الأوثان .

إنه ﷺ يكشف بذلك عن وجود الصلة بين الإيمان بالله وسر إفاضة النعم على الإنسان المؤمن، فإذا كان الإيمان سبباً لنزول النعم يكون الكفر سبباً لفقدانها وصيرورة العيش ضنكاً.

وهذه الحقيقة الغيبية التي نبه عليها نوح في دعوته يؤيدها القرآن الكريم كما تؤيدها التجربة كذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، فقد صرح سبحانه بأن التقوى سبب لهبوط البركات من السماء ونبوعها من الأرض. بل القرآن يصرح بأن العمل بالتوراة والإنجيل الواقعيين سبب لذلك أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾^(٢).

فالعمل بالكتب السماوية غير المحرّفة، يكون موجباً لكسب رضا الله تبارك وتعالى الذي يتبعه نزول البركات.

ويشير الإمام أمير المؤمنين ﷺ في كلامه إلى هذه الحقيقة فيقول: وقد جعل الله الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق.^(٣)

وأما التجارب فتشهد بأن العصيان ونقض القوانين وهدر الحقوق يورث الفوضى في المجتمع ويصبح النظام حاكماً عليه. وفي مثل هذا المجتمع يسود القتل والبغي والسرقة وغيرها من الآثام التي هي من تداعيات فساد وتفككه.

وربّ سائل يسأل: إن المجتمعات الغربية غارقة في العصيان والفساد

١. الأعراف: ٩٦.

٢. المائدة: ٦٦.

٣. نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٣.

الأخلاقي، فكيف تتمتع بالازدهار والرخاء والإنتاج الوفير؟
والجواب أن ثمة أسباباً طبيعية للحصول على خيرات الأرض ونعمها
و ثرواتها، تتمثل في التخطيط والتنظيم والعمل الجاد في البناء والإعمار والاستثمار.
وبمقدار ما يأخذ المجتمع - أي مجتمع آمن أم لم يؤمن - بهذه الأسباب، يتحدد
مقدار ما يحوزه من ثروات وما يبلغه من رقي وازدهار، والمجتمعات الغربية - كما
هو واضح - قد حرصت على الأخذ بها، فبلغت ما بلغت، والفارق أن المجتمع
الأخذ بتلك الوسائل إذا كان مؤمناً، فإن الله تعالى سينمي خيراته أكثر، ويفيض
عليه المزيد من نعمه وآلائه، ويفتح عليه بركات السماء والأرض.
ثم إن المجتمع المؤمن إذا راعى تلك الأسباب، فإنه ينعم بسعادة الدنيا
والآخرة، بينما يحظى المجتمع غير المؤمن بلذات الدنيا فقط.^(١)

إلفات نظر القوم إلى نظام الخلق

سعى نوح عليه السلام إلى توجيه أنظارهم إلى ما أنعم الله سبحانه عليهم من النظام
الذي خلق لسعادة الإنسان وبه تناط حياتهم فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً *
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ
فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾.^(٢)

إن هذا الخلق المحكم المتقن يدل على خالق حكيم قدير، فكيف تتوجهون
إلى غيره بالعبادة والطاعة؟

ومما نلفت إليه نظر القارئ أن الآية الكريمة وصفت الشمس بالسراج

١. انظر التفسير الكاشف: ٧/ ٤٢٧.

٢. نوح: ١٣-١٦.

والقمر بالنور، وما هذا إلا لأن القمر غارق في الظلمة مستنير بالشمس، بينما تجد الشمس متوهجة بالنور، فهي منيرة بذاتها وما سواها مستنير بها، ولذا وصفت الشمس بالسراج الذي ينير بذاته ولا يقتبس النور من غيره.

ب. التنبيه على الحياة الآخروية

كان ﷺ يوجه عقولهم إلى أن الحياة الدنيوية مقدمة للحياة الآخروية، فليس الموت نهاية الحياة، فعليهم أن يتزودوا للحياة الآخروية التي لا محيص للإنسان عنها وإلى ذلك يشير بقوله: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا»^(١).

إلى غير ذلك من الطرق التي سلكها نوح ﷺ في دعوته لتلين قلوبهم والفت نظرهم إلى دلائل التوحيد.

٣. عنادهم ولجاجهم قبال دعوته

ذكر الله سبحانه من عناد قوم نوح وتمردهم على الحق ما يثير العجب العجاب، فلقد دعاهم ﷺ إلى ما فيه سعادتهم ومنجاتهم، وهتف بهم بفنون الأساليب النابضة بالعطف والمحبة، والساطعة بالبرهان والحجة، وحذّره وأنذره، فلم يزدادوا إلا إصراراً على الظلم والعصيان، وانقياداً إلى الأهواء والشيطان، وكأنه ﷺ كان يضرب في حديد بارد.

وقد بلغ الرّين على قلوبهم بما كسبوا، أن راحوا يتمادون في الإعراض عن سماع الحكيم البوالغ، وعن رؤية الصادع المبلّغ، حتى خاطب ﷺ ربه السميع

البصير، قائلاً: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾. (١)

ولم يكتفِ الطغاة المترفون بمناهضة دعوة نوح ﷺ، بل كانوا يصدّون الناس عن اتباعها، ويحرضونهم على التمسك بمعتقداتهم وعبادة أصنامهم، للإبقاء على الأوضاع كما هي، خوفاً من رياح التغيير التي تأتي على نفوذهم ومصالحهم غير المشروعة: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾. (٢)

أليس من حق الله سبحانه أن يصف هؤلاء المعاندين بالصفات التالية:

١. ﴿كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾. (٣)
٢. ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. (٤)
٣. ﴿كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى﴾. (٥)

وأن يُغرق هؤلاء الكفرة الفجرة الذين عموا عن رؤية الحقائق، وتولّوا عن طاعة الله، واستكبروا استكباراً.

هذه نماذج من الآيات التي وردت حول هذا الموضوع، ويمكن للقارئ الكريم أن يطالع ما لم نذكره في المقام مما له صلة به.

١. نوح: ٧.

٢. نوح: ٢٣.

٣. الأعراف: ٦٤.

٤. الذاريات: ٤٦.

٥. النجم: ٥٢.

دعاؤه على قومه، واستئصالهم بالطوفان

﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغَبَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١)

إن النبي نوحاً ﷺ قد بذل جهده وأفنى طاقاته في سبيل هداية قومه

ولكنهم تولّوا عنه، إلى حدّ يشس فيه النبي المجاهد من هدايتهم، وعند ذلك وافاه الوحي الإلهي بالخطاب التالي: ﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١)، فصار ذلك سبباً لتوجهه إلى الله تعالى والدعاء عليهم بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٢).

صُنع الفلك (السفينة) وسخرية قومه

لقد اقتضت إرادة الله سبحانه بإبادة الكافرين وإهلاكهم وتطهير الأرض منهم، وبإنقاذ المؤمنين من الهلاك، ولما كانوا جميعاً يعيشون في منطقة واحدة فقد اقتضى ذلك توجيه الأمر إلى نوح بأن يصنع الفلك، ليحفظ به حياة المؤمنين. بدأ نوح بعمله في البر بعيداً عن الماء، ولم يكن ذلك مناسباً لصنع الفلك، الذي ينبغي أن يُصنع قرب الشواطئ ليسهل إلقاؤه في الماء، ومن هنا أخذ قومه يهزأون به ويسخرون منه (وكانوا يقولون يتخذ سفينة في البر)^(٣)، وهذا يدل على أن طبائعهم قد جُبلت على العناد والجحود والسخرية. قال الشاعر:

فلا تبتئس من نقد من ليس حظُّه من الدهر، إلا أن يُرى وهو ساخرٌ؛

إنّ الفلك الذي يحمل المؤمنين، ومن كلّ جنس من أجناس الحيوانات

١. هود: ٣٦.

٢. نوح: ٢٦-٢٧.

٣. روي هذا القول عن الإمام علي عليه السلام. انظر: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، للجزائري: ٧٣.

٤. البيت للسيد محمد جمال الدين الهاشمي.

زوجين اثنين، والطعام الذي يحتاج إليه الركاب طول فترة الطوفان، إن هذا الفلك لا بد أن يكون عظيماً قوياً يقاوم الأمواج العاتية، وأن يكون صنعه بتعليم من الله سبحانه وتسيده، لأن نوحاً وقومه لم يروا سفينة من قبل، ولم يعرفوا كيفية صنعها.

هذا وقد اختلفت كلمات المؤرخين في خصوصيات هذا الفلك، ومهما اختلفوا في عرضه وطوله وسعته فالآيات التي تشير إلى أنه حمل فيه كل ذلك، تدل على سعته وكبره. روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: إن طولها كان ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ثمانمائة ذراع وطولها في السماء ثمانون ذراعاً.^(١) ونقل ابن كثير أقوال الباقيين في خصوصيات الفلك بما لا حاجة إلى ذكرها هنا. ومن المعلوم أن ذلك الفلك كان مؤلفاً من طبقات بعضها للناس وبعضها للدواب وبعضها للوحوش وبعضها للطيور.^(٢)

علائم البلاء في السماء والأرض

اقترب الموعد الذي حدده الله سبحانه لابتداء الطوفان، وجعل علامة ذلك أن ينبع الماء من التنور الذي يُخبز فيه^(٣): ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ وعندئذ أمر الله نوحاً أن يحمل في الفلك أهله ومن آمن به ومن كل زوجين اثنين: ﴿قُلْنَا اجْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

١. النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، للجزائري: ٧٢.

٢. قصص الأنبياء لابن كثير: ٨٢.

٣. وقيل: المراد بالتنور وجه الأرض، ذكره ابن عباس. التبيان: ٥/٤٨٦.

ثم إنه دعا المؤمنين من أهله وأصحابه أن يركبوا فيها مبتدئاً بالتسمية: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾. أي ان جريها ومنتهى سيرها بيد الله تعالى، والسفينة وسيلة أمر الله بالتمسك بها.

وبدأت الأرض تفيض بالماء دفاقاً، والسماء تهطل بالمطر تهطالا، حتى امتلأت الوديان، واختفت قمم الجبال الرواسي، لتحل محلها جبال من أمواج متتابعة، تشمخ في أبحر ثائرة، ولم يبق هناك إلا سفينة أُنقذت صنعها بوحى الله، تجري في وسط ذلك العُباب الزاخر بعين الله.

إنه حقاً لمشهد مهول يأخذ بأكظام النفوس، وتضطرب القلوب من تخيله ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾^(١)، ولكن القلوب تهدأ وتطمئن حين ترى يد الرحمة تمتد في أعماق الشدائد والأهوال لتنقذ المؤمنين الصادقين وترعاهم ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِ وَدُسِّرَ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا﴾^(٢).

استواء السفينة على الجودي

إن الفلك التي أقلت نوحاً ومن معه استقرت في نهاية الأمر على الجودي، وهو - كما قيل - جبل بديار بكر من بلاد الجزيرة في جبال تتصل بجبال ارمينيا. قال في القاموس المحيط: والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ويسمى في التوراة آراراط.

وقال في مراصد الاطلاع: جبل مطل على جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة

١. القمر: ١١-١٢.

٢. القمر: ١٣-١٤.

من أعمال الموصل.

وجاء في تفسير القمي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: واستوت السفينة على جبل الجودي وهو بالموصل جبل عظيم.^(١)
وكل ذلك أخبار آحاد لا يمكن الاعتماد عليها، والعلم عند الله سبحانه وعند من علمهم من المعصومين.

نهاية قصة الطوفان

كانت الفلك تجري بنوح ومن معه ليالي وأياماً إلى أن أهلك الله سبحانه جميع الظالمين ثم جاء الأمر الإلهي بأن تبتلع الأرض ماءها وأن تُمسك السماء عن المطر فامتثلنا للأمر، وغاض الماء، وقضى الأمر الذي قدر.
ولما انتهى الطوفان، خرج نوح ومن معه من الفلك سالمين، قائلاً
عليه السلام (بتعليم من الله سبحانه): ﴿... رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

ثم من سبحانه على نوح بأن جعل عقبه باقياً دون الناس أجمعين، كما قد توحى بذلك الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، وكما هو مشهور عند المفسرين والمؤرخين كابن عباس وقتادة والطبري الذي قال في تفسيره: ذرية نوح هم الباقون في الأرض بعد مهلك قومه، والناس كلهم من بعده إلى اليوم إنما هم من ذرية نوح.

وشاء الله تعالى أن تستمر الحياة الإنسانية بعد انتهاء الطوفان، وأن يفيض

١. النور المبين للجزائري: ١٧٣ تفسير القمي: ١/٣٢٨.

بنعمه وخيراته النامية على نوح وأصحابه المؤمنين ، ويهتئ مقومات العيش لكل البشر الذين سيملاون الأرض من بعدهم: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّةٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّةٍ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (١)

والمراد بـ ﴿أُمَّةٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ هم الأمم الصالحون من أصحاب السفينة إذ كلهم سعداء ناجون. وهناك أمة أخرجهم الله من زمرة المخاطبين ﴿وَأُمَّةٍ سَنُنَتِّعُهُمْ﴾ وأخبر أنهم سيتمتعون ثم يعذبون لتماذيبهم في الظلم والطغيان. ولذلك قالوا: إن النبي نوح هو الأب الثاني للإنسانية، لما يظهر من القرآن أن الباقيين في الأرض كلهم من ذرية نوح.

نعم يظهر من عدد من التفاسير أن الأمم اليوم ليسوا كلهم من ذرية نوح بل هم من ذريته وذرية من كان معه من المؤمنين، وأن المراد بـ ﴿أُمَّةٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ هم الأمم الصالحون من أصحاب السفينة ومن سيظهر من نسلهم من الصالحين. (٢)

ولكن هذا لا ينسجم مع قول من فسر قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ببقاء ذرية نوح وحدهم.

هل كان الطوفان عالمياً؟

اختلف العلماء في موقفهم من هذا الأمر، ففريق رجح شمول الطوفان للأرض كلها، وقد ذهب بعضهم إلى حدّ تبني هذا الرأي، وفريق آخر رجح وقوعه في جزء من الأرض، وقد مال بعضهم إلى تبني هذا الرأي، وثالث لم يرجح

١. هود: ٤٨.

٢. انظر الميزان في تفسير القرآن: ١٠/٢٣٩-٢٤٠.

هذا ولا ذاك، واعتبر إبداء الرأي في هذا المجال يدخل في إطار الظن ولا يستند إلى أدلة واضحة، وأن معرفته ليست بذات قيمة في تحقيق أهداف القصاص القرآني.

ويعتمد الفريق الأول في ترجيحه على عدد من الشواهد والقرائن، منها ظاهر الآيات الكريمة، كإطلاق لفظ الأرض في قصة نوح ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، والأمر بحمل زوجين اثنين من كل جنس من أجناس الحيوان، فلو كان الطوفان - كما يقولون - خاصاً بناحية من نواحي الأرض لما كان ثمة حاجة إلى الأمر بحمل ذلك^(١)، ومنها وجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال، وهو دليل - كما يقولون - على أن الماء قد صعد إليها، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض.

وأجيب عن هذه الشواهد والقرائن بما يلي:

١. إن القرآن المجيد يذكر الأرض ويريد بها منطقة معينة، كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) يعني أرض مصر، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾^(٣) والمراد بها مكة.

٢. إن حمل الأحياء في السفينة، ربما يكون بهدف المحافظة على نسلها من الانقطاع في القسم الذي عمّه الطوفان، خصوصاً أن نقل الحيوانات وانتقالها في ذلك اليوم لم يكن أمراً هيناً.^(٤)

١. الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ٢٦٤.

٢. يونس: ٧٨.

٣. الإسراء: ٧٦.

٤. الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦ / ٥٠١.

ونقول: إنَّ عالم الأحياء التي تعيش على الأرض عالم واسع جداً، ويضم أنواعاً لا حصر لها، تعدّ بعشرات أو مئات الآلاف من الأنواع، ولا ندري كيف نتصور أن نوحاً ﷺ قد حمل جنسين من كلّ نوع من هذا الكم الهائل من الأنواع، وأن السفينة قد استوعبت كل ذلك؟!!

٣. إنَّ وجود الأصداف وغيرها في قُلل الجبال قد يكون لأسباب أُخرى غير

طوفان نوح ﷺ.

هذه الإجابات وبعض القرائن حدثت بالفريق الثاني إلى ترجيح حدوث الطوفان في جانب من الأرض.

ومن المسائل التي ذُكرت لدعم القول بمحدودية الطوفان، هي أن طوفان نوح كان بمثابة العقاب لقومه، وليس هنا - كما يقولون - دليل على أن دعوة نوح شملت الأرض كلها، وعادة فإنَّ وصول دعوة نوح في مثل زمانه إلى جميع نقاط الأرض أمر بعيد.^(١)

ونقول: إذا سلّمنا بافتقارنا إلى دليل يدلّ على شمول دعوة نوح، واستبعدنا وصول دعوته إلى جميع نقاط الأرض، فإنَّ الدليل يعوزنا أيضاً في إثبات أن الأرض كلها كانت مأهولة بالسكان، خصوصاً إذا لاحظنا هذين الأمرين:

١. قرب العهد بين نوح وأدم أبي البشر ﷺ. وإذا صحّ ما ذكره المؤرخون والنسّابون من وجود ثمانية آباء بينهما،^(٢) أدركنا حجم المجتمع البشري آنذاك، وعدم تفرّقه في مناطق نائية جداً.

١. الأمثل: ٦/ ٥٠٢؛ وانظر تفسير المراغي: ٢٣/ ٦٧ (ط. دار إحياء التراث العربي).

٢. قالوا: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس بن لود (أو يارد) بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم.

٢. ما اشتهر على السنة المؤرخين والمفسرين بأن جميع البشر - بعد حادثة الطوفان - هم من ذرية نوح، ولذا اعتبروه الأب الثاني للبشر - كما مر - وثمة من يقول بأنهم من ذريته عليه السلام ومن ذرية من كان معه في السفينة. وهذان القولان يستلزمان عدم وجود أمم (غير أمة نوح) في بعض الأقطار الشاسعة لم تبلغهم الدعوة، فلم يستوجبوا الفرق.

٦

حقيقة سؤال نوح عن ابنه

﴿وَمِمَّنْ نَجَّرْنَا فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ﴾^(١)

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢)



ركب النبي نوح في السفينة ورأى ابنه (يقال إن اسمه كنعان) في معزل عنه،

١. هود: ٤٢-٤٣.

٢. هود: ٤٥-٤٧.

فناداه بقلب هيف: ﴿يَا بُنَيَّ اِرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، ولكنه أبي أن يُلبّي نداءً الوالد المشفق، معتذراً بأنه سيلجأ إلى جبل عال يحفظه من الماء.

وكان يتصور أن المياه مهما ماجت فلن تصل إلى سفح الجبل فضلاً عن قمته ثم لم تلبث أن تنحسر، وأنه سينجو من الغرق بصعوده في الجبل.

فأجابه نوح البصير بعظمة الله وقدرته قائلاً: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾. ولكن هذا المفتون بجهله وغروره لم يفهم مغزى هذا القول، ولم يدرك أنه لن يُفلت أحدٌ من غضب الله إلا بالرجوع إلى الله، وظل سادراً في غيّه إلى أن حال بينه وبين أبيه الموج.

فلما رأى نوح فلذة كبده وثمره حياته يتقلب بين الأمواج، ويعاني صرعات الغرق و الموت، أراد أن يستنجز وعد الله بنجاة ولده، فقال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ولكن كلمة العذاب قد حقت عليه بعصيانه، فكان من المغرقين.

وللتدبر والاستفادة من هذه القصة تجب دراسة المواضع الأربعة التالية:

١. ما هو المراد من قوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾؟
 ٢. كيف دعا نوح ابنه إلى ركوب السفينة مع كونه كافراً، وكان عاقباً قد دعا الله سبحانه أن لا يبقى على الأرض من الكافرين دياراً؟
 ٣. ما هو المراد من قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؟
 ٤. هل كان نداؤه لربه بشأن ابنه واقعاً في غير محله؟
- وإليك دراسة هذه المواضع واحداً بعد الآخر.

الأول: ما هو المراد من الوعد الحق؟

الوعد الحق الذي ذكره نوح ﷺ، هو ما وعده الله من نجاة أهله من الغرق

والهلاك، وقد جاء في موضعين:

أحدهما ما مر من قوله: ﴿اٰخِمْلْ فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اٰثْنَيْنِ وَاَهْلَكَ﴾.

وثانيهما قوله: ﴿اِنَّا مُنْجُوْكَ وَاَهْلَكَ﴾.^(١)

ومن هنا نادى ربّه مستنجزاً وعده في ابنه، لأنه من أهله: ﴿اِنَّ اٰبِنِيْ مِنْ اٰهْلِيْ

وَ اِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ولم يفصح ﷺ عن طلبه بنجاة ابنه تأديباً أمام الله سبحانه، وإلا

كان يقتضي أن يقول: يلزم ألا يغرق ولدي لأنه من أهلي.

فأجابه سبحانه بقوله: ﴿يَا نُوحُ اِنَّهُ لَيْسَ مِنْ اَهْلِكَ اِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ فَلَا

تَسْاَلْنِيْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهٖ عِلْمٌ اِنِّيْ اَعْظُكَ اَنْ تَكُوْنَ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ﴾.

الثاني: كيف دعا نوح ابنه إلى ركوب السفينة مع كونه كافراً؟

كيف طلب من ابنه ركوب السفينة مع كونه كافراً، وكان ﷺ قد دعا الله

سبحانه أن لا يُبقي على الأرض من الكافرين دياراً؟!!

والجواب: أنه لا يظهر من الآيات أن النبي نوحاً كان يعلم كفر ابنه، لأن

من يدعو الله سبحانه بكلّ وجوده أن لا يترك على الأرض من الكافرين دياراً، لا

يقدم على إركاب الابن الكافر معه في السفينة، وهذا يعرب عن أن ابنه كان مُظهراً

للإيمان ومبطناً للكفر.

ولعلّ في قوله لابنه: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِيْنَ﴾ ما يشير إلى عدم وقوفه على

كفر ابنه، حيث يكون المعنى: لا تتخلف مع الكافرين فتغرف معهم،^(٢) وإلا كان

من المناسب أن يقول: ولا تكن من الكافرين. وهذا ما جعل نوحاً يسأل ربّه

١. العنكبوت: ٣٣.

٢. مجمع البيان: ٥/٣١١.

سبحانه عن وجه غرق ابنه مع كونه من أهله ولم يكن كافراً محكوماً بالفرق. والشاهد على ذلك أنه لم يسأل الله عن امرأته مع أنها كانت من أهله من دون ريب، وما ذلك إلا لأنه كان يعلم أنها كافرة، ولذا تركها تفرق دون أن يسأل عنها.

وقد ذكر المفسرون في وجه السؤال أموراً غير تامة.^(١) ولعل ما ذكرناه أوضح مما ذكر.

وعند ذلك وافاه الجواب بما نذكره في الموضع التالي.

الثالث: ما هو المراد من قوله: ﴿إِنَّهُ هَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ﴾؟

يظهر مما ذكرناه أن المراد من قوله: ﴿إِنَّهُ هَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ﴾، هو أنه كان مُبْطِئاً للكفر ومظهراً للإيمان، والمنافق أشد من الكافر. فهو إذا قد بلغ من الفساد إلى حد صار عملاً غير صالح، لا عاملاً غير صالح. وبتعبير آخر: صلته بنوح لما كانت صلة جسمانية لا صلة روحية، ذكر سبحانه أنه لا ينبغي لنوح أن يسأل ما ليس له به علم وما لم يطلع عليه، كما يدل عليه قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

الرابع: هل كان نداؤه لربه بشأن ابنه واقعاً في غير محله؟

والجواب يُعلم مما سبق، إذ أن مناداته لربه في حق ولده بالنسبة إلى الظاهر لم تكن في غير موقعها، لأنه كان غير مطلع على عدم صلاحه. وأما بالنسبة إلى الواقع فهي كانت في غير موقعها، لأنها تستلزم استمرار حياة ابنه في الأرض مع أنه سأله سبحانه أن لا يُبقي عليها كافراً.

قاعدة ربّانية

رسخ القرآن الكريم من خلال قصة امرأة نوح (وامرأة لوط أيضاً) قاعدة ربّانية ذات أثر كبير في حياة المجتمع وفي تقييم المواقف، وهي إن تزكية الإنسان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإيمانه وإخلاصه وحسن سيرته وصدق سريره، وإن الرابطة الأسرية، وأصرة القربى من أذى الناس وأطهرهم، لا تُجدي شيئاً إذا لم تعززها العقيدة الصالحة والأعمال المثمرة والمسلك القويم.

إن أسوأ ما قام به المتفعون والمتحجرون، هو استغلال وشائج القربى وإجاءاتها الباطلة في خلق مقامات زائفة لهم بين الناس، وإضفاء صفة القدسية على أنفسهم وعلى آرائهم ومواقفهم.

والمثل الذي ضربه الله تعالى في هذا المجال، مستوحى من امرأتين نوح ولوط، فهما على صلتهما من نبيين كريمين، كانتا رمزاً للكفر والخيانة، ولم تنفعهما تلك الصلة في قليل ولا كثير ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ﴾^(١).

وفي قبال ذلك يعرض القرآن صورة لامرأة عاشت في قصر مليء بأسباب الراحة والترف والنعيم، وقائم على الكفر والظلم والطغيان، فلم ترهب هذا، ولم تغتر بذلك، بل آثرت العزّ الباقي والنعيم الدائم في جوار الله على العزّ الكاذب والنعيم الزائل في ظلال القصر، فنالتها ولم يضرّها كفر وظلم صاحب القصر وأعوانه. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا

فِي الْجَنَّةِ وَتَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَهَمَلِهِ وَتَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾.

خلاصة قصة نوح ﷺ

ارتكس المجتمع البشري في عهد نوح أيما ارتكاس، وضل عن النهج القويم، بسيادة الوثنية وقيمها ومفاهيمها في أوساطه، فبعث الله تعالى إليهم نوحاً منذراً ومبلغاً: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

ونهب نوح بمهمته، مبيناً بجلاء الهدف السامي من بعثته: ﴿أَبْلَغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾.

ولكن مُترفي قومه وكبراءهم زهدوا في نصائحه، وتجاهلوا إنذاره، واستهانوا بالحق الذي جاء به، وطفقوا يُثيرون الشكوك والشبهات، ويختلقون الأكاذيب والاتهامات، بقصد التشويه، والتنفير من دعوته، فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ غير قادر على الاضطلاع بهذا الأمر، الذي هو - بتصورهم الفاسد - من شأن الملائكة، كما أنه يفتقر إلى أية ميزة من الميزات التي يتطلبها - كما يزعمون - مقام النبوة كامتلاك الثروات الطائلة، والقدرة على الإخبار بالمغيبات، وهو مع ذلك غير صادق في دعوته، وإنما ﴿يُرِيدُ أَنْ يَمْتَصِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ فيستأثر بالجاه والمال، بل هو مجنون لا يفقه ما يقول.

ثم كيف يليق بنا الإيمان به ونحن أولو القوة والثروة والحكمة والتعقل - وقد التف حولهُ ﴿أَرَادِلْنَا﴾ الذين يُسارعون إلى التصديق من دون تدبر ولا تفكير؟

تعامل نوح ﷺ مع صدود قومه وجفوتهم بروح عالية ونفس كبيرة، وأجاب عن شكوكهم واتهاماتهم بشفافية ووضوح ودقة، فلم يدع شبهة من الشبه إلا

ودحضها، ولا تهمة من التهم إلا ونقضها، كل ذلك بأسلوب محبب ومنطق رصين وحوار مفتوح، بعيداً عن الادعاء والتلبس، والمهاترة والمناجزة: «يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ»، «وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ»، «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ»، «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» فليس من حقِّي محاسبتهم ومجازاتهم، وإنما أمرهم إلى الله يوم يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ، «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ». لله ما أزيّن هذا الصدق! وما أجلى هذا البيان! وما أشدّ هذا النكران للذات!

لقد بلغ ﷺ رسالات ربه دون كلل أو ملل، واجتهد في إرشاد قومه وبث المفاهيم الإلهية والقيم الإيمانية فيهم طيلة سنوات عمره المتمادية إذ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، لافتاً أنظارهم إلى قدرة الله التي تتجلّى في خلقهم أطواراً، وفي خلق السماوت ونظامها المتقن، وخلق الأرض وتيسيرها للحياة وتحصيل الأرزاق.

كما وعدهم إذا هم أنابوا إلى الله واستغفروه أن يكتفهم الله بغفرانه، ويفيض عليهم من ضروب نعمه «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا».

لم يعبأ أكثر قومه بنصائحه ومواعظه، ولم يستضيئوا بأنوار كلماته وحكمه، وقد بلغ بهم الصلف إلى إعلان تبرّمهم منه، فخاطبوه بقولهم: «يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا»، ووصل بهم الإيغال في رفض صوت الحق ورؤية من ينطق به إلى أن «جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ»، وراحوا يستعملون معه أسلوب التهديد والوعيد، قائلين: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ».

لم يكثر نوح بتهديدهم لثقتهم بربهم وبصيرته برسالته، وتحذاهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنَّ كَبْرًا عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾.

ولما ينس نوح منهم، وأوحى إليه سبحانه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ دعا عليهم قائلاً ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾، فاقضت إرادة الله باستصالحهم وتطهير الأرض منهم، وأمره بصنع سفينة ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، فشرع في صنعها، فكان قومه يسخرون منه، فردد عليهم قائلاً: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ * فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

فلما أتمها عليه السلام، ورأى أمارة الطوفان، حمل فيها المؤمنين من أهله وأصحابه (وهم قليلون)، ومن صنوف الأحياء والحيوانات زوجين: ذكراً وأنثى.

ثم بدأت الأرض تتفجر ماءً، والسماء تسخ بالمطر سحاً، حتى تحولت الأرض إلى بحار متلاطمة، ترتفع أمواجه كالجبال، والسفينة تجري بأصحابها في ذلك السيل الجارف، ترعاها عين الله.

وكان ابن نوح قد انتحى جانباً، فناداه أبوه ليركب معهم في السفينة، فأبى، ظناً منه أنه ينجو من الفرق بارتقاء قمة جبل هناك، فردّ عليه أبوه بقوله: ﴿لَا حَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، فلم يستجب له، ففرق بيؤسه وشقائه مع سائر الكافرين.

ثم غاض الماء وانحسر عن وجه الأرض، واستقرت السفينة على الجودي، و﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾.

وبذلك طهرت الأرض من الوثنيين والوثنيين، والمترفين والمتكبرين العتاة.

نكات وعبر

قد سردنا لك قصة نوح مع قومه على ضوء الآيات الكريمة معرضين عما جاء حولها من القصص والحكايات التي ربما لا تنسجم مع القرآن الكريم والعقل الحصيف، بقي الكلام في الوقفات التي يستفاد منها تعليمياً وتربوياً، والعبر التي يمكن استلالها من خلال تدبر الآيات:

١. يظهر من كلام كثير من المفسرين أن نوحاً عليه السلام هو أول مرسل بشريعة شاملة لكل المجتمع البشري، وقد بُعث ومعه كتاب (سُمي بصحيفة النور)، وهو أول الكتب السماوية المشتملة على شريعة. ومما استدلووا به على ذلك، قوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُ اللَّهِ يُجْتَنِبِي إِلَهُه مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَهُهُ مَنْ يُنِيبُ﴾^(١).

قال العلامة الطباطبائي عند تفسيره لهذه الآية: إن المراد مما وصى به نوحاً، شريعة نوح عليه السلام، وإن شريعته كانت محدودة بما هو الأهم من العقائد والأعمال، ولذا عبّر عنها بالتوصية دون الإيحاء ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الذي اختصت به شريعة محمد عليه السلام لكونها جامعة لكل ما جل ودق، محتوية على

الأهم وغيره. (١)

وقال أيضاً: إن الآية في مقام الامتتان على محمد ﷺ وهذا يقضي بأن الشرائع الإلهية المنزلة على البشر هي هذه التي ذكرت لا غير، وأول ما ذكر من الشرائع، شريعة نوح. (٢)

ومما يعزز ذلك، ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (٣) حيث جاء في كثير من التفاسير أن المراد بأولي العزم: من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدم من الأنبياء، وهم خمسة: أولهم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم خاتم الرسل محمد ﷺ. وهو المروي عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام. (٤)

روى سماعة بن مهران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عزوجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ﴾ فقال: «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم»، قلت: كيف صاروا أولي العزم؟ قال: «لأن نوحاً بعث بكتاب وشريعة، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه، حتى جاء إبراهيم عليه السلام بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح لا كفراً به فكلُّ نبي جاء بعد إبراهيم عليه السلام أخذ بشريعة إبراهيم ومنهاجه وبالصحف حتى جاء موسى بالتوراة وشريعته ومنهاجه، وبعزيمة ترك الصحف وكلُّ نبي جاء بعد

١. انظر الميزان: ٢٨ / ١٨. ولكن الظاهر أن المراد من «ما وصى به نوحاً» هو قوله: «أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه» وكأنه بدل من الموصول في «ما وصى به نوحاً» ولعله - رضوان الله عليه - أراد بالشريعة ما ذكرناه.

٢. الميزان: ١٠ / ٢٦٣.

٣. الأحقاف: ٣٥.

٤. التبيان: ٩ / ٢٨٧؛ مجمع البيان: ٥ / ٩٤ (طبعة صيدا)؛ تفسير البيضاوي: ٢ / ٣٩٨.

موسى ﷺ أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه، حتى جاء المسيح ﷺ بالإنجيل؛ وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهاجه، فكلُّ نبيٍّ جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه، حتى جاء محمد ﷺ فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه فحلاله حلالٌ إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فهؤلاء أولوا العزم من الرسل ﷺ. (١)

٢. قد اشتهر بين المفسرين وغيرهم أن رسالات أولي العزم من الرسل (وأولهم نوح)، كانت عالمية. ولعل ظاهر رواية سماعه بن مهران يؤيد هذا الرأي، حيث عطف رسالة نبينا محمد ﷺ على رسالاتهم، ولا شك أن رسالة النبي الأكرم ﷺ عالمية أولاً وخاتمة للرسالات ثانياً. فتكون رسالة من تقدمه عالمية مثلها.

لكن الظاهر من بعض الآيات أنه بعث إلى قومه، يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (٢)، وقال سبحانه مخاطباً نوحاً: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ (٣)؛ وإرساله إلى قومه وإن كان لا ينافي إرساله إلى غيرهم، لكن الاقتصار على القوم دون أن يكون فيه خصوصية قد يدل على حصر رسالته بهداية قومه.

ومع ذلك يمكن أن يقال: إنه لم يكن في الأرض - حين بعث نوح - غير قومه وعشيرته، وعندئذ تكون رسالته عالمية بهذا المعنى. وقد تقدم الحديث عن ذلك في مبحث (هل كان الطوفان عالمياً؟).

٣. إلغاء الامتيازات الناجمة عن التقديس الزائف للثروة والجاه، وخلق

١. الكافي: ٢/١٧-١٨.

٢. نوح: ١.

٣. هود: ٣٦.

تصوّر جديد قائم على اعتبار الإيمان و التقوى ملاكاً للفضل و الفضيلة،
وتجسيده في الواقع باحتضان النبي نوح عليه السلام للمؤمنين المستضعفين والمحرومين
والدفاع عنهم أمام دعوات المترفين الطغاة لطردهم وإبعادهم:

ما الفقرُ عارٌ وإن كشفتَ عَوْرَتَهُ وإنما العارُ مالٌ غيرُ محمودٍ^(١)

٤. إن حياة النبي نوح على امتدادها كانت حياة حافلة بالجهاد والكفاح
الدائمين، وقد واجه كلَّ عناد قومه وجهلهم وتمردهم وسماجتهم بصبر عجيب،
وعزم راسخ، واستقامة لا تعرف الزيف والانحراف.

وتعتبر حياته عليه السلام دروساً بليغة في الإيمان بالله والتسليم له والثبات والمضي
على الحق، حريّ بالعاملين من أجل تحقيق القيم والمبادئ الإلهية، أن يستذكروها
كلما ألمّ بهم ضعف أو ملل أو تعب من أهوال الطريق وشدائده.

٥. إن انتهاء فرص الخير واستثمار ما أُتيح من النعم وورود ينابيع الخير، هي
ضمانة الفوز والنجاة وسلامة المسيرة، وإن الركون إلى النفس، والانسياق وراء
أهوائها يؤدي بها ويوردها موارد الهلكة.

ألا ترى ابن نوح مع قربه من منهل الخير ومصدر النور، قد زلَّ وهلك، لما
غفل عنهما، فلم يُصدر عن ذلك، ولم يستضيء بهذا:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره إذا استوت عند الأنوار والظلم^(٢)

٦. إن زمام القوى المادية كلها بيد الله جلَّت قدرته، وهي سرعان ما تنهار إذا
شاءت إرادته، فلا تنفع من يعتصم بها. وليس هذا دعوةً إلى رفض الأسباب

١. البيت للشريف الرضي.

٢. البيت للمتني.

الطبيعية وعدم الأخذ بها، بل دعوة إلى التمسك بها مع الإيمان بأنها غير مستقلة بذاتها، بل خاضعة لإرادة الله وتعمل بمشيئته، ولذا خاب ظن ابن نوح في النجاة من الهلاك بارتقاء جبل من الجبال، لأن الله قضى بأن يقطع الأسباب جميعاً، غير سبب واحد (الفلك)، وأن لا يعصم إلا من يعتصم به.

٧. إن الإصلاح والتغيير على نوعين تدريجي وجذري، ولكل منهما مجال خاص، فإذا ظهر الفساد في بعض جوانب المجتمع بشكل جزئي وكانت الأركان سالمة عن ديب الفساد، فالاصلاحات الجزئية التدريجية أفضل أسلوب لإصلاح هذا المجتمع.

وأما إذا دب الفساد في أركان المجتمع وانتشر فيه بصورة واسعة فالاصلاحات الجزئية دواء لا ينتج إلا الداء، فهذا المجتمع لا يصلح إلا بالتغيير الجذري الشامل. فإذا لم يوجد في المجتمع إلا الفساد ولم يكن هناك أي مناد للإصلاح فأخر الدواء الكمي، ولا يصلح إلا بإهلاكهم وإبادتهم. وهذا هو نظير مجتمع نوح فقد طهر الله هذه الأرض من هذه العناصر الفاسدة التي لا تلد إلا الكفر والفجور، وهذه هي سيرة الله سبحانه الماضية في الأقوام التي تلتهم.

٨. إن مرافقة المؤمنين وصحبة الأولياء إنما يظهر أثرها إذا صادفت قلباً زاكياً، وأما إذا اسود القلب وانسدت نوافذه، فالصحبة لا تلد إلا وزراً ووبالاً، كما هو الحال في امرأة نوح التي لم تنفعها مصاحبة زوجها ليلاً ونهاراً في مسكنه ومضجعه.

٩. قد يبلغ التحجر والجمود بالإنسان إلى درجة يرفض معها كل مناقشة وحوار، ويُغلق نوافذ عقله أمام كل منطق وحقّة وبرهان، فلا يقبل إلا ما يمليه عليه تفكيره واعتقاده، وإن كان نتاج جهل وهوى وغرور. (البصير من سمع

فتفكر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعبر، ثم سلك جديداً واضحاً يتجنب فيه الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي^(١).

١٠. إن القرآن الكريم قد عرض من قصة نوح (كما هو الشأن في سائر القصص) ما هو موضع العبرة والعظة والفائدة مع مراعاة مقام النبي وسموه وعظمته انسجاماً مع دعوة القرآن إلى إعلاء شأن القيم والفضائل وأصحابها، على خلاف التوراة المتداولة التي أساءت لساحته المقدسة، استجابة لنزعة الحقد لدى اليهود وسعيهم إلى تحقير الإنسان وإهدار كرامته ونشر الفساد في الأرض.

ومآ جاء في التوراة على سبيل المثال: وابتدأ نوح فلاحاً وغرس كرماً، وشرب من الخمر فسكر، وتعزى في خبائه، فأبصر حام....^(٢)

وثمة أمور في قصة نوح خالف القرآن فيها التوراة التي تحدثت مثلاً عن نجاة امرأة نوح، ولم تتطرق إلى قصة ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة، فكان من المغرقين.

والحق أن هذا الاختلاف يعد من الأدلة على صدق النبي وارتباطه بالغيب ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾^(٣)، إذ لم تكن هذه المعلومات متداولة بين أبناء عصره، كما أنها تثبت صدق القرآن وهيمته على سائر الكتب السماوية ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمِناً عَلَيْهِ فَآخِظْ بِهِمُ بِنَاءِ اللَّهِ﴾^(٤).

١. نهج البلاغة: ٢١٣، الخطبة ١٥٣. والمغاوي: جمع مغواه، وهي الشبهة يذهب معها الإنسان إلى ما يخالف الحق.

٢. الإصحاح التاسع من سفر التكوين.

٣. المائدة: ٤٨.

٤. هود: ٤٩.

هود

مبعوث قوم عاد

لقد شاءت إرادته سبحانه أن تسمر خلافة الإنسان في الأرض بعد أن أهلك قوم نوح بذنوبهم، إذ أنشأ من بعدهم أمماً، كما وعد نوحاً بقوله: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْعِمُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فكان قوم عاد (وهم من ذرية نوح) من الأمم التي أخبر سبحانه أنهم يُمتعون ثم يُعذبون بسبب طغيانهم، وقد بعث الله إليهم هوداً لأجل هدايتهم وتذكيرهم: ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١).

كما أنه سبحانه بعث صالحاً بعد هود إلى قوم ثمود (وهم من ذرية نوح أيضاً): ﴿وَالِىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ (٢).

١. الأعراف: ٦٥.

٢. الأعراف: ٧٣.

فمسير القومين بداية ونهاية واحد.

أما نسب هود فيذكر المؤرخون^(١) أنه ينتهي إلى نوح بالنسب التالي: هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. والعجب أن قصة قوم هود لم تذكر إلا في القرآن الكريم، ولم نجد لها أثراً في التوراة وغيرها.

كان قوم هود يسكنون الأحقاف: ﴿وَأذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.^(٢)

والأحقاف - كما يذكر عبد الوهاب النجار - تقع في شمال حضرموت، وفي شمال الربع الخالي، وفي شرقها عمان، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس بعد ذلك العمران والنعيم المقيم، ولم يتعرض أحد من الأوربيين الباحثين والمنقبين إلى الكشف عن بلادهم والتنقيب في أرضهم، ولعل تحت الرمال من الثروة العلمية ما لو كشف لكان عظيم القيمة في عالم الآثار وأبان عن مدينة عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان، وقد أخبرني السيد عبد الله بن أحمد بن عمر بن يحيى العلوي من أهل حضرموت أنه قام في جماعة إلى إحدى المدن البائدة في شمال حضرموت ونقب فيها وعثر على بعض الأنية من المرمر عليها كتابة بالخط المسماري؛ ثم ترك التنقيب لمضايقة البدو له وإثقال كاهله بالمطالب المالية.^(٣)

١. تاريخ يعقوب، تاريخ ابن واضح الأخباري، ط النجف الأشرف.

٢. الأحقاف: ٢١.

٣. قصص الأنبياء: ٥١.

وقد ذكر القرآن الكريم اسم النبي هود سبع مرات،^(١) واسم الذين بُعث إليهم - قوم عاد - أربعاً وعشرين مرة.^(٢)

أهمّ المحاور في حياة النبي هود عليه السلام

١. خصائص قوم هود.
٢. مضمون دعوته ومنهجها.
٣. حوار مع قومه، وردّ التهم الموجهة إليه.
٤. التهديد بالعذاب.
٥. وقوع العذاب، وهلاك قومه.
٦. الدروس والعبر.

١

خصائص قوم هود

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾.^(٣)
 ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي
 الْبِلَادِ﴾.^(٤)

١. انظر: الأعراف: ٦٥؛ هود: ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٨٩؛ الشعراء: ١٢٤.
٢. انظر: الأعراف: ٤٥-٧٦؛ التوبة: ٧٠؛ هود: ٥٠-٦٠ و ٨٩؛ إبراهيم: ٩؛ الحج: ٤٢؛ الفرقان: ٣٨؛ الشعراء: ١٢٣ و ١٢٤؛ العنكبوت: ٣٨؛ ص: ١٢؛ غافر: ٣١؛ فصلت: ١٣ و ١٥؛ الأحقاف: ٢١؛ ق: ١٣؛ الذاريات: ٤١؛ القمر: ١٨؛ النجم: ٥٠؛ الحاقة: ٤؛ الفجر: ٦.
٣. الأعراف: ٦٩.
٤. الفجر: ٦-٨.

﴿أَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. (١)

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيِّنَ * وَجَنَاتٍ وَهَيْبُونَ﴾. (٢)

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي مَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾. (٣)

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾. (٤)

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ

قُوَّةً﴾. (٥)

ذكر القصاصون^(٦) عن قوم هود أخباراً أشبه بالأساطير ورؤي أكثرها عن كعب الأحبار ووهب بن منبه الأبنائوي الصنعاني (٣٤ - ١١٤ هـ) المعروفين برواية الإسرائيليات^(٧)، ولا محيص للمحقق إلا الاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم مما يرجع إلى حياتهم.

يقول العلامة الطباطبائي: وقد انقطعت أخبار قوم هود وانمحت آثارهم فلا سبيل إلى الحصول على تفصيل حالهم على نحو تطمئن إليه النفس إلا ما قصه القرآن الكريم من إجمال قصتهم، انهم كانوا بعد قوم نوح، قاطنين بالأحقاف، وكانوا ذوي بسطة في الخلق، أولي قوة وبطش شديد، وكان لهم تقدم ورقتي في المدينة والحضارة، لهم بلاد عامرة وأراضي خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم.^(٨)

١. الشعراء: ١٢٨-١٢٩.

٢. الشعراء: ١٣٣-١٣٤.

٣. الأحقاف: ٢٦.

٤. الشعراء: ١٣٠.

٥. فصلت: ١٥.

٦. انظر مجمع البيان: ٤٨٦/٥.

٧. نقل محمود أبو رية عن الأستاذ محمد رشيد رضا أنه قال: إن شتر رواة هذه الإسرائيليات أو أشدهم تليساً وخداعاً للمسلمين هذان الرجلان (يعني وهب وكعب الأحبار). أضواء على السنة

المحمدية: ١٧٤.

٨. الميزان: ٢٠/٢٨٠.

وستوافيك الآيات التي تؤدي إلى هذه المعاني.

لقد وصف سبحانه قوم هود بصفات عديدة، نشير إليها:

١. البسطة في الخلق

كانوا طوال الأجسام مديدي القامات، أقوياء الأبدان، حتى أن الله سبحانه شبه أجساد موتاهم بأصول نخل بالية نخرة: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(١).

٢. مساكنهم الرفيعة

وصف سبحانه مساكنهم بأنها كانت ذات عماد، يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾. فقوله «إرم» عطف بيان لـ«عاد»، والعماد جمعه عمَد، وهو ما تعتمد عليه الأبنية، وظاهر الآيتين أن إرم كانت مدينة لهم معمورة عديمة النظير ذات قصور عالية وعمد ممددة.^(٢)

وتحدثت آية أخرى عن تلك الأبنية الرفيعة، حيث خاطب النبي هود قومه بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. والريع هو المرتفع من الأرض، والآية العلامة، والعبث الفعل الذي لا غاية له، وكأنهم كانوا يبنون على قلال الجبال وكل مرتفع من الأرض أبنية كالأعلام يتنزهون فيها ويتفاخرون بها من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك، بل لهواً واتباعاً

١. انظر الميزان في تفسير القرآن: ١٧٨ / ٨.

٢. الميزان: ٢٨٠ / ٢٠.

للهوى، وكانوا لا يقتصرون على ذلك بل يعملون الحصون المنيعة والقصور المشيدة شأن من يرجو الخلود في الحياة. كما يشير إليه قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

٣. النعم الوفيرة

كان قوم هود يتمتعون بثروة طائلة وغنى واسع وقوة لا تُرام، ويتنعمون بعيش رغيد وحياة رافهة. فأبطرتهم النعمة، وغرّتهم القوة، وتمادوا في الظلم والفساد، فخاطبهم نبيهم بقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنٍ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(١).

٤. روح الاعتداء والتنكيل

كان قوم هود يفتكون بشدة ويارسون القمع بعنف اغتراراً بقوتهم وسطوتهم، كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

٥. تكبرهم على الباري تعالى

إن القوة التي امتاز بها قوم هود، بعثت فيهم الغرور والخيلاء والاستعلاء، وراحوا يتباهون بها قائلين: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ناسين أو متناسين ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾^(٢). إن الداء العياء أن يزعم الإنسان الضعيف الذي لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا بعثاً ولا نشوراً أنه أقوى موجود في العالم، غافلاً عن أنه مخلوق ضعيف يقتله (الجرثوم) الصغير غير المرثي.

١. الشعراء: ١٣٢-١٣٤.

٢. فصلت: ١٥.

إن النعم الإلهية إذا تيسرت للمؤمن العاقل، انتفع بها، وبذلها في سبيل الخيرات وازداد شكراً للمُنعم وإخلاصاً له، وإذا تيسرت للجاهل العالي طغى بها وبغى وأفسد.

٢

مضمون دعوته ومنهاجها

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾^(١).

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾^(٣).

﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾^(٤).

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٥).

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(٦).

٢. الشعراء: ١٣٥.

١. هود: ٥٠.

٤. الأعراف: ٦٨-٦٩.

٣. الشعراء: ١٢٥.

٦. هود: ٥٢.

٥. هود: ٥١.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾^(٢).

مضمون دعوته

يستفاد من الآيات الماضية أن مضمون دعوته، يتلخص في أمور ثلاثة:

أ. الدعوة إلى عبادة الله وحده والتنزه عن عبادة غيره.

ب. الانذار من عذاب الله يوم القيامة.

ج. الدعوة إلى الإيمان برسالاته والتصديق بأنه رسول من الله وأمين من

جانبه تعالى.

وهذه الأصول الثلاثة التي يناط بها الإيمان تجدها حتى في الرسالة الخاتمة.

ثم إن هوداً جاء بكلمة بليغة ذكر فيها رسالات ربه ووصف نفسه بالنصح

والأمانة وأنذرهم بعذاب من تقدمهم من قوم نوح وقال: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي

وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ

لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، هذا ما يتعلق بالمضمون.

وأما منهج دعوته، فيقوم على الأصول التالية:

أ. عدم طلب الأجر على دعوته

إن سيرة الأنبياء العظام وكل المصلحين، جرت على الإخلاص في الدعوة

١. الأعراف: ٦٩.

٢. هود: ٥٧.

والتبليغ وترفعهم عن طلب الأجر، إيماناً منهم بأهدافهم وتفانيهم من أجلها،
وتعبيراً عن تزمهم عن المطامع والمآرب الشخصية. ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ب. الرجوع إلى الله لغاية زيادة النعم

سبقة إلى هذا الوعد النبي نوح عليه السلام. والنبیان الجليلان صدرا عن ضابطة
كلية، وهي وجود الصلة بين الإيمان والاستغفار وكثرة النعم. قال نوح:
﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾. ^(۱)
وقال هود على غرار ذلك: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾. ^(۲)
وعلى هذا الأساس كان يذكرهم بنعمة الله تبارك وتعالى مرة بعد أخرى:
﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ج. تحذيرهم من مغبة العصيان

انتهج قوم هود ذات الطريق التي سلكها قوم نوح: إعراضاً عن عبادة الله
وإقبالاً على عبادة الأوثان، وصدأً عن سبيل الحق، وبغياً على العباد، فلا محالة إذن
أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح، من العذاب والانتقام.
لقد أنجز عليه السلام ما عليه من المسؤولية، وأوضح لهم نهج الحق، وحذّره من
مخالفته ومن الإمعان في اقتراف المظالم والمآثم، وإن هم أصروا على عنادهم، فليس

۱. نوح: ۱۰-۱۱.

۲. هود: ۵۲.

على الله بعزیز أن یهلكهم ویستخلف غیرهم فی الأرض، كما فعل نظیر ذلك بقوم نوح: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾^(١).

ومنهج دعوته هذا هو عين منهج نوح ومن جاء بعده من الأنبياء، إذ كلهم ينهلون من معين واحد.

٣

حواره مع قومه، ورد التهم الموجهة إليه

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢).

﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ...﴾^(٣).

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ...﴾^(٤).

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾^(٥).

﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٦).

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ

كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٧).

٢. الأعراف: ٦٦.

٤. هود: ٥٤.

٦. فصلت: ١٣.

١. هود: ٥٧.

٣. هود: ٥٣.

٥. الأعراف: ٦٩.

٧. الأعراف: ٧٠.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ
رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾. (١)

﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُورِي
جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾. (٢)

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. (٣)

﴿أَتَجَادِلُونََنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ﴾. (٤)

أدى نبي الله هود عليه السلام رسالته على الوجه الأكمل، وكابد في سبيلها أنواع
المشاق، وتعرض لشتى التهم الكاذبة والاعتراضات الساذجة، شأنه في ذلك شأن
النبي نوح عليه السلام، ولم يسلم منها باقي الأنبياء عليهم السلام، بل واجه قسطاً منها المصلحون
من غير الأنبياء على اختلاف في طريقة عرضها والتعبير عنها.

التهم الملصقة بهود:

١. السفاهة

اتهموه بخفة العقل التي تُقضي إلى خطلٍ ما يدعو إليه من آراء وأفكار.
وكيف لا يرمونه بالسفاهة وهو يخالف الرأي العام، ويضاد ما ألفوه من عبادة

١. الأعراف: ٦٧-٦٨.

٢. هود: ٥٤-٥٥.

٣. هود: ٥٦.

٤. الأعراف: ٧١.

للأوثان ومن تقاليد وثنية، اتبعوا فيها آباءهم؟

إن المقلدين والمتفعين لا يروق لهم الإصلاح والتغيير اللذين ينجصا عليهم العيش في ظل الأوضاع الفاسدة، غافلين أو متغافلين عن أن الرجال الإلهيين لا يكثرثون لزخرف الباطل ولا لكثرة أنصاره.

٢. الكذب

والعجب أنهم كانوا لا يقطعون بكذبه بل يقولون «نظن أنه كاذب»، أي أنهم يلصقون به الكذب على وجه الظنّة، لئلا يؤاخذوا بطلب الدليل، فلو قالوا له: «إنك من الكاذبين» لكان من حق المخالف أن يسأل عن الدليل على ذلك. وأما الظن فهو أمر طارئ على القلب، وربما لا يكون له أساس.

٣. الخبل

كان قوم هود يزعمون أن بعض آلهتهم قد مسّته بضّرٍ لسبه إياها، فصار يهذي بكلام غير معقول ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾. هذه هي التهم التي رموا بها هوداً ﷺ، والتي تدلّ بنفسها على أنهم لم يجدوا في حياته وسلوكه ما يصمونه به، وإلا لطلبوا وزمروا له، وما كلّفوا أنفسهم هذا العناء في خلق مثل هذه التهم.

الاعتراضات الموجهة له

أما الاعتراضات فكانت واهية، لا تعتمد حتى على دليل سطحي فضلاً

عن غيره، وهي:

أ. كونه بشراً

اعترض المترفون المتكبرون من قوم هود وصالح على بشريّة النبي، قائلين: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِهَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾. (١)

وتكرّر هذا القول من المعرضين عن دعوة النبي: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِن أُطِغْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾. (٢)

ومنشأ هذا الاعتراض هو تخيلهم أنّ الرسول يجب أن يكون من جنس أرفع وأعلى، ولا يحصل هذا إلا إذا كان ملكاً لا بشراً يأكل ويشرب ويلبس مثلهم. ولكنهم غفلوا عن نكتة مؤثرة في أمر التبليغ وهي أنّ الرسول الذي يُبعث من نفس جنس المرسل إليهم يكون قريباً منهم قادراً على الاتصال بهم، وتفهم حاجاتهم، ومعرفة ميولهم وطبائعهم.

ب. أسطورة الأولين

تصامّ المترفون الطغاة من قوم هود عن سماع دعوة نبيهم ﷺ إلى توحيد الله سبحانه وطاعته، وعبروا عن هذا التمرد بقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَّعْتَنَا أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاظِعِينَ﴾، ثم قالوا إن سجيّتك في الدعوة سجيّة الماضين من أصحاب الأساطير والخرافات: ﴿إِن هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾. (٣)

١. فصلت: ١٣.

٢. المؤمنون: ٣٣-٣٤.

٣. الشعراء: ١٣٧. قال السيد الطباطبائي في تفسير هذه الآية: ويمكن أن تكون الإشارة بهذا إلى ما هم فيه من الشرك وعبادة الألهة من دون الله ابتداءً بأبائهم الأولين كقولهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

ج. أين البيّنة؟

لقد بلغ قوم هود من اللجاج والعناد، والكذب في سَوق اعتراضاتهم أن ادّعوا أن نبيّهم لم يأت بحجة واضحة ودلالة كافية على صحة ما يدعو إليه: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، ولكن السرّ في هذا الكذب قد بانَ بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾، إذ كيف يستجيبون لما يخالف أهواءهم الفاسدة وعقولهم المتحجرة؟ وهل تستطيع الخنازير إلا العيش في الأوساخ:

فنعيم الحَمَامِ خوض أثيرٍ ونعيم الخنزير في الأدران^(١)
إلى هنا تعرفنا على تهم القوم واعتراضاتهم، فهلّمّ معي ندرس كيف واجه النبي هود هذه التهم والاعتراضات حتى أسكتهم وأفحمهم.

أما الاتهام بالسفاهة والكذب فأجاب عنهما بقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

ففي قوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ردّ لكلا الاعتراضين وهو أنه ناصح، وليس بسفيه، أمين وليس بكاذب.

ولو أنّ النبي هوداً طلب من حكماء عصره أن يختبروه ويشهدوا بسلامته من الجنون والسفاهة، لعدّ ذلك منه اعتناءً بتهمتهم، ولكن الرسول الذي يريد هداية قومه يجب أن يكون ذا صدر رحب واسع وأن لا يهتمّ بالاعتراضات إلا بشكل عابر.

ثم إنّ من مميزات أنبياء الله ورسله هو الكفاح وتحدي الأعداء والشجاعة في

١. البيت للشاعر الكبير بولس سلامة، وهو أحد أبيات ملحمة الخالدة في أهل البيت عليهم السلام.

أمر التبليغ دون تسرب الخوف إلى قلوبهم، وهذا ما نشاهده في موقف نبي الله هود من طغاة قومه، معلناً براءته من آلهتهم التي زعموا أنها مسته بسوء أفقده عقله، وخاطبهم بأنه لا يخشى أذاهم ومكرهم بالرغم من جبروتهم وشدة بطشهم، وتحذاهم أن يجروا على قتله، قال سبحانه حاكياً هذا الموقف الشجاع والحالة الروحية السامية: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

يقول الزجاج: وهذا من أعظم آيات الأنبياء أن يكون الرسول وحده وأُمَّته متعاونة عليه فيقول لهم: ﴿كِيدُونِي﴾ فلا يستطيع واحد منهم ضره. وكذلك قال نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾. (١)

ومثل هذا القول لا يصدر إلا عمّن هو واثق بنصر الله وبأنه يحفظه منهم ويعصمه من أذاهم.

ومما نلفت إليه نظر القارئ أن المنطق الذي اعتمد عليه الرسولان: نوح وهود، هو بذاته منطق نبينا محمد ﷺ حيث قال: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾. (٢)

١. يونس: ٧١.

٢. الأعراف: ١٩٥.

التهديد بالعذاب

﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾^(١)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾^(٢)

﴿فَاتِنَّا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾^(٣)

﴿رَبِّ انصُرِي بِمَا كَذَّبُون﴾^(٤)

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾^(٥)

جرت سنة الله سبحانه على أن يُوصل الإنسان إلى الكمال الذي خلق لأجله، فمادام هو في ذلك المسير بل مادام هناك بصيص من الرجاء لوصوله إلى

٢ . هود: ٥٧ .

٤ . المؤمنون: ٣٩ .

١ . الأعراف: ٧١ .

٣ . الأحقاف: ٢٢-٢٣ .

٥ . المؤمنون: ٤٠ .

الغاية، فالقوى الظاهرية والباطنية تكون معينة له. وعلى العكس من ذلك فلو أنّ الإنسان ابتعد عن هذا المسير ولم يكن هناك رجاء لكماله فيعمّه العذاب ويختم حياته من أصلها.

وقد اتّبع هود تلك السنّة، حيث استمرّ في دعوة قومه إلى التوحيد والهدى إلى أن يئس من استجابتهم وانصياهم للحق – إلا قليلاً منهم – وعند ذاك هدّدهم بنزول العذاب كما هو لائح من الآيات المتقدمة، التي تحدثت عن استحقاتهم للرجس (العذاب) لشدة إنكارهم للحق ومجادلتهم بالباطل.

ومع هذه الإنذارات المتكررة التي تؤثر في أغلب الناس، ولكن قوم هود لم يعيروا لها أدنى اهتمام، ولم يبالوا وعيده، وخاطبوه بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾^(١).

إنّ هذا التحدي والتكذيب لم يُخرج هوداً عن سمّة النبي الكريم، ولم يقعه عن بيان هذه الحقيقة وهي أنه ليس سوى رسول، وليس عليه إلا البلاغ، أمّا العذاب فلا يعلم وقت نزوله إلا الله، وهو الذي يقدر المصلحة في تعجيله أو تأجيله.^(٢) ومن هنا وصفهم **عَبَثًا** بالجهل والجهالة، إذ لولا الجهل لما أظهروا مثل هذا التحدي الأرعن، فإنّ احتمال نزوله ولو كان ضعيفاً يوجب عليهم التوقّي والمرونة في الكلام والتدبّر في حقيقة الدعوة.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ هؤلاء قد فقدوا الأهلية في أن يكونوا خلفاء الله في الأرض إذ يجب أن يكون بين الخليفة والمخلف صلة معنوية، والأقوام اللجوجة العنودة التي تستقل العذاب لا تستحق ذلك المنصب، وعند ذلك دعا هود ربه

١. الأحقاف: ٢٢.

٢. انظر: في ظلال القرآن: ١٢/ ٣٦ (الطبعة الأولى).

فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾^(١).

فوفاه الخطاب من الله سبحانه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾^(٢).

فلندرس إجابة دعوة هود وهي، نزول العذاب عليهم وإبادتهم وإهلاكهم.

٥

وقوع العذاب، وهلاك قومه

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُنْمَطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا
اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣).

﴿تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٤).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٥).

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَمَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَانِيَةَ
أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ
بَاقِيَةٍ﴾^(٦).

١ . المؤمنون: ٣٩.

٣ . الأحقاف: ٢٤.

٥ . فصلت: ١٦.

٢ . المؤمنون: ٤٠.

٤ . الأحقاف: ٢٥.

٦ . الحاقة: ٦-٨.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾^(١).
 ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا
 جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾^(٢).
 ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٣).

شاءت إرادته سبحانه أن يُبيد القوم الذين سخروا من نبيهم واتهموه
 واعترضوا عليه بأمر واهية، فأرسل عليهم سحاباً أسود، خيّل للقوم في بادئ
 أمرهم أنه سوف يُمطرهم ويسقي زروعهم، ففرحوا به، لانجباس المطر عنهم -
 كما يبدو - لمدة ليست بالقليلة، ولكنهم جهلوا بحقيقته إذ كان نذير شؤم وعذاب
 مؤلم، إنه ريح عصف تحطم كل شيء تمر به وتدمره تدميراً ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا
 مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٤). ولم ينج من ذلك العذاب إلا هوداً
 وأتباعه المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ
 الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

وكانت الريح عاتية باردة مهلكة، استغرق وقت هبوبها سبع ليالٍ وثمانية
 أيام متتالية، تناثرت بعدها أشلاء القوم على وجه الأرض كأنها أصول نخل بالية،
 طُرحت على الأرض.

وكانت هذه الأيام الثمانية أيام شؤم عليهم، كما قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾.

٢. الذاريات: ٤١-٤٢.

٤. الأحقاف: ٢٥.

١. القمر: ١٩.

٣. فصلت: ١٣.

٥. الأعراف: ٧٢.

وقد أريد من الأيام هنا مع لياليها لما مرّ في قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

فربما تطلق الأيام ويراد بها الأيام مع لياليها.

وعليه، فقد بدأ العذاب نهاراً، وتم قبل ليل اليوم الثامن، فبينهما سبع ليالٍ.

وأما قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾،

فاستمرار النحس كناية عن استمرار العذاب، فاستمر عليهم وفق الآيات السابقة بنحو سبعة ليالٍ وثمانية أيام.

هذا، وقد عبّر القرآن الكريم عن العذاب الذي أهلك عاداً بتعابير مختلفة:

ريح صرصر، والريح العقيم، والصاعقة (راجع ما تقدّم من الآيات الكريمة).

والريح العقيم هي التي لا أثر فيها لخير أو فائدة من تنشئة سحاب أو

تلقيح شجر، ونحو ذلك، بل أضرها الإهلاك والتدمير والإبلاء ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي كالشيء الهالك البالي.

وأما الصاعقة، فهي الصوت الشديد، وقد يُطلق القرآن هذه اللفظة،

ويُريد بها آثارها ومظاهرها، مثل الموت، كقوله تعالى: ﴿وَتُفْعَفُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(١)؛ والعذاب، كقوله: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ

صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ والنار الساقطة من السماء عن برق ورعد، كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ

الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).^(٣)

١. الزمر: ٦٨.

٢. الرعد: ١٣.

٣. انظر: مفردات الراغب: مادة «صعق»؛ والميزان: ٣١٧/١١ و ٣٧٦/١٧.

خلاصة قصة هود عليه السلام

ثمة أمة موعلة في القدم امتلكت أسباب القوة والعزة، فطغت واستكبرت وجحدت بربها، فبعث الله فيهم نبياً منهم. تلك قبيلة (عاد) التي أورثها الله تعالى الأرض من بعد قوم نوح، ونبئهم المرسل إليهم هود عليه السلام.

وكان قوم هود يسكنون الأحقاف (وهي كما يقول أهل الأخبار من أرض اليمن المتصلة بالحجاز)، وكانوا ذوي بسطة في الخلق وثروات طائلة، فاغتروا بقوتهم وكثرة أموالهم، حتى ظنوا وهم في سكرة غرورهم و تكبرهم أنهم خالدون في هذه الدنيا: يبنون القصور الفخمة على الرُّبى لهواً وعبثاً وإسرافاً ورغبة في التباهي ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾، ويسطون على الآخرين بعنف ويسلبون حقوقهم ظلماً وبيعاً ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

شرع هود في أداء رسالته، بدعوتهم إلى التوحيد ونبذ الشرك ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فردوا عليه بعقوبة المقلد الذي حجر على نفسه التفكير ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، فأراد عليه السلام أن يفتح عيونهم على واقع الأوثان، وينبئهم إلى حقيقتها الفارغة، فقال: ﴿أُعْجِدُ لُونِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ولكنهم لم يصرّوا على تقديس عقيدة آبائهم فحسب، وإنما سعوا - من أجل الحد من تأثير كلماته في

النفوس - إلى التأكيد على أن كلماته غير مسؤولة ولا اعتبار لها، لأنها صادرة - في زعمهم - عن رجل مسته بعض آلهتهم بسوء لمهاجته إياها، فأصيب بالهذيان!! ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

واستمروا في الضغط عليه للتأثير سلباً على منزلته الاجتماعية، فاتهموه بالسّفه وخفة العقل والكذب ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

واجه هود عليه السلام عقائد قومه وتقاليدهم واتهاماتهم الظالمة له بوّدٍ وهدوء بعيداً عن التشنج والانفعال، محاولاً إقناعهم بالدليل و البرهان، معلناً أنه ناصح أمين، يسعى لخيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، غير طامع في أموالهم.

ولم يفتأ يذكرهم بالنعم السوابغ، و الآلاء الرّوافغ التي خصهم الله تعالى بها، ويعدّهم بأن تكثر خيراتهم، وتشتد قوتهم إن هم أنابوا إلى ربهم، وسلكوا طريق الهدى والتقوى ولم يزيغوا عنه ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾، ويحذّره في الوقت نفسه من المصير القاتم الذي يلاقونه إذا تمادوا في إعراضهم عن الحق والعدل، وأن الله قادر على أن يستخلف قوماً غيرهم ولا يضرّونه شيئاً.

لم تلق كل هذه المواعظ والنذر آذاناً صاغيةً منهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾.

لقد تبلّدت أفكارهم وتجمّدت مشاعرهم وماتت قلوبهم، فلم ينتفعوا بها ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، ومن هنا طلبوا من نبيّهم - في تحدّ أجوف - أن يأتيهم بالعذاب الذي أوعدهم به ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فأجابهم عليه السلام بلهجة

الصادق الناصح: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

ثم التجأ عليه السلام إلى ربه القوي العزيز بعد أن يشس من إجابتهم لدعوته وانقيادهم للحق مستمداً منه النصر ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فوفاه جواب الرب القدير ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾، وجاء أمره سريعاً حاسماً، جزاءً وفاقاً لاستكبارهم وعتوهم واستعجالهم للعذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّظِرُّنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهكذا عصفت بهم الريح ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ وتركتهم أشلاء متناثرة مجذلة على الأرض، كأنها ﴿أَعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، واستؤصل جميع المترفين الطغاة ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، ونجى الله هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه، ونجاهم من عذاب غليظ.

٦

الدروس والعبر

في قصة هود مع قومه دروس وعبر، نشير إلى جانب منها:

١. المثابرة والتحمل في طريق الدعوة، ومواجهة تكذيب القوم وعنادهم بعزم لا يلين، وثقة بالله لا تتزعزع، ومحاورتهم بمودة وصدق وجرأة في كل ما أثاروا من شبهات، واختلقوا من اتهامات.

٢. الترغيب إلى الإيمان عن طريق التذكير بنعم الله عليهم: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ

الله، وفي الوقت نفسه يُلقت نظرهم إلى العوامل الغيبية وهي أن الإيمان والرجوع إلى الله تعالى يفتح أبواب السماء عليهم، قال ﷺ مخاطباً قومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

وفي هذا أسوة لكل مصلح إلهي، فعليه أن يدخل من بابي التذكير بالنعمة الموجودة، ثم الوعد بالمزيد من النعمة الذي هو رهن الرجوع إلى الله.

٣. الصلابة في الموقف، وعدم التردد والمساومة مع الأعداء في القضايا الهامة التي تتصل بالمبدأ والعقيدة، قال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، والسر في هذا الحزم هو قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، فهل يحس إذن بخوف أو وجل أو يشعر بضعف أو وهن، وهو يثق بالخالق القادر المهيمن كل هذه الثقة، ويطمئن إلى وعده كل هذا الاطمئنان؟ وهذا درس بليغ لكل المصلحين والعاملين في سبيل الله، الذين قد تدفع بهم الضغوط إلى المساومة مع الأعداء، والتراجع عن مواقفهم الأساسية.

وما ذكرنا من خصائص، لا تنحصر بهود ﷺ، بل هي بارزة في حياة كافة الأنبياء، لا سيما النبي الخاتم ﷺ الذي أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. (١)

٤. إن الغنى والثروة والقوة من نعم الله سبحانه، التي يستوجب شكرها استعمالها في ما يرضي الله تعالى، واستثمارها في كل ما يعود على الفرد والمجتمع من خير ونفع ورقي وتقدم.

وقد يُساء استعمال هذه النعمة، باتخاذها وسائل إلى اللهو والعبث،

والاستغلال والاستعلاء على الآخرين واستعبادهم والبطش بهم.
ولا شك في أن مآل من يغتر بها ويستكبر إلى الهلاك والزوال والخسران
المبين.

وصفحات التاريخ - القديم والحديث - مليئة بالشواهد على النهاية
المأساوية للأمم الطاغية (ومنهم قوم هود). قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فاعتبروا بما
أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومثلاته،
واتعظوا بمثاوي خدودهم، ومصارع جنوبهم»^(١).

١. نهج البلاغة: ٢٩٠، الخطبة ١٩٢ (وتسمى القاصعة). والمثلات: العقوبات، ومثاوي جمع مثنوى:
المنزل، والمعنى. مواضع خدودهم من الأرض بعد الموت.

النبي صالح وقوم ثمود

تعلقت مشيئة الله سبحانه بهداية البشر إلى الحياة الروحية بالإضافة إلى حياتهم المادية، وذلك من خلال بعث الأنبياء إليهم، كما شاءت إرادته تعالى أن يصبّ العذاب على الأمم الغابرة ويهلكهم إذا أظهرت الأمارات القطعية أنهم لا يؤمنون بل يستكبرون ويمكرون، كما عرفنا ذلك في دراستنا لحياة قوم نوح، وقوم هود.

ثم ورث قوم ثمود الأرض من بعدهم، وأرسل إليهم نبيهم صالحاً. وهو صَلِحٌ ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن ممن دعوا إلى التوحيد وناهضوا الشرك، ذكره تعالى بعد نوح وهود.

وقد ذكرت قصة ثمود في القرآن الكريم في السور التالية: الأعراف، هود، الحجر، الشعراء، النمل، فصلت، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، الشمس، وورد اسم صالح فيها تسع مرات.^(١)

تعرفت سابقاً على نسب النبي هود عليه السلام وأما نسب صالح فهو من ولد ثمود أي ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. ولعل بين صالح وثمود وسائط كثيرة، لأن نسب هود يتصل بنوح بسبع وسائط، فلو كان صالحاً من أحفاد ثمود بلا واسطة لكانت الوسائط أقل من هود، لأنه يتصل به بأربع وسائط، فيكون أقرب إلى نوح مع أنه متأخر عنه^(١).

وأما ابن كثير فقد ذكر نسبه كالتالي: صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود.^(٢)

ويظهر مما ينقله سبحانه عن النبي موسى عليه السلام أن هاتين الأمتين العربيتين - أعني: عاداً وثمود - قد بادتا وانقطعت أخبارهما ولم يبق في أيدي الناس إلا شيئاً قليلاً من أخبارهم، يقول سبحانه على لسان موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾.^(٣)

أهم المحاور في دعوة صالح عليه السلام

١. خصائص قوم صالح عليه السلام
٢. مضمون رسالته وأسلوب دعوته
٣. حوار مع قومه، ورد التهم الموجهة إليه

١. لاحظ نسبه في مجمع البيان: ٢/ ٤٤٠؛ قصص الأنبياء للراوندي: ٩٥.

٢. لاحظ قصص الأنبياء لابن كثير: ١١٥.

٣. إبراهيم: ٨-٩.

٤ . الناقة معجزة صالح ﷺ

٥ . عقر الناقة، ونزول العذاب

٦ . الدروس والعبر

وإليك دراسة هذه المحاور واحداً بعد آخر.

١

خصائص قوم صالح ﷺ

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِ هَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْشَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. (١)

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجِبْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾. (٢)

﴿أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَهَيْوَاتٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾. (٣)

عاش قوم ثمود بعد قوم هود بشهادة قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِ هَادٍ﴾، وكان موطنهم - كما اشتهر بين المفسرين وأهل الأخبار -

١ . الأعراف: ٧٤.

٢ . الحجر: ٨٠-٨٢.

٣ . الشعراء: ١٤٦-١٤٩.

بين الحجاز والشام شمالي وادي القرى، وقال كثير من المفسرين إن (الحجر) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو اسم البلد الذي كانوا فيه. وقيل: كل مكان أحيط بالحجارة يُسمى حجراً. (١)

ويظهر من بعض الآيات أن بلدهم كان غير بعيد عن قريش ومن حولهم، لقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (٢)

فقوله: «تلك» إشارة إلى أمكتهم ولفظ الإشارة (تلك) وإن تستخدم للإشارة إلى البعيد لكن الإشارة تفيد أن بيوتهم كانت مشهودة ولو عن بعد. وكان قوم ثمود يسكنون في طرازين من البيوت: القصور المنيفة، المبنية في السهول، وكانوا يقيمون فيها صيفاً؛ والبيوت المنحوتة في الجبال، وكانوا يقيمون فيها شتاءً.

وكانوا في أمنٍ ورخاء ورغد من العيش، وكانت حياتهم الاقتصادية تقوم بالدرجة الأولى على ازدهار زراعتهم، إذ كانوا ينعمون بحقول زاهية وبساتين غناء ومياه غزيرة: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾.

وبما أن حياتهم كانت مرتبطة بعيون الماء، فربما حصل نزاع بينهم في مقدار الاستفادة منها، كما سيوافيك بيانه.

١. التفسير الكاشف: ٤/٤٨٦.

٢. النمل: ٥٢.

مضمون رسالته وأسلوب دعوته

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. (١)
 ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ... فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْسُوا فِي
 الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. (٢)

﴿وَإِلَى نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ
 أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ
 مُجِيبٌ﴾. (٣)

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * ... وَلَا
 تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾. (٤)

١ . الأعراف: ٧٣.

٢ . الأعراف: ٧٤.

٣ . هود: ٦١.

٤ . الشعراء: ١٤٢-١٤٥، ١٥١-١٥٢.

مضمون دعوته

ابتلي النبي صالح ﷺ بقوم مشركين، يقدسون عقائد الآباء، ويخضعون لزعمائهم المترفين المفسدين، فدعاهم ﷺ إلى عقيدة التوحيد وطاعة الله وتقواه، وإلى تحرير أفكارهم من رَبَق التقليد الأعمى، وتحرير إرادتهم من تسلط الجبابة المسرفين الذين لا يقودونهم إلا إلى الذل والهوان، والفساد و الدماء: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا... وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرَفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(١).

ونداء النبي صالح هذا هو عين هتاف بقية الأنبياء الذين سبقوه والذين جاءوا من بعده، كنوح وهود وإبراهيم ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. وأما أسلوب دعوته فيتلخص في ثلاث نقاط:

١. التذكير بالنعم الإلهية التي تقتضي التوجه إليه سبحانه بالشكر والعبادة والطاعة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ... فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(٢).

٢. النهي عن الانغماس في الملذات ومتابعة المفسدين ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرَفِينَ...﴾.

٣. الإخلاص في الدعوة والذوبان في أهدافها الإلهية، والزهد في المال والرئاسة: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ... * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذا شعار عامة الأنبياء وقد نقله سبحانه في تلك السورة عن غير واحد

منهم.

١. الشعراء: ١٥٠-١٥٢.

٢. هود: ٦١.

حوار صالح مع قومه، وردّ التهم الموجهة إليه

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. (١)

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. (٢)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَلْقَى الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾. (٣)

اتهم صالح كسائر من تقدّمه من الأنبياء بعدد من التهم واعترض عليه باعتراضات تذكر منها:

١ . كونه مسحوراً

اتهموه بأنّ ساحراً سحره وأفسد عقله فصار لا يدري ما يقول، وهو تعبير آخر عن كونه مجنوناً معلولاً. وقد مرّ صالح على هذه التهمة مرور الكرام، لأنّ الإجابة عنها نوع اهتمام بالتهمة.

٢ . النمل: ٤٧.

١ . الشعراء: ١٥٣-١٥٤.

٣ . القمر: ٢٣-٢٥.

٢. كونه بشراً مثلهم

أنكر قوم صالح - كقومي نوح وهود - أن يكون النبي بشراً مثلهم، وكأنهم ينطلقون - في هذه النظرة - من واقع نفسياتهم الخالية من كل الفضائل والسجايا الفاضلة، ولم يتصوروا أن الأنبياء يحملون من الخصائص الكريمة والمواهب الرفيعة ما يجعلهم قادرين على حمل أمانة الرسالة الإلهية والدعوة إليها بكل جدارة.

٣. التطير

لم يشأ المترفون العتاة أن يتعرفوا على الأسباب الحقيقية لما يقع من أمور، ولم يجدوا - إمعاناً في إعراضهم عن الهدى - أسهل من أن يعلقوا كل ما أصابهم من محن وبلايا على شماعة خصومهم: النبي صالح والمؤمنين به. ومن هنا عبروا عن تشاؤمهم منهم ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

ولم يدركوا أن الله الذي تنتهي إليه جميع الأسباب، شاءت حكمته أن يختبر عباده بالخير والشر لتمييز المؤمن من الكافر، ومن يعبد الله على يقين ممن عبده على حرف فإن أصابه شر انقلب على عقبيه.

الناقة معجزة صالح

المعجزة الصارمة القاطعة للعدر التي اشترك بها جميع الأنبياء هي، إتقان الدعوة وانسجامها مع فطرة الإنسان، فإن دين الله هو الدين الفطري الذي لا يشذ عن متطلبات الإنسان وحاجاته، ولو كان بغير هذه الصفة والميزة لكشف ذلك عن صدوره عن غير الله تعالى.

كما أن معجزة كل نبي توافق عصره الخاص والفن الرائج فيه، حتى يكون تحدّيه بها وعجز الناس عن الإتيان بمثلها دليلاً على صدق دعوته لصدورها عن قدرة إلهية لا عن قدرة بشرية.

هذه هي السنة الرائجة في دعوات الأنبياء جميعاً، وقلما يتفق أن تأتي المعجزات على يد الأنبياء حسب طلبات أقوامهم ومقترحاتهم، لأن رغباتهم ومشتهياتهم لا تقف عند حد، ماداموا منقادين لأهوائهم، ومصّرّين على تعنتهم ومكابرتهم.

وربما تقتضي المصلحة إجابة بعض طلباتهم ومن ذلك معجزة صالح عليه السلام حيث طلب منه قومه أن يأتيهم بآية تدلّ على صدق نبوته، فأرسل الله لهم ناقة كمعجزة من المعجزات الخارجة عن القوانين الطبيعية المألوفة. روي أنهم سألوه

أن يخرج لهم من إحدى الصخور - وأشاروا إلى صخرة منفردة - ناقة مخترجة جوفاء وبراء (والمخترجة ما شابه البخت من الإبل) وقالوا: إن فعلت صدقناك وآمنا بك، فسأل صالح الله سبحانه ذلك فانصدعت الصخرة صدعاً كادت عقولهم تطير منه، ثم اضطربت كالمرأة يأخذها الطلق ثم انصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء. (١)

وروي أيضاً أنه ﷺ قال لقومه: رأيتم إن أحببتكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقون بما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم وموآثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا. فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا. (٢)

ومهما يكن، فقد أوحى إليه تعالى بأنه سيرسل الناقة اختباراً لهم لتمييز المطيع من العاصي والطيب من الخبيث: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾. (٣)

وأمرهم نبيهم أن يتركوها وشأنها، ترعى حيث شاءت في أرض الله، وأن يكون الماء مناصفة بينهم وبينها، هم يحضرون يوماً لاستيفاء نصيبهم من الماء، وهي تحضر يوماً، وحذرهم من التعرض لها بأذى، فيعرضوا أنفسهم للانتقام الإلهي الشديد: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (٤)، ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ

١. انظر: مجمع البيان: ٢/٤٤١.

٢. قصص الأنبياء لابن كثير: ١٢٠.

٣. القمر: ٢٧.

٤. الأعراف: ٧٣.

وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١﴾، ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّخْتَصِرٌ ﴿٢﴾.

وأسفر الامتحان والاختبار عن النتيجة التي كان يتوقعها ويمس بها نبيهم ﷺ من خلال التأكيد عليهم بقوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾، إذ أقدم الطغاة على قتلها، وبان بذلك فساد نياتهم، وخبث طوياتهم، وسوء فعالهم.

٥

عقر الناقة ونزول العذاب

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. (٣)

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾. (٤)

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مُكَذِّبٍ * فَلَمَّا

١. الشعراء: ١٥٥.

٢. القمر: ٢٨.

٣. النمل: ٤٨-٥١.

٤. الأعراف: ٧٧-٧٩.

جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ * كَأَن
لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿١﴾ .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . (٢)
﴿ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . (٣)

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . (٤)

﴿ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ . (٥)
﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ . (٦)

تدل الآيات الكريمة السابقة على أن قوم صالح تأمروا عليه بمؤامرتين:
الأولى: التخطيط لقتله على النحو الذي يحكيه سبحانه عنهم، حيث ائتمر
أشراهم فيما بينهم على قتل صالح، وحلفوا بالله على تنفيذ هذه الجريمة بمباغتته
وأهله ليلاً - لكي لا يراهم أحد - وقتلهم جميعاً، فإذا طولبوا بقتله، يجيبونهم بأنهم
لم يقتلوه ولا يدرون من قتله وأهلكه!!

وهذا العزم منهم على القتل سماه سبحانه مكرأ، وقد أبطل الله مكرهم بأن

٢ . الحجر: ٨٣-٨٤ .

٤ . الذاريات: ٤٣-٤٤ .

٦ . الحاقة: ٥ .

١ . هود: ٦٥-٦٨ .

٣ . الشعراء: ١٥٧-١٥٨ .

٥ . القمر: ٢٩-٣١ .

عجل بهلاكهم، وصرف عنه شرهم. روي أنهم قد دخلوا على صالح ليقتلوه فأنزل الله سبحانه الملائكة فرموا كل واحد منهم بحجر حتى قتلوهم وسلم صالح من مكرهم.

وروي أيضاً أن الله أمر صالحاً بالخروج من بينهم واستأصلهم بالعذاب.^(١) وقد سمى تعالى إبطال مكرهم مكرماً من باب المشاكلة ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقد فشلت تلك المؤامرة وخاب القوم في إدراك أمنيته.

وأما المؤامرة الثانية: فهي الإقدام على نحر الناقة، جرأة على الله، واستهانة بآياته وبيئاته، وقد عبروا عن شديد عداوتهم للحق وغوايتهم وغلظتهم بأن طلبوا من نبيهم في تحدٍ صلفٍ أجوف أن يأتيهم بالعذاب الذي توعدهم به ﴿يَا صَالِحُ اثْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

إنها جريمة كبرى أن تُنال بسوء آية الله تتجلى فيها عظمته سبحانه، فتحرم الأمة من خيرها ونفعها. ومن هنا وُصف عاقر الناقة بأنه أشقى الأولين، ووصف من غال الآية الكبرى، ووصي المصطفى بأنه أشقى الآخرين.

روى الثعلبي في تفسيره باسناده مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: يا علي أتدري من أشقى الأولين؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم قال: عاقر الناقة، قال: «أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: قاتلك...».

وفي رواية أخرى قال: «أشقى الآخرين من يخضب هذه من هذه وأشار إلى لحيته ورأسه».^(٢)

١. مجمع البيان: ٤/٢٢٧.

٢. مجمع البيان: ٢/٤٤٣.

هذا، وقد وردت في كيفية عقر الناقة وملابسات هذه الجريمة أخبار عن كعب الأحبار لا ينبغي الركون إليها، ولذا أعرضنا عن ذكرها.

كيفية نزول العذاب

عبر القرآن الكريم عن نوع العذاب الذي هلكت به ثمود بتعابير مختلفة (انظر الآيات المتقدمة)، وهي:

أ. الرجفة، وهي: الاضطراب والاهتزاز الشديد.

ب. الصيحة، وهي: الصوت الشديد.

ج. الطاغية، وهي: الواقعة المجاوزة للحد في الشدة.

د. الصاعقة.

والظاهر أنّ العذاب الذي استأصل الله به ثمود كان صاعقة سماوية، وسائر التعابير وصف لها ولآثارها، لأنّ الصاعقة تقترن عادة بصوت شديد مُدوّ: ﴿الصَّيْحَةُ﴾، ارتجفت من هولها قلوبهم وارتعدت فرائصهم: ﴿الرَّجْفَةُ﴾، أو رافق ذلك اهتزاز في الأرض واضطراب وانهيار فيها، فالتصقوا بالأرض وانكبوا على وجوههم صرعى: ﴿جَائِمِينَ﴾.

والصاعقة كما يعرفها علماء الطبيعة، استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب فيحصل من ذلك البرق الشديد ثم الرعد، بسبب اضطراب الهواء وتدافع أجزائه في كل مكان الاستفراغ، وذلك هو الصيحة.^(١)

قد أعذر من أنذر

ولما رأى صالح مصارع قومه وما حل بهم من العذاب، خاطبهم وهو مُعرض عنهم محملاً إياهم مسؤولية ما حدث، خاطبهم بأنه قد أدى رسالته إليهم كاملة وبذل لهم النصيح، ولكنهم أبوا إلا العناد والشقاق ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾^(١).
لقد جنوا على أنفسهم بطغيانهم ومتابعة أهوائهم فلاقوا مثل هذا العذاب والهوان، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وهذا الخطاب الذي وجهه إليهم صالح عليه السلام يدل على وجود الصلة بين الأحياء والأموات وإلا لكان خطاباً لاغياً صادراً عن وجه غير صحيح.
وقد صدر مثل هذا عن الرسول الأكرم محمد عليه السلام، حيث خاطب عدداً من قتلى قريش بعد إلقاء أجسادهم في القليب^(٢):

«يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» قال (الراوي أبو طلحة الأنصاري): فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»^(٣).

كما روي في هذا الشأن أن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ركب دابته - بعد انتهاء حرب الجمل في البصرة - وصار يتخلل القتلى، حتى مرّ على

١. الأعراف: ٧٩.

٢. القليب: البئر.

٣. صحيح البخاري: ٨/٥، كتاب المغازي، باب غزوة بدر. وانظر: صحيح مسلم: ٨/١٦٣، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

كعب^(١) بن سور فوقف عليه، وهو صريع بين القتلى:

فقال - لمن حوله -: «أَجْلِسُوا كَعْبَ بْنِ سُورِ».

فأجلسوه بين شخصين يمسانه، فقال ﷺ:

«يا كعب بن سُور! قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتَ مَا وَعَدَكَ

رَبُّكَ حَقًّا؟!»

ثم قال: «أَضِجُوهُ».

وسار قليلاً حتى مرّ بطلحة بن عبدالله صريعاً فقال:

«أَجْلِسُوا طَلْحَةَ».

فأجلسوه، فقال ﷺ: «يا طلحة! قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَهَلْ

وَجَدْتَ مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ حَقًّا؟!»

ثم قال: «أَضِجُوهَا طَلْحَةَ».

فقال له رجل:

يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟!»

فقال ﷺ: «يا رجل والله لقد سمعا كلامي، كما سمع أهل القليب كلام

رسول الله». (٢)

١. كعب بن سور: تابعي، ولي قضاء البصرة لعمر ثم لعثمان، وشهد وقعة الجمل مع عائشة، وكان

خطام الجمل في يده. أسد الغابة: ٤/٢٤٢؛ سير أعلام النبلاء: ٣/٥٢٤.

٢. حرب الجمل للشيخ المفيد: ١٩٥.

خلاصة قصة صالح عليه السلام

تعتبر ثمود ﴿أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ من الأمم التي كان لها شأن حضاري وعمراني. أقاموا - كما هو المشهور - بين الحجاز والشام شمالي وادي القرى، ونشأوا بعد (عاد) الذين قصم الله ظهور جبابرتهم وأشياعهم بريح عاتية، لم تُبق منهم باقية.

بعث الله تعالى إليهم نبياً منهم وهو صالح عليه السلام، فذكّرهم بنعمة الاستخلاف هذه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ وبصنوف النعم التي كانوا يعيشون في ظلها راغدين، حيث القصور التي ترقد آمنة في السهول الخضراء، المنتشية بالعيون الجارية، والمزهوة بالنخل الباسق اليانع الثمر، وحيث البيوت التي تركز في الجبال، ينحتونها من صخورها في فرج وبطر ﴿فَارِهِينَ﴾.

ولكنهم - لجهلهم وشفائهم - لم يعتبروا بما أصاب أسلافهم من بأس الله، بل اقتصوا أثرهم في الشرك والترف والاستعلاء، فدعاهم الله إلى نبذ الشرك، وإلى عبادة الله الذي خلقهم من الأرض التي ينعمون بخيراتها، ووهبهم القدرة على إحيائها وإعمارها ﴿يَا قَوْمِ اهْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

كما حذّروهم من الاسترسال مع شهواتهم والإفراط في ملذاتهم، وأنكر عليهم الخضوع والاستسلام لإرادة الزعماء المترفين الذين لا هم لهم إلا إرضاء نزواتهم

ومطامعهم، غير مبالين بالإصلاح وبناء الحياة القويمة ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
الْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

وأعرب ﷺ عن إخلاصه لرسالته، وحرصه على قومه، وبعده عن أية
مصلحة شخصية يستهدفها، بكلماته ومواقفه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، ﴿وَمَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتوبوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾. ولكنهم واجهوا ذلك كله بالرفض والتعنت، وإطلاق
التهم والشبهات، ونسج الافتراءات. فالرسالة السماوية يجب أن تخضع - حسب
تفكيرهم المحدود - إلى مقاييسهم واعتباراتهم، ولذا قالوا: ﴿أَبشراً منا واحداً
تتبعه﴾. إن أتباعنا لصالح - كما يزعمون - هو عين الضلال والجنون ﴿إِنَّا إِذَا لَفِي
ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ لأنه لا يميزه عنا شيء، فهو إذن ﴿كذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ يريد أن يتعاضم
علينا ويطغى، بل هو مسحور يُخَيَّلُ إليه أنه رسول من عند الله.

وحاولوا استدراجه إلى قيمهم الزائفة بأسلوب خبيث ظاهره نصيحة
وباطنه خديعة، ويهدف إلى إغرائه بإعادة التفكير في دعوته التي خسرت - كما
يدعون - ما كانوا يتأملون له من دور نافع لقومه ومكانة لديهم ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ
كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

ثم راحوا يمارسون الضغط على أتباعه المستضعفين لعزلهم عنه ﷺ
وإعادتهم إلى دائرة سيطرتهم ونفوذهم من خلال زرع بذور الشك في نفوسهم
لزلزلة عقيدتهم وإيمانهم بنبيهم ورسالته ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ * إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ
بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

ولما يشوا من نبي صالح عليه السلام وأصحابه عن إيمانهم وعزمهم على المضي في طريقهم اللاب، طلبوا منه أن يأتيهم بأية بينة تؤكد نبوته، ولعلمهم ببغون بذلك - إذا لم يستجب لمقترحهم - تبرير مناهضتهم له وإثارة الرأي العام ضده، ولكنه - بمشيئة الله - وافق على ذلك، فاتاهم بالناقة بطريقة إعجازية، وأمرهم أن لا يصيبوها بأذى، وقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

استهان الرهط المفسدون بهذا الإنذار، وضاقوا ذرعاً بالناقة وصاحبها، فدبروا مؤامرتين: الأولى مباغته صالح وأهله ليلاً وقتلهم جميعاً، والثانية الإقدام على قتل الناقة، فانبعث أشقى القوم فعقرها، فقال عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَهْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، ثم جاء أمر الله ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، فانكبوا على وجوههم خوفاً ورعباً وأصبحوا جثاً هامدة لا حراك فيها، ونجى الله صالحاً والحال والذين آمنوا معه برحمة منه وفضل.

لقد انطوت حياتهم الصاخبة بالظلم والمجون في لحظة واحدة ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ ألا بعداً لهم وسحقاً.

٦

الدروس والعبر

في قصة صالح نكات وعبر نشير إلى بعضها، وللقارئ أن يستخرج ما يعن له منها:

١. إن الأمة التي تسيء التعامل مع الثروات، والقوى والنعم التي تمتلكها،

بأن تطفئ وتتكبر بها على الله وعلى عباده، وتتخذها أداة للفساد والفساد والظلم والاستغلال والقهر للمحرومين واستعبادهم. إن مثل هذه الأمة لا بد أن تتقوض أركانها، وتتزعزع دعائمها، وتؤول إلى الدمار والهلاك.

وتلك كانت رسالة صالح عليه السلام إلى قومه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا... وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ولكنهم لم يستجيبوا لها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

ولا شك في أن استثمار النعم والثروات في البناء والإعمار وتحقيق الأمن والرخاء على أساس من الإيمان والعدل والتعاون والإخاء، يمنح الأمة القوة الحقيقية، ويمدّها بأسباب بقائها واستمرار حضارتها.

٢. إن المترفين الطغاة وأصحاب المنافع، قد يلجأون إلى أسلوب إلقاء بذور الشك والتردد في قلوب المؤمنين لزعة إيمانهم، مستهدفين عرقلة سير تقدمهم في طريق الهدى وتفانيهم في سبيل القيم التي يؤمنون بها والتفافهم حول محور الحق المتمثل في القائد الإلهي ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.^(١)

ولكنّ المؤمن الواعي المطمئن إلى إيمانه، والموقن بصحة طريقه وهدفه، لا تنبت في قلبه مثل هذه البذور، لأنه (من اليقين على مثل ضوء الشمس)^(٢)، كما هو الشأن في أصحاب النبي صالح، الذين عبروا عن إيمانهم بنبيهم بكل جرأة ووضوح قائلين ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.^(٣)

١. الأعراف: ٧٥.

٢. نهج البلاغة: ١١٨، الخطبة ٨٧ (في بيان صفات المتقين...).

٣. الأعراف: ٧٥.

٣. يحاول المستكبرون الضغط على المصلحين والعاملين في سبيل الله بمختلف الأساليب لحملهم على الكف عن أعمالهم الإصلاحية والتراجع عن مسيرتهم الربانية، ومنها هذا الأسلوب الناعم المخادع الذي يظهر الحرص والاهتمام على مستقبلهم، والتأسف على ما يفوتهم من منزلة اجتماعية مرموقة بسبب التزامهم برسالة التغيير والإصلاح ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾^(١) لقد كنا نتطلع إلى أن تقوم بدور إيجابي يعود بالخير على أمتك، لما نعلم ما أنت عليه من مواهب وخصائص متميزة، ولكن خاب رجائنا فيك بدعوتك الجديدة التي لا تمت بصلة إلى أفكارنا وعقائدنا التي ألفناها ونشأنا عليها جيلاً بعد جيل. بيد أن صالحاً عليه السلام لم ينخدع بهذا الأسلوب الذي يحاول أن يرمخ المقاييس الاجتماعية المنحرفة والقيم الزائفة بل صارحهم بأنه واثق بربه، وبصحة دعوته، وسلامة مسيرته، ولا يخشى سوى الزيغ عنها ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَأَنِّي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾^(٢).

٤. إن الموت ليس نهاية الحياة، بل أن حقيقته هي الخروج من دار إلى دار ومن حياة إلى حياة أعلى، ويشهد على ذلك خطاب صالح لقومه الذين صرعوا وأصبحوا جثثاً هامدة، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق.

٥. إن السعادة والشقاء بيد الإنسان، فمن آمن وعمل صالحاً واتقى مخالفة ربه، رافقه السعادة وحالفته النجاة، وأما إذا عصى الله تبارك وتعالى فالشقاء قرينه والعذاب مصيره. وما صُنع قوم صالح إلا بالذنب الذي ارتكبه والمعصية

١. هود: ٦٢.

٢. هود: ٦٣.

التي اقترفوها ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿^(١)

٦. إن القوى الطبيعية وإن كانت تجري وفق قوانين ثابتة، وأسباب منتظمة تنتهي إلى الله تعالى الذي قدرها وأحكم وضعها، إلا أن هذه القوى تبقى مسخرة له منقادة إليه، لا تتخلف عن أمره وإرادته، يسخرها كيف شاء ومتى شاء، فقد يُرسلها رحمة، وقد يرسلها عذاباً، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عمن كتب له السلامة، كما صرفه عن المؤمنين المستضعفين من قوم صالح الذين قضى سبحانه بإنجائهم، وإهلاك الطغاة منهم بصاعقة تركتهم هسياً تذروه الرياح ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(٢)

٧. إن غياب عنصر الرفض في الأمة تجاه الطغاة العتاة الفسقة، والاستسلام لمظالمهم ومآثمهم وجرائمهم، والرضى والقبول بها، إن ذلك يجعلها شريكة لهم في أفعالهم الشنيعة، ويجعل مصيرها كمصيرهم، ونهايتها كنهايتهم التي لا تنفك عن الهلاك والدمار والبوار. قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن:

«أيها الناس، إنما يجمع الناس الرضى والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمتهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى، فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة»^(٣)

١. الشمس: ١٤-١٥.

٢. هود: ٦٦.

٣. نهج البلاغة: ١١٨، الخطبة ٨٧ (في بيان صفات المتقين...).

إبراهيم عليه السلام

بطل التوحيد

إن إبراهيم عليه السلام هو النبي الأعظم الذي أوتي شريعة وكتاباً، وحاز المقامات الثلاثة: النبوة، والرسالة، والإمامة.

وقد ذكر الله سبحانه في كتابه المجيد اسم إبراهيم (٦٩) مرة في خمس وعشرين سورة.^(١)

ولأجل إلقاء الضوء على أبرز مقاصد وأهداف قصة إبراهيم عليه السلام، نقسم

١. البقرة: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٢٦٠؛ آل عمران: ٣٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٨٤، ٩٥، ٩٧؛ النساء: ٥٤، ١٢٥، ١٦٣؛ التوبة: ٧٠، ١١٤؛ هود: ٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦؛ يوسف: ٦ و ٣٨؛ إبراهيم: ٣٦؛ الحجر: ٥١؛ النحل: ١٢٠ و ١٢٣؛ مريم: ٤١، ٤٦، ٥٨؛ الأنبياء: ٥١، ٦٠، ٦٢، ٦٩؛ الحج: ٢٦، ٤٣، ٧٨؛ الشعراء: ٦٩؛ العنكبوت: ١٦ و ٣١؛ الأحزاب: ٧؛ الصافات: ٨٣، ١٠٤، ١٠٩؛ ص: ٤٥؛ الشورى: ١٣؛ الزخرف: ٢٦؛ الذاريات: ٢٤؛ النجم: ٣٧؛ الحديد: ٢٦؛ المتحنة: ٤؛ الأعلى: ١٩.

البحث إلى عدة محاور، أهمها:

١. فضائله ﷺ وسماته ومنزلته الرفيعة.
٢. نشأته ﷺ.
٣. مناظراته وحواراته مع الوثنيين، وعبدة الأجرام السماوية، وملك عصره المدعي للربوبية.
٤. تحطيم الأصنام.
٥. إصدار الحكم بإحراقه ﷺ.
٦. هجرته ﷺ من أرض قومه.
٧. ولادة إسماعيل وإسحاق.
٨. بناء الكعبة.
٩. الابتلاء العظيم.
١٠. طلب إراءة إحياء الموتى.
١١. تنصيبه لمقام الإمامة.
١٢. مناجاته وأدعيته.

فضائل إبراهيم عليه السلام وسماته ومنزلته الرفيعة

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(١)
 ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
 وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)
 ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
 الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٤)
 ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٥)
 ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾^(٦)
 ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى
 ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٧)

٢ . البقرة: ١٣٠-١٣١ .

٤ . الصافات: ٨٤ .

٦ . مريم: ٤١ .

١ . الأنبياء: ٥١ .

٣ . الصافات: ١٠٩-١١١ .

٥ . التوبة: ١١٤ .

٧ . الأحزاب: ٧ .

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾. (١)

﴿وَأذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾. (٢)

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. (٣)

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. (٤)

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِبَاءً وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. (٥)

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. (٦)

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. (٧)

أضفى الله تعالى على إبراهيم (كما في الآيات المتقدمة) أجمل النعوت، وأثنى عليه أزكى الثناء، إذ انطوى عليه على استعدادات فطرية سليمة، ومواهب متميزة، تجلّت في اهتدائه إلى معرفة الله وتوحيده والتفكير في قدرته وعظمته، وقد آتاه الله رُشده لعلمه بما يمتلكه من استعداد وقابلية، فعرف الحق، وأصاب الواقع، وانتهج

٢. ص: ٤٥-٤٦.

٤. الأنعام: ٧٥.

٦. النساء: ١٢٥.

١. الأعلى: ١٨-١٩.

٣. الأنعام: ٨٣.

٥. النحل: ١٢٠-١٢١.

٧. البقرة: ١٢٤.

سبيل الرشاد.

وكان ﷺ مستسلماً لله مُنقاداً له في كل شأن من شؤونه في باطنه وظاهره، في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه، صادقاً كلّ الصدق مع نفسه وفي علاقته مع ربّه، عاملاً بما يرضيه، ونائياً عما يُسخطه، لا يَخْتَلِجُ قلبه بشك أو ريب يعكّر صَفْوَةَ إخلاصه لله، ولا يشيب سلامته شرك أو معصية أو غلٌّ وحقد ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وهو ﷺ من أصحاب القوة على الأعمال الصالحة، والبصيرة في الدين ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ومن الأبرار الذين تمحّضت أنفسهم للعبادة والطاعة فلا يشوبها شيء، ويعملون للأخرة، ويتأهبون لها ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾، وقد أخلص إبراهيم لله تعالى، فاصطفاه للمقامات الرفيعة، ومنّ عليه بالنبوة والرسالة، واتّخذة خليلاً، فهو ﷺ الرسول الثاني من أولي العزم وأصحاب الشرائع الذين أخذ الله منهم ميثاقاً غليظاً، وقد فسّر الميثاق بالعهد الشديد على الوفاء بما حملوا من أعباء الرسالة وتبليغ الشرائع.

ولكن المستفاد من الآية (٨١) من سورة آل عمران أن المراد به وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه، وتصديق كلّ نبي لاحق للنبي السابق، وتنويه السابق باللاحق والدعوة إلى التصديق به ومناصرتة ومؤازرتة ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾^(١).

ويؤيده قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١﴾
 حيث إن قوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ بدل من الموصول في
 قوله: ﴿ مَا وَصَّيْنَا بِهِ نُوحًا ﴾.

وقد رفع الله تعالى درجة إبراهيم بإرشاده إلى الحجج والبراهين التي تغلب
 بها على أعداء الله وأعدائه ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ
 مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢).

كما بلغ ﷺ من الكمال مرتبة استطاع بها أن يرى بعين القلب ملكوت
 السماوات والأرض، وليس الملكوت إلا باطن النظام الكوني وهو تعلقه وقيامه بالله
 سبحانه، كما أن الإنسان يرى بعين الشهود تعلق الصور الذهنية بنفسه، وأنه لو
 ذهل عنها لحظة لزال الصور عن مواضعها، وما فعله سبحانه إلا ليكون من
 الموقنين أي يضم الإيمان الفطري والاستدلالي على تعلق النظام وقيامه بالله
 سبحانه، إلى شهوده وعرفانه ورؤيته القلبية. وهذا من المراتب العالية التي يصل
 إليها السالك بعد طيه منازل كثيرة.

ومن هنا كان ﷺ يمثل بمفرده أمة من الأمم (كما وصفه سبحانه) بما اجتمع
 فيه من عناصر الخير والقوة والسمو والقيم والمعاني السامية، التي تجلت من
 خلال سلسلة من الابتلاءات والاختبارات التي تعرض لها في حياته، والجهود
 والتضحيات التي قدمها في طريق دعوته إلى التوحيد، وهداية الناس وإرشادهم،
 والتي استحق بها مقام الإمامة الرفيع ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾.

١. الشورى: ١٣.

٢. الأنعام: ٨٣.

نشأة إبراهيم ﷺ

سوف ندرس حياة إبراهيم ﷺ في موطنه أولاً وفي مهجره ثانياً، فقد ولد ونشأ ﷺ (كما يقول المؤرخون والمفسرون)^(١) في أرض بابل بين دجلة والفرات، ثم هاجر كما يقولون أيضاً إلى فلسطين، وسوف نجعل لكلٍ منهما فصلاً خاصاً به.

حياته في بابل

تدل الآيات القرآنية على أنّ مناظرات إبراهيم وحواراته مع قومه دارت في أربعة مواقف، كما أنه ﷺ أقدم - خلال ذلك - على عمل جريء أثار غضب قومه الذين عقدوا له محكمة علنية، حكمت عليه بالموت حرقاً بالنار، ولكن الله سبحانه أنجاه منها. وبعد ذلك هاجر إلى فلسطين وألقى عصاه هناك.

أمّا مناظراته في بابل فهي كالتالي:

أ. مناظرته مع آزر.

١. ويؤيد قولهم هذا، ما اكتشفه علماء الآثار من الواح، كُتبت عليها معتقدات أهل بابل في ذلك العصر. انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم: ١١٥.

ب. مناظرته مع عبدة الأجرام السماوية.

ج. مناظرته مع عبدة الأصنام والأوثان.

د. مناظرته مع ملك بابل.

وأما الحوادث المهمة أثناء حياته فيها، فهي:

١. تحطيم الأصنام.

٢. رد فعل الوثنيين على تحطيم الأصنام.

٣. محاكمة إبراهيم.

وهذه المحاور السبعة يذكرها القرآن الكريم في سور مختلفة، وسنجمع

آيات كل موضوع في مكان واحد، ثم ندرسها وفق منهج التفسير الموضوعي.

٣

مناظرات إبراهيم وحواراته

أ. مناظرته مع آزر

إنَّ مناظرة إبراهيم عليه السلام - وهو فتى يافع - مع أبيه آزر^(١) - وهو كبير الأسرة - تعد من أطف المناظرات، لأنها جاءت في إطار خاص، استلزم أسلوباً في الحوار ينسجم مع الرسالة الإلهية من جهة ومع العلاقة الأسرية والارتباط العاطفي من جهة أخرى. وإليك الآيات الواردة في هذا الشأن:

١. اختلفت الكلمة حول آزر، هل هو أبو إبراهيم الحقيقي، أو عمه أو جده لأمه، وسنبحث هذا الموضوع لاحقاً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ﴾. (١)

﴿وَإِذْ كُذِّرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ

وَلِيًّا﴾. (٢)

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَتَّخِذْ لَأَزِيمَتِكَ وَاهْجُرْنِي

مَلِيًّا﴾. (٣)

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾. (٤)

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ

عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. (٥)

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. (٦)

كانت الوثنية قد غطت بيثة بابل على نحو أن أقرب الناس إلى إبراهيم كان

٢. مريم: ٤١-٤٥.

٤. مريم: ٤٧-٤٨.

٦. المتحنة: ٤.

١. الأنعام: ٧٤.

٣. مريم: ٤٦.

٥. التوبة: ١١٤.

وثنياً ومدافعاً عنها بشدة.

ومن سنن الله تبارك وتعالى أن يخرج داعية التوحيد من وسط أحضان الوثنية، وكان اللازم عليه أن يتدبى دعوته إلى التوحيد من عقر دارهم ومن أقرب الأفراد المنتمين إليه، وهو أبوه آزر.

ناظر إبراهيم أباه آزر في موقفين: الأول بشكل انفرادي، والثاني بحضور قومه المشركين معه. والآيات المتقدمة ناظرة إلى الموقف الأول، إذ لا نرى فيها ذكراً لقومه.

وستوافيك المناظرة في الموقف الثاني فيما بعد.

اعتمد إبراهيم عليه السلام في نقد عمل آزر وإثبات بطلانه على إثارة الفطرة والعقل بقضايا واضحة، تتمثل فيما يلي:

١. إن العبادة لغاية التقرب من المعبود، وهو فرع التفاته إلى عمل العابد وعلمه به، ومن المعلوم أن الأصنام لا تسمع ولا تبصر، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾.

٢. إن سلوك الطريق الصحيح في العبادة للوصول إلى ساحل النجاة، لا يحصل إلا من خلال العلم بهذا الشأن، وقد خصه الله به من دون آزر، ومن هنا كان على آزر أن يتبعه، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾.

٣. إن عبادة الأصنام تعبير آخر عن عبادة الشيطان وإطاعته، فعليك أن لا تعبد الشيطان، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴾.

لقد نهاه عليه السلام عن إطاعة الشيطان في وساوسه لبني آدم، والتي عبر عنها

بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. (١)

فلاستجابة لوساوس الشيطان التي تتجسد هنا بعبادة الأصنام، إنما هي في النتيجة طاعة للشيطان وعبادة له.

وبهذا يفسر قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَهْدِكُمْ سَبِيلًا يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. (٢)

٤. إن إبراهيم يخوف آزر من أن يمسه عذاب الرحمن بعدما تبين له الحق، وإن الله هو المستحق للعبادة، وإن عبادة غيره طاعة للشيطان ودخول في ولايته وخروج عن ولاية الله، وهذا هو الذي أشار إليه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.

وبهذه البراهين الأربعة ناظر إبراهيم أباه آزر، ولكنه - للأسف - لم يتأثر بكلامه بل أصر على موقفه وهدد إبراهيم بالرجم، وأمره بالابتعاد عنه فترة طويلة: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تُنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾.

أما إبراهيم، فلم يقابل هذا الأسلوب العنيف بمثله، بل واجه الموقف انطلاقاً من مسؤوليته كنبى واع لدوره، فأظهر المرونة والعطف والرفق بأبيه من جهة قائلاً له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، وأبدى من جهة أخرى صراحة في موقفه من الآلهة المزيفة، ومن عبادة الذين خاطبهم بقوله: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

١. الأعراف: ١٧.

٢. يس: ٦٠.

وقفه في وعد إبراهيم لأزر

كان إبراهيم غير آيس من هداية أبيه أزر إلى الإيمان، وقبوله لدعوة التوحيد، ولذا وعده بأن يدعو له بالمغفرة، فلما تبين له لجاحه وعناده عن طريق الحق، وإصراره على الشرك، تبرأ منه كما يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَهَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ هَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(١).

فذيل الآية ﴿لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ يكشف عن وجه استغفاره له، فاتصاف إبراهيم بهاتين الصفتين: شدة التضرع إلى الله، والصفح عمن يلحق به الأذى (وما أفسى أذى أبيه له)، هو الذي دعاه إلى أن يستغفر لأبيه، كما أن قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ هَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ يُبنى عن السبب في إعلان براءته منه.

ومع أن إبراهيم استغفر له، ولكن الله لم يستجب دعاءه، وما هذا إلا لأن المورد لم يكن قابلاً للاستجابة، وقد احتمل إبراهيم أن لا تستجاب دعوته، ولذا صرح - عندما وعده بالاستغفار - بأنه لا يملك له من أمر الله شيئاً حتى لا يتصور المخاطب بأن غفران الذنوب مما يملكه الخليل كما قال: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢).

ثم إن المسلمين في صدر الإسلام كانوا يستغفرون لأبائهم المشركين بحجة أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه، فوافقهم الوحي بالمنع عنه.

قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا

١. التوبة: ١١٤.

٢. المتحنة: ٤.

أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾.

وذلك لوجود الفرق بين استغفار المشركين لأبائهم وأقربائهم واستغفار إبراهيم، فإن استغفار الثاني كان في حياة آزر وكان إبراهيم يرجو نجاته وهدايته، وهذا ما يبرر طلب المغفرة له من الله تعالى، بخلاف ما لو مات المشرك وانقطعت الصلة، وعندئذ لا تُرجى منه النجاة، كما مر في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَهَدَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. (٢)

علاقة آزر بإبراهيم

ورد في بعض الآيات وصف آزر بأنه أبو إبراهيم عليه السلام، فهل كان حقيقة أبا إبراهيم مع أن عقيدة الشيعة استقرت على أن آباء الأنبياء وأجدادهم كلهم موحدون؟

يقول الشيخ المفيد: وانفقت الإمامية على أن آباء رسول الله صلى الله عليه وآله من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله عز وجل موحدون له، واحتجوا في ذلك بالقرآن والأخبار. (٣)

وهناك مشكلة أخرى وهي أن اسم أبي إبراهيم في التوراة هو تارخ (تارح) مع أن الوارد في القرآن آزر، فكيف يمكن الجمع بينهما؟

والجواب عن الجميع رهن التمعن في التعبير القرآني حيث إن القرآن وصف آزر بالأب دون الوالد، وهناك فرق بين الأول والثاني، حيث إن الأول يستعمل في

٢. التوبة: ١١٤.

١. التوبة: ١١٣.

٣. أوائل المقالات: ٤٥.

الأعمام والأخوال أيضاً، لأنهم بمنزلة الآباء، يقول سبحانه حاكياً عن أبناء يعقوب: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١). ومن المعلوم أن إسماعيل لم يكن أباً ليعقوب وإنما كان عمه.

نعم إذا لم يكن في الكلام قرينة يكون لفظ الأب ظاهراً في الوالد، غير أن هنا قرينة قاطعة على أن المراد به هو غير الوالد. ذلك أن إبراهيم كان قد تبرأ من أبيه آزر لما تبين له إصراره على شركه وضلاله، قبل أن يهاجر ﷺ من بلاده (أي قبل أن يمتد به العمر)، بينما نجده ﷺ يدعو لوالديه بالمغفرة بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٢) وهو طاعن في السن، حيث جاء دعاؤه هذا في سياق أدعيته التي ابتهل بها إلى الله بعد أن أسكن بعض ذريته بمكة ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ خَيْرٍ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٣).

وإذا علمنا أنه لم يُرزق بولديه إلا في أيام شيخوخته، لقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾^(٤) توصلنا إلى النتيجة التالية، وهي أن الذي دعا له إبراهيم بالمغفرة في زمن شيخوخته، غير من تبرأ منه قبل ذلك، وهذا يدل على أن (آزر) لم يكن والد إبراهيم، وإنما كانت له صلة أخرى به، كان يكون عمه أو جده لأمه.

١. البقرة: ١٣٣.

٢. إبراهيم: ٤١.

٣. إبراهيم: ٣٧.

٤. إبراهيم: ٣٩.

ب. مناظرته مع عبدة الأجرام السماوية

إن مناظرة إبراهيم ﷺ مع عبدة الأجرام السماوية، وعبدة الأصنام الأرضية تشهد بوضوح على أن أهل بابل كان أكثرهم أو جلهم من المشركين، غاية الأمر أن طائفة منهم كانت تعبد الأجرام السماوية، وطائفة تعبد الأصنام الأرضية.

وأما وجه تسرب الوثنية إلى تلك المنطقة فهو رهن البحث عن تاريخ الوثنية في المنطقة ولا يتسع المجال هنا لذلك، غير أن النكتة البارزة في المقام هو أن القوم كانوا يعبدون هذه الأجرام أو الأصنام بما أنها أرباب تملك تدبير العالم من الله سبحانه، فالله هو خالق السماوات والأرض وما فيها ولكن الأجرام السماوية مدبرة لأمر الحياة في الأرض فلذلك يتصورون أن الأجرام تستحق العبادة بما أنهم أرباب مدبرون للأرض وما فيها.

وبتعبير آخر: أن القوم كانوا مؤمنين بتوحيد الذات والخالق، وأن إله العالم وخالقه واحد ليس له ثان، وأنه عالم قادر إلى غير ذلك من الصفات الجمالية، غير أنهم كانوا مشركين في أمر التدبير والربوبية ولذلك نرى أن القرآن يركز على التوحيد في التدبير بعد التوحيد في الخلقة قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾^(١). كما أن إبراهيم يركز على الربوبية، لا الخالقية كما سيوافيك.

إذا عرفت ذلك فلندرس آيات المناظرة وهي كما يلي:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

الموقنين ﴿١﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ

الْأَفْلِينَ ﴿٢﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ

مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٣﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي

بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٤﴾.

﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾.

﴿وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ قَالَ أَنمَحُجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا

أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٦﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ

عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨﴾.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٩﴾. (١)

الأمر المهم هو إيضاح دليل إبراهيم، فهل هو بصدد بيان أن الأجرام

الساوية ليست بأرباب يدبرون الكون كما هو الرأي المنصور عندنا كما مر، أو أنه

بصدد بيان أن هذه الأجرام ليست آلهة بمعنى واجبة الوجود كما عليه الرازي؟ ومنشأ الخلاف هو تحديد مفهوم الرب فهل هو مساو لواجب الوجود، أو أنه بمعنى المدبر وإن كان ممكناً تفويض تدبير الكون إليه؟

وقد أثبتنا في محله أن الرب لا يعادل الخالق ولا واجب الوجود، بل هو بمعنى المدبر فيقال: رب الدار ورب الضيعة ورب البستان ويراد من يدبر أمور هذه الأشياء، وكذا إذا قيل إن الكوكب الفلاني رب أي يدبر بقوته ما وقع تحته وهكذا يُقال في الشمس، وهي وإن كانت في حد ذاتها ممكنة الوجود ولكن الله تبارك وتعالى فوض إليها الأمر، وتخلّى هو عن التدبير. ولذلك نرى أنه سبحانه يذكر الربوبية بعد الخالقية كما مرّ في آية سورة الرعد. هذا ما عندنا ولكن الرازي يقول: إن إبراهيم عليه السلام استدل بأفول الكوكب على أنه لا يجوز أن يكون رباً وخالقاً له.^(١)

ثم يقول: المقام الثاني أن يكون المراد من الرب والإله من يكون خالقاً لنا وموجداً لذواتنا وصفاتنا، فأفول الكواكب يدلّ على أنها عاجزة عن الخلق والإيجاد، وذلك أن أفولها يدلّ على حدوثها، وحدثها يدلّ على افتقارها إلى فاعل قديم قادر، ويجب أن تكون قادرة ذلك القادر أزلية وإلا لافتقرت قدرته إلى قادر آخر ولزم التسلسل، وهو محال فثبت أن قدرته أزلية.^(٢)

ثم إنه أضاف الكلام في ذلك، والظاهر أن كلّ ما ذكره تبعيد للمسافة فلم يكن هناك أحد يزعم كون الأجرام واجبة الوجود وخالقة للعالم، وإنما كان الأمر مركزاً على مدبريتها فيجب أن يكون الأفول دليلاً على عدمه.

١. التفسير الكبير: ١١/٥٢.

٢. نفس المصدر: ٥٣.

والعجب أن الشيخ الطبرسي أيضاً اختار هذا المعنى قبل الرازي حيث قال: استدل إبراهيم بالأقول على أنه محدث مخلوق وكذلك كانت حالته في رؤية القمر والشمس فإنه لما رأى أفولها قطع على حدوثها واستحالة إلهيتهما، وقال في آخر كلامه: يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض.^(١)

والظاهر أن برهانه في إبطال ربوبية الأجرام مبني على الأصل الواضح، وهو أن الإنسان بما أنه ممكن فاقد كل كمال وجمال، وقوة وقدرة، فوجوده حدوثاً وبقاءً رهن الإفاضة المستمرة في عامة الآنات واللحظات. وبما أن المدبّر (الفاعل) موجود جسماني يتوقف تدبيره على حضوره الدائم وعدم غيابه عن المدبّر (المفعول) وإلا ينقطع الفيض عنه وينطفأ نور حياته.

إذ هناك فرق، بين أن يكون المدبّر موجوداً مادياً لا يحيط بموضوع التدبير إلا بحضوره المادي لديه حتى يأخذ المدبّر فيض الحياة منه، فلو افترضنا انقطاع صلته به لأفوله واستتاره امتنعت الإفاضة والاستفاضة، وآل الأمر إلى النفاد والهلاك، وبين أن يكون المدبّر موجوداً غير مادي محيطاً بعالم المادة وما فوقه، فهو بحضوره القيومي وقيام المخلوق به قيام المعنى الحرفي بالاسمي يكون حاضراً وبالتالي مفيضاً ولا يعقل فيه الأفول والغياب.

ونحن نرى بأن أعيننا أن الأجرام السماوية عند طلوعها تشع أنوارها على الإنسان والأرض وما فيها، ولكن عندما تغيب عن الأرض والإنسان يصبح المدبّر بلا مدبّر، والممكن الفاقد للتدبير لا يمكن أن تستمر حياته.

ولكن الباري سبحانه بما أنه لا يحويه مكان دون مكان: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ فلا يُتصوّر فيه عدم الحضور كما لا يتصوّر فيه انقطاع الصلّة، فيستمر التدبير بخلاف الأجرام السماوية فهي بما أنّها حاضرة في وقت دون آخر، تكون مفيضة في وقت دون وقت.

إذا عرفت هذا فلنستعرض برهان الخليل ﷺ:

يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فهل قال هذا جداً أو قاله افتراضاً؟ الصحيح هو الثاني، لأنّ غايته نقض هذا الافتراض. وهذا الأسلوب يتبعه المناظر مع خصمه، إذا رغب في مداراته واجتذابه إلى فكرته، ورغب عن إثارة حفيظته، وسيوافيك توضيحه.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ولعل التعبير عن عدم ربوبية الكوكب لعدم حضوره المستمر مع الأرض ومن فيها بـ ﴿لَا أَحِبُّ﴾ لأجل أن حب المدبّر أمر فطري ذاتي لا يمكن للإنسان إنكاره مادام يرى حياته رهن إفاضاته. فعدم الحب في هذا المجال يعتبر دليلاً على عدم كونه مدبراً.

ثمّ إنّه لما رأى القمر بازغاً افترض فيه مثل ما افترض في الأوّل، وقال هذا ربّي، فلما أفل، أدرك أنّه ليس بربه، إذ كيف يمكن أن يفيض، وكيف يمكن للإنسان أن يستفيض منه مع أنّ الإفاضة قيد الحضور.

وعند ذلك التجأ إلى الرب الواقعي وقال: ﴿لَيْتَنِي لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

فلما انجلى ظلام الليل وانفلق الفجر وطلعت الشمس افترض أمراً ثالثاً وقال - مشيراً إلى الشمس - هذا ربّي، وعلّل ذلك بأنّه أكبر جرماً وأكثر فيضاً، فلما أفلت، وجّه أنظارهم إلى أنّ هذه الأرباب من الكوكب والقمر والشمس أرباب

مزيفة، وعند ذلك توجه بقلبه النوراني إلى الرب الخالق الفاطر للسموات والأرض وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وتتضح رصانة البرهان إذا وقفنا على أن التدبير التكويني لا ينفك عن الخلق وأنه يُغايِر تدبير البستاني لأشجاره، أو الراعي لغنمه، وذلك لأن تدبيرهما تدبير جزئي يكفي فيه الحضور في وقت خاص، فليس للبستاني إلا سقي الأشجار وقطف الثمار في أوقات معينة وتركها بعد ذلك. كما أن وظيفة الراعي ما هي إلا رعي الغنم وعلفها وإيرادها الماء وسوقها إلى الحظيرة مساءً. وهذا بخلاف التدبير التكويني للأرض وما فيها فإن الموجود الإمكان في كل لحظة بحاجة إلى الوجود وما يمدّ به حياته، فالفيض الدائم رهن المفيض الدائم وحضوره المستمر.

ثم إن مجموع الآيات الثلاث يعرب عن أن إبراهيم ناظر قومه بهذه الحجج في ليلة واحدة من طلوع الكوكب إلى طلوع الشمس وطرح كلاً في مقطع خاص، ولذلك يقول: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، كأنه كان يستعد للمناظرة قبيل الغروب فلما جَنَّ عليه الليل وطلع الكوكب قال: هذا ربِّي، وقد أعرض عن ربوبيته وكان على هذه الحالة: ﴿رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً﴾ كما يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ﴾ الظاهر في اتصال المناظرة الثانية بالمناظرة الأولى، فكأنه بزغ القمر بعد أفول الكوكب، وهذا ينطبق على «الزهرة» لأنه يطلع بعد غروب الشمس في ناحية المغرب ويمكث في السماء ساعة أو ساعتين ثم إن أفوله يزامن طلوع القمر، ولذلك ورد في الروايات أن إبراهيم ناظر في موقفه هذا طوائف ثلاث:

روى الصدوق عن الرضا عليه السلام أنه قال: «إن إبراهيم وقع إلى ثلاث

أصناف: صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس وذلك حين خرج من السرب الذي أخفي فيه»^(١)

وقد يشكل على قول إبراهيم هذا ربي في مواقف ثلاثة بأن النبي المعصوم لا يمكن أن يكون مشركاً في بداية حياته ثم يصير موحداً.

ونقول: إن هذا الإشكال ساقط من رأسه فإنه سبحانه تبارك وتعالى يذكر قبل مناظرته قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، وقد مرَّ أن المراد من إراءة الملكوت تعلق الكون بالله سبحانه وهو باطن العالم، فمثل هذا الإنسان الذي شهد تعلق الكون بالله كيف يصحَّ له أن يكون مشركاً في أول الأمر ثم يستهدي شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى التوحيد؟!!

وعلى ضوء ذلك فيحمل قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على المباشرة مع عبدة الأجرام والموافقة الظاهرية المؤقتة حتى يتبين خطأ القوم وبطلان عقيدتهم، فإن من أساليب المناظرة التسليم لمعتقد الخصم مؤقتاً حتى يتبين بطلانه بما يترتب عليه من الفساد، ولو خاصم القوم بنفي ربوبية آلهتهم من أول الأمر، لما تمكن من إقناع القوم ببطلان فرضيتهم.

وهناك جواب آخر يستفاد من الروايات وهو أن تصديق إبراهيم كان مقروناً بالإنكار كما هو المروي عن الرضا عليه السلام حيث قال: «هذا ربي على الإنكار والاستخبار، فلما أفل الكوكب قال: لا أحب الأفلين، لأن الأفول من صفات المحدث لا من صفات القديم»^(٢) وفي كلامه عليه السلام إشارة إلى الوجهين أحدهما: التصديق الإنكاري، والآخر: التصديق الذي يدل عليه قوله: للاستخبار.

ونحن نرى أن الأسلوب الذي سار عليه إبراهيم في حوارهِ مع قومه هو ذات الأسلوب الذي سار عليه النبي ﷺ في خطابه للمشركين من قريش فقال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (١)

عدم رؤية إبراهيم للأجرام السماوية

ثمة رأي يذهب إلى أن احتجاج إبراهيم مع قومه وإشاراتهِ إلى الكوكب والقمر والشمس يعرب عن أنه لم يكن يعرف هذه الأجرام السماوية، وأن هذا الموقف هو أول موقف رآها فيه بشهادة أنه يصف القمر بالبروز والشمس بالكبر، فلو كان معايناً لهذه الأجرام بهذه الصفات عبر حياته لم يصح له أن يصفها بأوصاف أظهر من الأمس وأبين من الشمس، وهذا يُشعر بأنه فوجئ بهذه الأجرام مع هذه الأوصاف.

ويشهد بذلك أيضاً طريقة كلامه مع أزر حيث تشير إلى أنه لم يتعرف بعد على الأصنام ولا على عبادة الناس لها.

قال تعالى: ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا مَّا فَنَظَّلْ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. (٢)

وقال تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾. (٣)

ويؤيد ذلك ما في بعض الروايات من أن أم إبراهيم وضعتَه فهِياتَه وقمطته

١. سبأ: ٢٤.

٢. الشعراء: ٦٩-٧٤.

٣. الأنبياء: ٥٢.

وتركته في الغار ورجعت إلى منزلها وكانت أمه تأتيه، حتى أتى له في الغار ثلاث عشرة سنة، فلما كان بعد ذلك أخرجته من الغار، فدارت المناظرة بينه وبين عبدة الأجرام.^(١)

وقفه مع هذا الرأي

إن ما ذكرنا من الرواية هو خبر واحد لا يصح تفسير الآية به إلا إذا صح السند وأفاد الاطمئنان، مضافاً إلى ما في مضمونها من الغرابة، إذ ورد فيها أن أمه قد وضعتة فهيتته وقمطته ورجعت إلى منزلها وسدت باب الغار بالحجارة فأجرى الله لإبراهيم لبناً من إبهامه فكانت أمه تأتيه، ووكل نمرود بكل امرأة حامل وكان يذبح كل ولد ذكر فهربت أم إبراهيم بإبراهيم من الذبح وكان يشب إبراهيم في الغار يوماً كما يشب غيره في الشهر حتى أتى له في الغار ثلاث عشرة سنة إلى آخر ما جاء في الرواية.

ومما يؤيد صلته بمجتمعه وعدم نأيه عن الحياة العامة، مناظرته مع قومه ومع آزر، فقد خاطب أباه آزر بشكل يدل على وجود الصلة بينه وبين آزر مدة مديدة وانها عاشا متعارفين كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

فإن كيفية المناظرة تدل على وجود التعارف بينهما قبل هذا، والإنسان الغريب لا يتكلم مع من لم يره بهذا الأسلوب.

ورب سائل يسأل عن وجه تذكير اسم الإشارة للشمس (وهي مؤنثة) في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾.

وقد ذكر المفسرون في هذا المقام وجوهاً مختلفة:

١. أنّ مقتضى القاعدة هو الأول، أمّا التذكير فتأويل المشار إليه بالنير كأنه قال هذا الجرم النير هو ربي وهو أكبر.
- وهنا يُثار التساؤل عن وجه العدول عن القاعدة إلى التأويل.
٢. أنه من قبيل اتباع المبتدأ للخبر في تذكيره، فإنّ الربّ والأكبر مذكّران فأتبع اسم الإشارة للخبر. فتذكير المبتدأ لأجل كون الخبر مذكراً، أعني: «ربي» و «أكبر».

يلاحظ عليه: أنّ الكلام هو في تذكير الخبر نفسه، فلماذا لم يقل «ربي» أو «كبرى» حتى تبعه المبتدأ فيقول مكان «هذا» «هذه»؟

إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكرها العلامة الطباطبائي في ميزانه^(١) والحق أن يقال أن الشمس من المؤنثات المجازية يجوز فيها الوجهان: الإشارة بلفظ المذكر والإشارة بلفظ المؤنث، والقواعد العربية يجب أن تعرض على القرآن لأنه عربي أصيل نزل به الروح الأمين على قلب عربي صميم. دون أن يُعرض القرآن على القواعد المستخرجة عن كلمات العرب وأشعارهم.

ما هو المراد بالملكوت؟

إنّ وزان «ملكوت» وزان «جبروت» وكل منهما يحكي عن المبالغة في الملك والجبر، وعندئذ يقع الكلام فيما هو المراد من الملكوت وإن كان - حسب الظاهر - بمعنى شدة التملك.

والظاهر أنّ المراد به هو باطن هذا العالم، أعني: تعلّقه بالله سبحانه وقيامه

معه نظير قيام الصور الذهنية بالنفس، وقيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي الذي لا يدركه إلا المتعمق في هذا العالم، وإلا فالباحث المادي لا يرى إلا ظواهر طبيعية يؤثر بعضها في بعض ويكشف بتجاربه تأثير الكل في الكل، وأما أن المجموع والنظام الحادث فيه قائم بوجود يدركه الإنسان تارة بالبرهان وأخرى بالشهود، فهو ما أدركه إبراهيم مرة بالشهود كما يحكي القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ﴾. ومرة أخرى بالبرهان.

والدليل على أن المراد بالملكوت هو تعلقه بالله سبحانه هو أنه بعدما أبطل ربوبية الأجرام السماوية قال: ﴿وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي اعرض عن الآلهة المكذوبة وتوجه إلى خالق السماوات والأرض، لما عاينه بالقلب أولاً وأدركه بالبرهان ثانياً.

وقد أشار سبحانه في بعض الآيات إلى هذا النوع من التعلق وقال:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ﴾^(١)، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

وليست مالكيته سبحانه أمراً اعتبارياً مثل مالكية زيد لما في يده بل مالكيته تتزع من خالقيته، فهو بما أنه خالق للسماوات والأرض مالك لها، وبما أن ما سوى الله فاقد لكل جمال وكمال وقدرة وقوة وإنما أبيض عليه الوجود من الله سبحانه فهو يكون أولى به من غيره.

١. آل عمران: ٢٦.

٢. المائدة: ١٨.

٣. الملك: ١.

بقي هنا شيء وهو أنه سبحانه يعلل إراءة الملكوت لإبراهيم، بغاية صيرورته من الموقنين ويقول: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فهل هذا بمعنى عدم كونه ذا يقين قبل الإراءة؟ أو أنّ لليقين مراتب فأراد سبحانه أن يبلغ به إلى أعلى مراتب اليقين كما هو الحال (فيما سيوافيك) من طلبه إراءة إحياء الموتى، حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فوافاه الخطاب ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِبَطْمِينٍ قَلْبِي﴾ (١).

أضف إلى ذلك أنّ هذا الوصف لم يكن من خصائص إبراهيم، بل وُصف به عدد من الأنبياء.

قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢).

موقف المشركين من إبراهيم عليه السلام

أورد القرآن الكريم جانباً من حجج وبراهين أحد طرفي الحوار والمناظرة (أعني: إبراهيم عليه السلام) وقد تقدم الكلام في ذلك، ولم يورد صراحة شيئاً من احتجاجات وأقوال الطرف الآخر (أعني: المشركين)، وإنما اقتصر على ذكر موقفهم الرافض والمتعنت من دعوته عليه السلام، بيد أنه يمكن أن يُستفاد من بعض أجوبة إبراهيم أنهم جادلوه في وحدانية الله وعبادته، ودعوه إلى الكف عن التعرض لألهتهم بسوء، وحذروه من الإعراض عن عبادتها وتحريض الناس على ذلك، وخوفوه من سخطها عليه وانتقامها منه: ﴿وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ قَالَ الْحَاجُّونَ فِي اللَّهِ

١. البقرة: ٢٦٠.

٢. السجدة: ٢٤.

وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي ﴿١﴾ أَي أَنَا عَلَى اطْمَئِنَانٍ مِنْ عَجْزِهَا عَنْ إِيصَالِ الشَّرِّ إِلَيَّ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ بِأَنْ يَصِيبَنِي شَيْءٌ لِأَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَالِكُ لِلنَّفْعِ وَالضَّرِّ.

ثم إن إبراهيم عارضهم برّد هذه الحجة عليهم، قائلاً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

أي انكم تُرهبونني ببطش الآلهة وأنا أُرهبكم بسخط الله رب العالمين حيث تركتم عبادته ورفضتم ربوبيته والتجأتم إلى ربوبية المخلوق، فإن كان هناك خوف فأنتم أولى به، لأنكم لا تملكون دليلاً أو برهاناً على دعواكم بأنّ الله شركاء.

أما الآمنون حقاً فهم المخلصون في إيمانهم بالله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢﴾

والمراد من الظلم هو الشرك، وقد عد سبحانه الشرك ظلماً فيما حكاه عن لسان لقمان عندما وعظ ولده فقال: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ حَتَّى أَنْ الْمَشْرِكِينَ عَدَا أَنْفُسَهُمْ ظَالِمِينَ عِنْدَمَا تَبَيَّنَ فِسَادُ عَقِيدَتِهِمْ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣﴾

فمن دخل في حصن الله سبحانه، خالق السماوات والأرض، مدبر الإنسان والحيوان وما في الأرض والسماء، فهو آمن من الخوف، بخلاف من تركه واعتقد

١. الأنعام: ٨١.

٢. الأنعام: ٨٢. قال الشيخ الطبرسي في «مجمع البيان»: ٤/ ١٠٠: اختلف في هذه الآية، فقيل: إنه من تمام قول إبراهيم عليه السلام، وقيل: إن هذا القول من الله تعالى على جهة فصل القضاء بذلك بين إبراهيم عليه السلام وقومه.

٣. الأنبياء: ٦٣.

بربوية المخلوق الفاقد لكل كمال، فقد عرّض نفسه لقهره وسطوته وغضبه.

ثم إنه سبحانه يخبر عن ارتقاء إبراهيم إلى مراتب الكمال من المعنويات كالعلم والإيمان والكرامة، قائلاً: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

ولم يرفع سبحانه إبراهيم درجات (كما يرفع من يشاء من عباده درجات) من دون ملاك، بل بالملاك الذي يكتسبه العبد، ولذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ مشيراً إلى أن الحجج التي آتاها إبراهيم كانت نابعة من الحكمة والعلم.

ج. مناظرة إبراهيم مع عبدة الأصنام

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(٢).

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ

الشَّاهِدِينَ﴾^(٣).

٢. الأنبياء: ٥١.

١. الأنعام: ٨٣.

٣. الأنبياء: ٥٢-٥٦.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ .
 ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ .
 ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا حَافِينَ﴾ .
 ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ﴾ .
 ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ .
 ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ .
 ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ .
 ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ .
 ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ .
 ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ .
 ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ .
 ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ .
 ﴿وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ .
 ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ .^(١)

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴿١﴾

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٢)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (٣)



قد تعرفت على منطق إبراهيم في مناظرته مع أبيه آزر، كما مضت مناظرته مع عبدة الكواكب، وبقي الكلام في مناظرته الثالثة وهي التي واجه فيها أباه وقومه.

وقد سبق أن قلنا إن لإبراهيم مع أبيه آزر مناظرتين، مرة حاوره فيها شخصياً وقد تقدم الكلام حولها، وأخرى حاوره فيها منضماً إلى قومه، ولذا يأتي الحديث عنها ضمن هذه المناظرة.

الحوار الأول

سبق هذا الحوار، التأكيد على ما أنعم الله به على إبراهيم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، إذ وهبه الله الرشد والبصيرة النافذة في معرفة دلائل التوحيد، للياقته واستعداده لهذا العطاء.

١. العنكبوت: ١٦-١٧.

٢. العنكبوت: ٢٥.

٣. الزخرف: ٢٦-٢٧.

وقد جاء هذا الحوار مع عبدة الأصنام (وهو ﷺ في مقتبل عمره)، تجسيدا للرشد الذي اختصه الله به، وتعبيراً عن التوفيق والتسديد الإلهي لإصابة الحق. بدأ ﷺ حوارهم مع قومه، بهذا التساؤل: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا حَاكِفُونَ﴾^١ في محاولة منه لفتح عيونهم على واقع أصنامهم، وعلى السبب الذي يدعوهم إلى تقديسها والقيام بخدمتها.

ولم يجد القوم عندهم ما يردون به على هذا التساؤل، إلا أن يلوكوا الحجة الواهية التي طالما فاء بها أسلافهم المشركون: إِنَّا نَقْتَفِي أَثْرَ آبَائِنَا فِي هَذَا الْاِعْتِقَادِ، وَنَقْدَسُ اَعْمَالَهُمْ ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا حَاكِدِينَ﴾.

وهكذا أراحوا أنفسهم من عناء التفكير والبحث عن البرهان الصحيح والحجة الواضحة في أهم القضايا التي تخص الإنسان في حياته ومصيره، وتشبثوا بالتقليد الأعمى، وكفى به دليلاً على الجهل وضيق الأفق.

فرد عليهم إبراهيم ﷺ بلهجة حازمة صريحة، يفرضها الموقف، ليُطِيعَ بِكُلِّ هَذَا التَّقْدِيسِ الزَّائِفِ، الَّذِي لَنْ يُكْسِبَهُ مَرُورُ الزَّمَنِ وَلَا كَثْرَةُ الْمُعْتَقِدِينَ بِهِ شَيْئاً مِنَ الْحَقِّ ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

فوجئ القوم بهذا الجواب الصارم الذي زلزل كيانهم، وحاولوا أن يكذبوا أسماهم التي لم تستقبل يوماً مثل هذا الكلام، فخطبوه بقولهم ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاهِئِينَ﴾ أي الهازلين.

فأجابهم ﷺ - وهو يقصد إبطال الشرك وإثبات التوحيد والربوبية لله تعالى - بِأَنَّ رَبَّكُمْ الْمُدَبِّرُ لِلْأُمُورِ، هُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ

١. التمايل: جمع تمثال: وهو الشيء المصوّر، والمراد بها هنا الأصنام، سماها بذلك تحقيراً لسانها. والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴿١﴾ ثم ختم جوابه بقوله: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الذين يقرون ويلتزمون بما يقولون عن بيّنة وحقّة.

وبهذه الشهادة أعلن أن جوابه عن سؤالهم جواب عن جدّ غير نابع من الهزل.

الحوار الثاني

قد تعرفت على الحوار الأوّل للنبي إبراهيم ﷺ مع المشركين، وإليك حوار الثاني، الذي خاطب فيه - كما في الحوار الأوّل - أباه أزر وقومه. ^(١)

سأل إبراهيم في بداية المناظرة عن حقيقة معبودهم بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ حيث وضع نفسه ﷺ موضع من لا يعرف شيئاً عن حقيقتها وسائر شؤونها وهذا من طرق المناظرة، سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقة مدعاه وسائر شؤونه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه. ^(٢)

فأجابه القوم ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾.

وفي الحقيقة كانت الأصنام رمزاً لما كانوا يعبدون من الملائكة والجن وغير ذلك، ولما كان التوجه العبادي إليها أمراً مشكلاً لخروجها عن مجال الحس صنعوا لها تماثيل تحكي المعبود الواقعي، فكانوا يعبدونها في كلّ آن.

ومع ذلك كلّ كانت الأصنام آلهة معبودة، وإن كانت في حدّ نفسها مرآة لغيرها، وهذا ما دعا إبراهيم إلى نقد عملهم، لأنّ غاية العبادة هي التقرب من

١. تقدّمت الآيات الكريمة التي عرضت هذا الحوار في ص ١٩٠.

٢. الميزان: ١٥/ ٢٨٠. وقال الشيخ الطوسي: إنّ سؤاله كان على وجه الإنكار عليهم. التبيان في تفسير

القرآن: ٨/ ٣٠.

المربوب، وهو توقف على كونه سامعاً مبصراً، قادراً على النفع والضرر، فهل تمتلك الأصنام مثل هذه الصفات؟ ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾^(١).

ولم يكن لدى القوم إزاء هذه الحقيقة التي تفضح واقع أصنامهم إلا هذه الحجة الواهية: إننا نقتفي أثر آبائنا في تقديس الأصنام، ونقتدي بسيرتهم من غير وعي ولا دراية، ولا حجة ولا برهان ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

فقال لهم إبراهيم مُنكراً عليهم التقليد: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وهنا يقع الكلام في ثلاثة أمور: أولاً: كيف تكون عدواً له؟ وثانياً: كيف استعمل ضمير الجمع الذي يطلق على العقلاء؟ وثالثاً: كيف استثنى رب العالمين ولم يكن داخلاً فيها؟ فهنا أسئلة ثلاثة نجيب عنها كما يلي:

أما الأول: فلا يبعد أنه أراد به أنهم أعداء لكم لتضركم بعبادتهم وإنما نسب الأمر إلى نفسه تعريضاً له، لأنه أنفع في النصح من التصريح، والبدء بنفسه في النصيحة أدعى للقبول.^(٢)

وأما الثاني: وهو الإشارة إليه بضمير العقلاء لمكان نسبة العبادة إليها وهي تستلزم الشعور والعقل أو كان هذا من منظار القوم حيث إن عبادتهم لها يلازم كونها عاقلة.

وأما الثالث: فالاستثناء منقطع، والمراد أنهم عدوي ولكن رب العالمين

١. مرّ نظير هذا الحوار في مناظرة إبراهيم لأزر بمفرده.

٢. تفسير الصافي للفيض: ٣٩/٤. وقال الفراء: إنه من المقلوب، والمعنى فإنّي عدوّ لهم، ومن عاديته

فقد عاداك. مجمع البيان: ٣٥٨/٧.

ليس كذلك. ثم إنه وصف رب العالمين بأوصاف، أراد بها أن المستحق للعبادة هو من تتوافر فيه هذه الصفات، أعني: الخلق والهداية والإطعام والإسقاء والإشفاء والإماتة والإحياء والغفران للخطايا.

وهذه من أوصاف خالق السماوات والأرض والإنسان، فهل من الإنصاف ترك عبادته والتوجه إلى عبادة من لا يقدر على أن يقوم بواحدة منها؟ كما قال تعالى على لسانه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١).

ثم إن نسبة الخطيئة إلى نفسه وهو نبي معصوم دليل على أن المراد بالخطيئة غير المعصية، بمعنى مخالفة الأمر الملوي، فإن للخطيئة والذنب مراتب تتقدر حسب حال العبد في عبوديته كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: «واستغفر لذنبك» فالخطيئة من مثل إبراهيم عليه السلام (هي) اشتغاله عن ذكر الله محضاً بما تقتضيه ضروريات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منه ﷺ، كيف؟ وقد نص تعالى على كونه مخلصاً لله لا يشاركه تعالى فيه شيء، إذ قال: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٢). (٣)

الحوار الثالث

ثم إن إبراهيم كثر هذا الأسلوب الجدلي في موقف آخر، قائلاً: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

٢. ص: ٤٦.

١. الشعراء: ٦٩-٨٢.

٣. الميزان: ١٥/٢٨٥.

لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

وتقرير البرهان هو أن العبادة من وجوه شكر نعم الله سبحانه، والرزق من النعم العظيمة التي به تقوم حياة الإنسان، فاللازم عبادة من بيده الرزق وهو الله سبحانه لا من لا يملك شيئاً منه، أعني: الأصنام.

ثم إن إبراهيم أشار إلى قضية مهمة وهي أن النظريات والأفكار التي يعتقد بها رؤساء الدول وملوكها وأعوانهم إنما تختص بهم فقط، وأن غالب الجماهير الشعبية - مع كونهم غير مقتنعين بأفكارهم وعقائدهم - لم يكن لهم محيص من التظاهر بالإيمان بهذه العقائد والأفكار في سبيل تأمين معاشهم وتحقيق مصالحهم الدنيوية.

وقد لمسنا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي واستقلال بلدانه، تنكّر شعوبه للشيوعية الملحدة - التي كانوا يتظاهرون بالإيمان بها في الأيام الماضية - وعودتهم إلى ممارسة الشعائر والطقوس الدينية في المساجد والكنائس. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن إيمانها بالشيوعية لم يكن حقيقياً وواقعياً وعن قناعة ورضى، وإنما كان شكلياً وظاهرياً، طمعاً في المنافع الدنيوية والاجتماعية.

وهذه الحقيقة الاجتماعية ذكرها إبراهيم في احتجاجه على قومه، وهي أن عبادتكم للأصنام إنما هي لابتغاء المودة بينكم في الحياة الدنيا دون أن تكون منطلقة من اعتقاد، فإذا رُفِعَ الستار يوم القيامة وشاهدتم الحقائق ومصير الأصنام، عند ذلك تنقطع الصلة بينكم ويتبرأ بعضكم من بعض، وإلى هذا المعنى يشير سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا
وَمَا أَوَّاكُم النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ»^(١).

د. مناظرته مع ملك بابل

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخَيِّبُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ
يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»^(٢).

يذكر القرآن الكريم في هذه الآية محاجة إبراهيم مع ملك بابل، الذي
اشتهر بين المفسرين أنه «نمرود». والمحاجة عبارة عن إلقاء الحجّة قبال الحجّة
لإثبات المدعى أو لإبطال ما يقابله.

والضمير في قوله «في ربه» يرجع إلى إبراهيم فكان ذلك مصبّ المحاجة
حيث إن إبراهيم كان يدعي أن ربه، هو الله الخالق لا غير، وكان الملك يدعي أنه
ربّ كل شيء حتى إبراهيم نفسه.

والغاية من ذكره سبحانه إعطاء الملك لهذا المدعى للربوبية، هو التنبيه
على كفرانه نعمة ربه، حيث كان من اللازم مقابلة هذه النعمة بشكر من أنعم عليه
لا الكفران به، وهذا ديدن الطغاة، الذين ما إن يصلون إلى قمة الملك والثروة حتى

١. العنكبوت: ٢٥.

٢. البقرة: ٢٥٨.

ينسون من أعطاهم ذلك كما هو الحال في فرعون الذي قال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾^(١). وقارون الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾^(٢). ولكنه نسي الله الذي أعطاه هذه الكنوز وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ﴾^(٣).

ومثلهم طاغية قريش، أعني: «الوليد بن المغيرة» الذي أوعده الله بقوله: ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾^(٤).

فحيازة الثروة والجاه العريض والمُلْك الواسع، تعدّ من أهمّ البواعث على التكبر والاستعلاء والطغيان ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِبَطْفَى * أَنْ رَأَهُ اسْتَفْتَى﴾^(٥).

وعلى كل تقدير كان إبراهيم يُعلن بأنّ ربه هو خالق السماوات والأرض وما بينهما وليس له ولا لغيره ربّ غيره، لكن حاكم بابل كان يتظاهر بالربوبية وإن كان يرى نفسه مخلوقاً لله سبحانه، وقد مرّ غير مرّة أنّ النزاع بين الخليل وقومه كان محدوداً في مسألة الربوبية وتدبير العالم دون خلقه وإيجاده وإنشائه، ولم يكن أحد منهم حتّى الفراعنة يتفوّه بأنه الخالق، وأقصى ما كان عندهم من الشرك هو الشرك في التدبير.

وفي منطق إبراهيم أنّ التوحيد في الخالقية والتوحيد في الربوبية متلازمان لا ينفكان، وإنّ الخالق هو المدبّر، ولذلك قال عند الحاجة: ﴿رَبِّي الَّذِي يُنْجِي وَيُمِيتُ﴾، فالحياة والممات ظاهرتان تعرّضان للموجود الحيّ من غير فرق بين الإنسان والنبات، فنسبهما إبراهيم إلى الله سبحانه، ولكنه فوجئ بجواب نمrod:

٢. القصص: ٧٦.

٤. المدثر: ١١-١٢.

١. الزخرف: ٥١.

٣. القصص: ٧٨.

٥. العلق: ٦-٧.

﴿أَنَا أُخِي وَأُمِيْتُ﴾^(١) فقد ورد في الروايات^(٢) أنه أمر بإحضار رجلين ممن كان في سجنه فأطلق أحدهما وقتل الآخر، وبذلك تظاهر بأنه أيضاً يحيي ويميت . ولكنه غالط في حاجته ، وذلك لأن المراد من الإحياء والإماتة هو إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاءً ، ومثل هذا خارج عن قدرة البشر ولكن الخصم سلك مسلكاً آخر وأراد بالحياة التخلية من الحبس في حق من وجب عليه القتل ، كما أراد من الإماتة قتل من شاء وهو حي ، وهذا تجاهل منه لحقيقة الإحياء والإماتة ، وتمويه وخداع لقومه .

كل ذلك يحكي مبلغ التردي الفكري الذي وصل إليه المجتمع آنذاك، فقد سادت فيه عبادة الكواكب والأصنام، وأله فيه الملك، الذي كان يتحكم بمصائر قومه، ويتصرف في شؤونهم كما يهوى، ويستغفلهم بتمويهه وخداعه.

وإذا كان هذا المجتمع في العهد البابلي متقدماً في مدنيته المادية كما كشف عن ذلك علماء الآثار، فإنه كان يعاني من التخلف في تصوراته العقائدية وقيمه المعنوية وعاداته وتقاليده.

وما نشاهده اليوم من سيادة الوثنية وطقوسها في بعض الدول على الرغم من تطورها العلمي والصناعي والتقني، هو أصدق دليل على عدم الملازمة بين الأمرين.

ومن هنا يظهر سبب إعراض إبراهيم عن مواصلة الجدل مع الملك في هذا المجال، وإيضاح حقيقة الإحياء والإماتة، وذلك لتعذر بيان فساد هذا المنطق، وكشف هذا التمويه في مجتمع بلغ فيه الجمود والتحجر والانحطاط الفكري أقصى درجاته، ولذا عدل إلى بيان آخر لا سبيل فيه إلى المرء و التمويه والخداع،

١ . البقرة: ٢٥٨.

٢ . راجع مجمع البيان: ٢/ ١٦٨ و ١٧٧، والميزان: ٢/ ٣٥٠.

فأسقط في يد الملك وأبلس وتحير. قال له ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾. (١)

بيان ذلك: إن من شأن الرب أن يتصرف في النظام كيفما شاء، وإن ربي يأتي بالشمس من المشرق إلى المغرب، فإذا كنت أنت مدبراً لهذا النظام وقادراً على التحكم فيه، فأظهر قدرتك في تغيير مسارها، فأت بها من المغرب إلى المشرق. وهنا أطبق عليه السكوت المقرون بالانبهات والدهشة. ومع أن إبراهيم أبطل دعواه ببرهان دامغ سكت أمامه على نحو لم يقدر فيه حتى على المغالطة، إلا أنه أصر على عناده وضلاله، ولم يهتد إلى الحق. ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ومن القواعد المعروفة هي أن تعليق الحكم بالوصف يشعر بالعلية. فعدم هداية الله تبارك وتعالى هؤلاء، لأجل كونهم ظالمين وخارجين عن الجادة الوسطى. وهذا النوع من التعليق المشعر بالعلية موجود في كثير من الآيات، يقول سبحانه: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. (٢)

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾. (٣)

إلى هنا تم ذكر احتجاجات إبراهيم وحواراته الأربعة: تارة مع أبيه أزر بمفرده، وأخرى معه في مجلس حضره قومه، وثالثة مع عبدة الأجرام السماوية، ورابعة مع ملك بابل الذي كان يدعي لنفسه ربوبية العالم وتدبيره. وقد خرج ﷻ

١. البقرة: ٢٥٨.

٢. الجمعة: ٥.

٣. الصف: ٥.

من جميع هذه الحوارات متصراً، داحضاً شُبّه القوم ومبيناً ما هو الحق. ثم إنه بعد ان أدرك أنّ القوم لا يؤمنون بمثل هذه الأساليب، سلك مسلكاً آخر وهو ما سنبينه في الفصل التالي.

٤

تحطيم الأصنام

جاهد إبراهيم عليه السلام في سبيل هداية قومه إلى عقيدة التوحيد ونبذ الشرك بالوعظ والإرشاد، والبرهنة والاستدلال بشتى الأساليب، ولم يدع لمشكك شكاً ولا لمرتاب ريباً، إلا أنّ القوم تمادوا في إنكارهم وضلالهم، الأمر الذي حدا بإبراهيم الخليل إلى انتهاج أسلوب آخر يتمثل في تحطيم أصنامهم المُقامة في الهيكل، فأخذ يضربها يمينه، فكسرها كلّها، واستبقى الكبير، ليثبت لهم بالبرهان العملي وبطريقة محسوسة عجز الأصنام عن دفع الأذى عن نفسها، وإبعاد الشرّ عن ساحتها، فكيف تصلح أرباباً لهم، يستدفعون بها الضرّ، ويستجلبون بها النفع؟

وإليك الآيات القرآنية التي ذكرت هذا الموضوع:

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ * قَالَ أْتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا
فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ *
قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ
كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ
شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

روى علي بن إبراهيم في تفسيره أنه خرج نمرود وجميع أهل مملكته إلى عيد لهم وكره أن يخرج إبراهيم عليه السلام معهم، فلما ذهبوا عمد إبراهيم إلى طعام فأدخله إلى بيت أصنامهم، فكان يُدني صنماً من صنم فيقول له كل وتكلم، فإذا لم يجبه اتخذ القدوم فكسر يده ورجله حتى فعل ذلك بجميع الأصنام، ثم علق القدوم في عنق الكبير منهم الذي كان في الصدر، فلما رجع الملك ومن معه من العيد نظروا إلى الأصنام منكسرة فقالوا: من فعل هذا بآلهتنا، أنه لمن الظالمين؟ فقالوا: ها هنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم... إلى آخر ما ذكره.^(٢)

إذا وقفت على إجمال القصة فلنرجع إلى تحليل مفاد الآيات فنقول: يظهر من وجود الفاء في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أن نظره فيها كان بعد كلام لهم، وحيث إن نتيجة النظرة في النجوم صارت سبب الاعتزال عن المشاركة معهم في العيد، فيُستظهر من ذلك أن كلامهم كان حول حضور إبراهيم معهم في العيد.

١. الأنبياء: ٥٧-٦٧.

٢. قصص الأنبياء للجزائري: ١١٩، نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم.

وهنا يُطرح هذا السؤال، هل أنّ اعتذاره بالسقم كان عذراً واقعياً أو ظاهرياً، حتى لا يشاركهم في مراسم العيد وبالتالي يتمكن من عملية كسر الأصنام؟

يظهر من ابن كثير أنّه كان عذراً ظاهرياً حيث قال: إنه عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم، ونصرة دين الله الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تُهان غاية الإهانة.^(١)

ويظهر من العلامة الطباطبائي أنّ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ صدر عن جدّ لا عن مصلحة، فإنّ الأنبياء أجلّ من أن يكذبوا ولو لمصلحة.

قال: إنّ إخباره ﷺ بأنه سقيم مرتبط بنظرته في النجوم ومبني عليه، ونظرته في النجوم إمّا لتشخيص خصوص الوقت، نظير من به حمى ذات نوبة يُعيّن وقتها بطلوع كوكب أو غروبها أو وضع خاص من النجوم، وإمّا للوقوف على الحوادث المستقبلية التي كان المنجمون يرون أنّ الأوضاع الفلكية تدلّ عليها، وقد كان الصابئون مبالغين فيها وكان في عهده ﷺ منهم جمّ غفير.^(٢) ولا مانع من استكشاف بعض الحوادث عن الأوضاع الفلكية والاستدلال بها عليها، باتخاذها أمانة عليها لا مؤثرة، بل لا مانع من القول بكونها مؤثرة بإذن الله فتكون الدلالة من سنن الله، كما بيّن في محله.

ويظهر من قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ﴾ أنّه أسرع إلى العمل خوفاً من أن تفوته الفرصة.

١. قصص الأنبياء لابن كثير: ١/١٧٨.

٢. الميزان في تفسير القرآن: ١٧/١٤٨.

ثم إن الخطاب في قوله: «أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ» يدل على وجود الطعام عند الأصنام لا أن الخليل حمل طعاماً إليها، كما مر في الرواية. وهذه الحقيقة (أي تقديم الطعام للآلهة) كغيرها من الحقائق التي تعرّض لها القرآن الكريم، قد أقرّ العلماء بصحتها. قال المؤرخ والفيلسوف الفرنسي (ول ديورانت)، وهو يتحدث عن آلهة بابل: وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة، فسادو لهم الهياكل وأمدّوها بالأثاث والطعام والعبيد، ثم قال: وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرب من القرابين... وكان أهم ما يجب أن يعمل به البابلي التقى المتمسك بدينه أن يشترك في المواكب الطويلة المهيبة... وأن يقدم الطعام والشراب للآلهة. (١)

ثم إن خطابهم لهم بقوله «أَلَا تَأْكُلُونَ» صدر عن غيظ منه، مع علمه بأنهم لا يأكلون ولا ينطقون وكأنه قال: ما لكم لا تأكلون ولا تنطقون مع أنكم آلهة بزعم عبّادكم وانكم قادرون مدبرون لأمرهم، فلما لم يسمع جواباً منهم، عمد إلى ضربهم جميعاً بيمينه، إلا كبيراً لهم كما سيوافيك، وبذلك أنجز ما توعد به أصنامهم بقوله: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ».

هذا ما نذكره سبحانه في سورة الصافات، وإليك ما ذكره في سورة

الأنبياء.



يحكي سبحانه في هذه الآيات عن عزم إبراهيم القاطع على كيدته للأصنام: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ» وهنا نتساءل: هل قال

ذلك أمام قومه؟ الظاهر لا. لأنهم عندئذ لا يتركونه في البلد خوفاً من كيدته لها، بل لا يبعد أنه قاله في نفسه، وكثيراً ما يخاطب الإنسان غيره في نفسه بل يتفوه بلسانه ويقول: والله لأفعلن كذا في حقكم مع أن المخاطب غائب لا يرى ولا يسمع... ثم إنه وصف عمله بالكيد والمراد به التدبير الخفي بالنسبة إلى الأصنام: وفسر كيدته لهم بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي جعلهم قطعاً مكسورة إلا صنماً واحداً كبيراً استبقاه، لعلهم يسألونه عن حقيقة الحادث، فيعلمون (حيث لا ينطق) جهل من اتخذوه إلهاً،^(١) أو يلصقون به (حين يجدونه سالماً) تهمة تحطيم سائر الأصنام.^(٢)

ولما وجد القوم ما حلّ بأصنامهم، تساءلوا عن المتجرئ على هذا الفعل، و المرتكب للظلم لنيله من مقدساتهم، فشهد بعضهم بأنهم سمعوا إبراهيم يذكر الأصنام بسوء. وهذا يعني أنه كان مظنة لارتكاب هذا الفعل، ومن هنا طلبوا إحضاره في مجمع من الناس ليشهدوا استجوابه وإقراره بهذا الفعل، ويكسبوا بذلك الرأي العام في قتله وإعدامه.

فلما أحضر إبراهيم إلى المحكمة قالوا له: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِهْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

فأجاب: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

ولم يكن إبراهيم جاداً ومخبراً في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ بل قاله على نحو إلزام الخصم لغاية إبطال إلهيته، وهذا كثير الورد في المخاصمات والمناظرات، حين يطرح المناظر قضية غير مؤمن بها، ليتوسل بها إلى إنكار الخصم لها، فيثبت

١. انظر: مجمع البيان: ٧/ ١٠٠.

٢. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ٢٩٩.

ما يريد إثباته.

هكذا كان المقام، فإن الخليل لما قال إن الفاعل هو الكبير، واستشهد (كما في الروايات) بكون القَدوم (الفأس) معلقة في رقبته، ودعاهم إلى استنطاق الأصنام المحطمة عن فعله، واجه إنكار القوم بأن يكون الكبير هو الفاعل لعدم قدرته على القيام بهذا العمل، وعجز الأصنام عن النطق، وعندئذ تمكن إبراهيم من إقامة البرهان على إبطال عبوديتهم كما يحكي سبحانه ويقول: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

فلو لم يعرف الكبير بأنه الكاسر، لما أجابوه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، وبالتالي لم يتمكن من التنديد بالقوم بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ .

ومن هنا يُعلم: أن ما روي عن أبي سعيد وابن عباس: أن إبراهيم كذب ثلاث مرات، غير صحيح، فقد روي عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات، والله إن حاول بهن إلا عن دين الله:

١. قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ .

٢. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ .

٣. وقوله لامراته حين أتى على الملك «أختي» .^(١)

إن الرواية من الإسرائيليات^(١) التي تسربت إلى كتب الحديث بمكر وخداع، وعصمة الأنبياء ترد الرواية، ونسبة الكذب إلى الراوي أهون بكثير من نسبه إلى إبراهيم الخليل الذي اشترى رضا الله سبحانه باستعداده لمواجهة النار الحارقة، وفي ذيل الرواية ما يدل على أن زوجته «سارة» كانت أكثر غيرة من زوجها، حيث إنها لم تكذب وقالت: أنا زوجة إبراهيم لا أخته، فردّها الملك إلى إبراهيم ولامه على كذبه.

وهنا نكتة جديرة بالاهتمام وهي أن الحجّة التي ألقاها إبراهيم ﷺ، صدمت القوم، فعاد إليهم رشدهم قليلاً، وشعروا للحظة أنهم يعبدون ما لا يقدر على أقل شيء وهو الدفاع عن نفسه، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ومع أنهم شاهدوا الحق بوجدانهم وعاینوا الباطل كذلك غير أنهم داسوا على وجدانهم وتنكروا لعقولهم التي آبت إليهم قليلاً، ورجعوا إلى سجيّتهم في العناد، وفي قلب الحقائق، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾.

والنكس عبارة عن قلب الشيء على رأسه، ومنه نكس الولد إذا خرجت رجله قبل رأسه. والجملة كناية عن الرجوع إلى الفتنة: يعني انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة إلى وجدانهم^(٢)، وهذا يدل على أن الإنسان ربما يدوس وجدانه ويغتره ويقنعه بالتسويات.

١. التوراة، سفر التكوين: ١٢ و ١٣، الأصحاح الثامن عشر.

٢. التفسير الأصفي: ٧٨٥ / ٢.

إصدار الحكم بإحراق خليل الرحمن

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾. (١)

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾. (٢)

عدل القوم عن الاحتجاج والمناظرة إلى معاقبة إبراهيم بأشد العقوبات، عقوبة لا يتصور فوقها عقوبة، حيث اتفقوا على حرقه بالنار، فأصدرت المحكمة حكمها القاطع بإحراقه.

والعجب ان الوثنيين عامة شاركوا في إحراقه، وقد نقل المفسرون (٣) أن المرأة لتغزل الصوف وتشتري به حطباً، حتى بلغوا بذلك ما أرادوا. ولأجل ذلك بنوا حائطاً من حجارة وملاوه ناراً وألقوه فيها، وإليه يشير سبحانه: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾.

١ . الأنبياء: ٦٨-٧٠.

٢ . الصافات: ٩٧-٩٨.

٣ . راجع تفسير القرطبي: ٩٨/١٥.

وجاء في الروايات ^(١) أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار، لم يدروا كيف يلقونه حتى توسلوا بالمنجنيق فوضعه فيها ثم رموه.

وكانوا ينظرون إلى ألسنة اللهب كيف تأخذ إبراهيم وتحرقه، ولكنهم فوجئوا بنجاة إبراهيم من النار، حيث جعلها الله سبحانه برداً وسلاماً عليه لا يصيبه من أذاها شيء. وليس هذا بأمر عسير على الله جلّت قدرته، فالوجود كله بيده، يحكم فيه كيفما شاء، وإليه تنتهي جميع الأسباب، وهي خاضعة لأمره وإرادته، فقد يُصبح الإنسان قرداً بقوله: «كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» ^(٢). وأخرى يجعل النار برداً وسلاماً أو روضة خضراء حسب ما ورد في الروايات. وهذه كرامة لإبراهيم من ربه جزاء لإخلاصه وتسليمه له سبحانه في أموره كلها، وجهاده الدائب في طريق دعوته.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: لما أجلس إبراهيم في المنجنيق وأرادوا أن يرموا به في النار أتاه جبرئيل عليه السلام فقال: السلام عليك يا إبراهيم ورحمة الله وبركاته، ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. فلما طرحوه دعا الله فقال: يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فحسرت النار عنه وأنه لمحتبٍ ومعه جبرائيل عليه السلام وهما يتحدثان في روضة خضراء. ^(٣)

لقد أرادوا به كيداً ولكن الله سبحانه جعلهم الأسفلين، أي المقهورين حيث لم ينالوا ما راموا. وكان على القوم في هذه اللحظة الحاسمة التي تجلت فيها

١. راجع بحار الأنوار: ١٢ / ٢٣.

٢. البقرة: ٦٥.

٣. مجمع البيان: ٧ / ٥٥. والاحتباء: هو من جمع بين ظهره وساقه بعمامة ونحوها. واحتبني بالثوب: اشتمل به.

الحقيقة بأوضح صورها أن يتركوا الوثنية ويعترفوا بوحدانية الله وربوبيته، ويتبعوا رسالة نبيه إبراهيم التي تخرجهم من ذل طاعة غير الله إلى عز طاعته، ولكنهم أصروا على جهلهم وعنادهم، فلم ير إبراهيم بُدأً من الهجرة إلى بلاد أُخرى، وهي أرض الخيرات والبركات، أعني: أرض فلسطين، كما يقول سبحانه حاكياً عنه:

﴿وَنَجِّنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

٦

هجرته من أرض قومه

قد تعرفت على المرحلة الأولى من مراحل حياة إبراهيم في أرض بابل وأنه جاهد في سبيل هداية قومه، ودعاهم إلى انتهاج الصراط القويم بكل وسيلة، ولكنهم قابلوه بالجفاء والإعراض والتهديد والإلقاء في النار، فعزم على مفارقتهم ليأسه من استجابتهم لدعوته، وقرر الهجرة إلى أرض أُخرى، ربما يجد فيها أمنيته، ولذلك خاطب قومه بعد أن أنجاه الله من شرهم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّئِينَ﴾^(٢)، ولعل المراد من الهداية هي هداية الله سبحانه إياه إلى أرض يتمكن فيها من التبليغ وأداء الرسالة، فهاجر ﷺ مع ابن أخيه لوط ﷺ إلى أرض فلسطين المباركة كما يقول سبحانه: ﴿وَنَجِّنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

١ . الأنبياء: ٧١.

٢ . الصافات: ٩٩.

٣ . الأنبياء: ٧١.

وجاء في بعض الروايات أن الطاغية نمرود أمر بنفي إبراهيم من بلاده،
وأنه قال: «إنه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضر بأهتكم»^(١).

٧

ولادة إسماعيل وإسحاق

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ
جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا
لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ
وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ
هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ
الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾^(٢).

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ
أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(٣).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ﴾^(٤).

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ

١. الميزان في تفسير القرآن: ١٤/٣٠٧-٣٠٨، نقلًا عن روضة «الكافي».

٢. هود: ٦٩-٧٣.

٣. العنكبوت: ٣١.

٤. إبراهيم: ٣٩.

إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِن
الصَّابِرِينَ ﴿١﴾.

﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِمَا مُخْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾. (٢)

هاجر إبراهيم إلى أرض فلسطين وهو بعد لم يُرزق ولداً - لا ذكراً ولا أنثى -
ولما ألقى عصى الترحال في أرض فلسطين بشره الله سبحانه بولادة ولدين هما:
إسماعيل الحليم وإسحاق العليم، إذ أنجبت (هاجر) ولده إسماعيل أولاً، ثم بعد
فترة أنجبت (سارة) ولده إسحاق.

وقد استجاب الله سبحانه دعاءه، الذي رفعه إليه تعالى مبتهلاً: ﴿رَبِّ هَبْ
لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣) فحياه الله سبحانه بهذين الولدين وهو في كبر سنه،
فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ﴾.

وكان عليه السلام قد تزوج بـ(سارة) أولاً إلا أنها كانت عاقراً فلم يُرزقا ولداً حتى
تقدمت بها السن، ثم تزوج بجارية مصرية اسمها (هاجر) فرزق منها بإسماعيل.
ثم شاء الله سبحانه أن يُبشر (بواسطة ملائكته) إبراهيم بأنه سيرزق ولداً
من سارة، رحمةً بأهل هذا البيت وإفاضةً لنعمه عليهم.

وهؤلاء الملائكة هم الرسل الذين أرسلوا إلى إهلاك قوم لوط، وقد نزلوا - و

١. الصافات: ١٠١-١٠٢.

٢. الصافات: ١١٢-١١٣.

٣. الصافات: ١٠٠.

هم في مسيرهم إليهم - بيت إبراهيم في هيئة الأدميين، فحيّوا إبراهيم بالسلام، فردّ عليهم بمثله.

ولما حلّ هؤلاء المرسلون بيت إبراهيم؛ ظنّهم بشراً، فقام على عادته في إكرام الأضياف بتقديم الطعام إليهم، وكان عَجْلاً مشوّياً، ولكنه رأى أيديهم لا تمتدّ إلى العجل، فانكرهم وأضمر منهم خوفاً، حيث إنّ أهل ذلك الزمان كانوا إذا أكل بعضهم طعام بعض آمنه صاحبُ الطعام على نفسه وماله. (١) ولما رأى الملائكة ما به، كشفوا له عن الحقيقة، و﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾.

وكانت امرأة إبراهيم تسمع ما يجري من حديث بين زوجها والملائكة ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ واختلف المفسرون في السبب الذي أضحكها، فقيل: تعجباً وسروراً من البشارة بإسحاق، وقد هرّما، وعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: فبشرناها بإسحاق فضحكت بعد البشارة، وقيل: ابتهاجاً بقرب هلاك قوم لوط الملوّثين، وقيل غير ذلك.

وقيل إنّ «ضحكت» هنا بمعنى «حاضت»، وإنّ الضحك - بفتح الضاء - هو الحيض، وعلى هذا لا يحتاج الكلام إلى تقديم وتأخير. (٢)

وأثارت البشارة التي زفتها الملائكة لامرأة إبراهيم بأن تلد إسحاق، وهي وزوجها في مثل هذه السن، أثارت عجبها (إذ ورد عليها ما لم تجرّ به العادة قبل أن تفكر). (٣)

١. وقيل في سبب خوفه منهم غير ذلك. انظر مجمع البيان: ٣٤١/٥.

٢. وقال الشيخ محمد جواد مغنية: أمّا ضحكها فلكلّ حديث عندهن بشاشة، والله أعلم بالسبب الذي أضحكها. التفسير الكاشف: ٢٤٩/٤.

٣. التبيان في تفسير القرآن: ٣٣/٦.

وهنا جاء تنبيه الملائكة لها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وهو الذي لا يُعجزه شيء، والقادر على إجراء الأمور على خلاف العادة إذا اقتضت الحكمة ذلك، وقد شمل الله تعالى إبراهيم وأهل بيته بلطفه ورحمته وعنايته بما أخلصوا له في أقوالهم وأعمالهم، وبما تحمّلوا من شدائد وآلام من أجل العقيدة والرسالة الإلهية المقدسة. وهذه البشارة هي من شآبيب رحمته وفضله وبركته عليهم ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

٨

الخليل وبناء الكعبة

تعلقت إرادة الله الحكيمة ببناء بيت يكون مثابة للناس، وحرماً آمناً تُصان فيه الدماء والأموال، ويقصده الناس في كل سنة من كل فج عميق، فأوحى سبحانه إلى إبراهيم الخليل ﷺ ببناء ذلك البيت في مكة المكرمة، فبناه ﷺ بمعونة ولده إسماعيل ﷺ فكانا يرفعان القواعد من البيت داعين الله تعالى بقبول هذا العمل. ولم يزل هذا البيت منذ بنائه إلى يومنا هذا ملتقى الموحدين ومهوى أفئدتهم، وقد شرع سبحانه لزيارة بيته مناسك عبادية عظيمة.

﴿إِن أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾. (١)

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢)

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٣)

ذكر المفسرون حول هذه الآيات قصة هجرة إسماعيل مع أمه إلى مكة المكرمة، ونحن نذكر هنا ما لا يخالف العقل، أو النقل الصحيح: كتاباً وسنة. روى القمي في تفسيره قال: إن إبراهيم كان نازلاً في بادية الشام، فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً، لأنه لم يكن لها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه، فشكا إبراهيم ذلك إلى الله عز وجل، فأمره: أن يخرج إسماعيل وأمّه، فقال: يا رب إلى أي مكان؟ فقال: إلى حرمي وأمني، وأول بقعة خلقتها من الأرض، وهي مكة فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم، وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر

١. الحج: ٢٦-٢٧.

٢. البقرة: ١٢٧-١٢٩.

٣. البقرة: ١٢٥.

وزرع ونخل إلا وقال إبراهيم: يا جبرئيل إلى هاهنا، فيقول جبرئيل: لا، امض، امض، حتى وافى مكة فوضعه في موضع البيت.

وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر فألقت هاجر على ذلك الشجر كساءً كان معها فاستظلوا تحته، فلما سرحهم إبراهيم ووضعهم، أراد الانصراف عنهم إلى سارة، قالت له هاجر: يا إبراهيم أتدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم: الله الذي أمرني ان أضعكم في هذا المكان هو يكفيكم.^(١)

ثم إن إبراهيم تركهم في هذا المكان المَقْفَر، امتثالاً لأمر الله، مستودعاً إياهم الربّ الكريم الذي لا يضيع من عاش في كنف رعايته وفضله ونعمته.

وكان إبراهيم يزور هذا المكان من حين إلى آخر إلى أن وافاه الخطاب ببناء البيت الحرام، وجعله موضعاً لعبادة الموحدين، وإليه يشير سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.^(٢)

أي وطأنا وهبأنا لإبراهيم مكان البيت، وعرفنا له ذلك بما جعلنا له من العلامة، وأمرناه أن لا تعبد غيري وطهر بيتي من الشرك وعبادة الأوثان للطائفين والقائمين والركع السجود.

ولعل المراد بالقائمين المقيمين بمكة في مقابل الطائفين الذين يفتنون إليه ويرجعون.

١. تفسير القمي: ٦٩/١ - ٧٠ في تفسير قوله سبحانه: ﴿طَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾.

٢. الحج: ٢٦.

والآية قد تُشير إلى وجود البناء قبل إبراهيم، حيث دلّه سبحانه على مكان البيت، وأمره بتطهيره. ويؤيد ذلك ما رواه زرارة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني، فقال: يا زرارة! بيت يحجّ إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفنى مسأله في أربعين عاماً. ^(١) ولعل المراد من أن البيت كان يُحجّ قبل آدم بألفي عام، أن الملائكة كانت تحجّه.

وجاء في «نهج البلاغة»: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ، الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا». ^(٢) كما أنه سبحانه يذكر كيفية بناء البيت بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

ففي الآية إشعار بأن إبراهيم وإسماعيل كانا يرفعان أصول البيت ويُعليان أُسسَه التي كانت موجودة قبل ذلك.

هذا، وقد اختلفت أقوال المفسرين والمؤرخين في تاريخ بناء البيت الحرام، فذهب أكثرهم إلى أنه بُني قبل إبراهيم عليه السلام بكثير، وأنه عرّض له الخراب، فجذّده هو وولده إسماعيل، وذهب بعضهم إلى أنّهما هما اللذان شرعا في بنائه ولم يكن له وجود من قبل، بينما توقف آخرون، وتركوا الأمر إلى علام الغيوب.

١. الوسائل: ٨، الباب ١ من أبواب وجوب الحج وشرائطه، الحديث ٢.

٢. نهج البلاغة: ٢٩٢، الخطبة ١٩٢ (وتسمى القاصعة).

النداء العام لزيارة البيت

أمر الله سبحانه إبراهيم أن ينادي في الناس وَيُعَلِّمُهُم بِوَجُوبِ الْحَجِّ، فكانه قال يا أيها الناس إن الله دعاكم إلى الحج فأجيئوا بليكن اللهم ليكن، في زمان النداء. ثم بشره سبحانه بأن يستجيب لندائه كثير من الناس، الذين سوف يأتون إليه من كل طريق بعيد، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

والمراد بقوله: ﴿رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي يأتونك مشاة وركبانا على ضواير من الخيل والإبل.

وقد وصف الله تعالى بيته الحرام بهذين الوصفين:

١. ﴿مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ﴾ حيث إن الناس يثوبون (يرجعون) إليه ويقصدونه كل

عام.

٢. ﴿وَأَمْنًا﴾ أي مأمنا، فمن التجأ إليه لا يخاف على نفسه مادام فيه.

ثم عظم منزلة إبراهيم، بأن أمر المسلمين أن يصلوا عند مقامه بعد طواف الفريضة، والمراد هو المقام المعروف الذي هو في المسجد الحرام، إذ جعل الله سبحانه مكان قدميه مصلى ومعبدًا يُتبرك به، كما جعل المسعى معبدًا لما مسته أقدام هاجر عندما طلبت الماء لولدها إسماعيل. ولو دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على جواز التبرك بالأمكنة التي مستها أبدان الأنبياء وأبنائهم، بل حتى النساء المؤمنات كذلك.

وقد عدّ سبحانه مقام إبراهيم إحدى الآيات بقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(١). والضمير المجرور (فيه) يرجع إلى البيت المذكور

قبله، أي في البيت ﴿آيَاتُ بَيِّنَاتٍ﴾ ودلالات واضحة ومنها مقام إبراهيم، فإن أثر قدميه في المقام آية بيّنة.

٩

الخليل والابتلاء العظيم

﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ
إِنِّي أَدْخُوكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمِرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ *
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

جرت سنة الله تعالى على اختبار عباده من غير فرق بين طائفة دون طائفة،
كاختبار الناس بعضهم بعضاً، ولكن الغاية من اختبار الله عباده غير الغاية من
اختبار الناس، فإن الهدف من الثاني هو التعرف على ما لدى الممتحن من القوة
والاستعداد، واستعلام مقدار إحاطته بموضوع الامتحان، وهذا هو المعنى السائد
في لفظ الامتحان بين الناس.

أما ابتلاؤه سبحانه لعباده، فهو ليس لأجل كشف الستر عن وجه الحقيقة،

لأنه سبحانه عالم بالسرّ والخفيات ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وإنما الغاية من ابتلاء عباده أحد أمرين:

الأول: البلوغ بالإنسان الممتحن إلى قمة الكمال المعنوي، فقد تكمن في صميم ذاته قابلية للوصول إلى الكمال، ولكنها قابلية محضة وقوة خالصة، لا تنقلب إلى الفعلية إلا إذا تعرضت للبلاء والامتحان، قال الإمام علي عليه السلام وهو يفسر قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(١): ومعنى ذلك أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه، والراضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب.^(٢)

فقوله: «لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب»، يشير إلى ما ذكرنا من أن الإنسان قد تكمن في ذاته ما يستحق به أحد الأمرين خصوصاً الثواب، فما لم يتعرض للامتحان يبقى ما يستحق به الثواب بصورة القوة الصرفة ولا يُجزى به، وأما إذا تعرض للبلاء فإن القوة تخرج إلى عالم الفعلية، الذي يظهر فيه جمال المرء وكماله، أو يبين فيه خبثه ودناءته، ومن هذا القبيل كان ابتلاء إبراهيم عليه السلام حيث أمره سبحانه بذبح فلذة كبده وثمره فؤاده، والإنسان يحب ثمرة وجوده حباً شديداً ولا يعدل به إلى غيره.

هذا من جانب ومن جانب آخر، فإن كمال العبد، هو فناؤه في حب خالقه وبارئه، وتجرده عن حب كل شيء سواه، ولا يتجلى الخلوص إلا إذا تعرض العبد للاختبار ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٣)، فثمة من

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار برقم ٩٣.

١. الأنفال: ٢٨.

٣. العنكبوت: ٢.

يسترسل مع أهوائه، ويتهالك على المال والجاه والمنصب وغير ذلك، فيُطفئ به الترف، ويستبدّ به الغرور، وتصرُّعُه المطامع. وهذا يعني الفشل في الامتحان، والتسافل، والتردي في هوة الشقاء والهوان والعصيان ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾^(١).

وهناك من يُسارع إلى طاعة الله، ويعمل ويتحرك في حدود ما يُرضي الله، (فلا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق)^(٢)، ولا يريد علواً ولا فساداً في الأرض، وهذا يعني النجاح في الامتحان، والتكامل، والارتقاء في مدارج السعادة والهناء ﴿فَمَنْ زُخِرْخِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾^(٣).

الثاني: تمييز الخبيث من الطيب، والمطيع الصادق عن المدعي الكاذب، إذ طالما يدعي إنسان أنه مطيع لربه ومخالف لهواه، وربما يكون صادقاً، فإذا تعرّضا للامتحان، تميّز الصادق عن الكاذب، والمطيع عن العاصي، وإلى تلك الغاية يشير قوله سبحانه: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٤).

ويقول في آية أخرى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٥).

وقد امتحن الله سبحانه إبراهيم للغاية الأولى ليرتقي به إلى قمة الكمال، وذلك بأن أمره بذبح ولده إسماعيل؛ الذي بشر به ووصفه بالحلم: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ

١. الحج: ١٨.

٢. نهج البلاغة: ٣٠٣، الخطبة ١٩٣ (يصف فيها المتقين).

٣. آل عمران: ١٨٥.

٤. الأنفال: ٣٧.

٥. آل عمران: ١٧٩.

بِفُغْلَامٍ حَلِيمٍ»^(١). وتوصيف الغلام بالحلم يدل على أنه كان حليماً صابراً في طريق الابتلاء والامتحان.

ولما بلغ الغلام الحليم مبلغاً من العمر يسعى فيه لحوائج الحياة عادة، وراهنق ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾، خاطبه أبوه قائلاً: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، فالآية تدل على أن إبراهيم فهم من منامه أنه أمر بالذبح^(٢) فكان الصورة العملية للذبح في المنام كانت إشارة إلى القيام بالذبح حتى يتحقق ما رآه في المنام في الخارج، ولذلك طلب من ابنه إبداء رأيه في ذلك، قائلاً: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، أي فكر فيما قلت، وعين ما هو رأيك فيه.

وجاء الرد سريعاً: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ولم يقل: «يا أبت اذبحني» إشارة إلى أنه مسلم لكل ما أمر به أبوه سواء أكان ذبحاً أم غيره. كما أن قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ نوع تطيب منه لنفس أبيه، ووعد منه بأنه لا يجزع، فيثير عواطف أبيه.

وبهذا تمت الخطوات الأولى لتنفيذ الأمر الإلهي بذبح إسماعيل بيد والده الكريم. وهذه لحظة حاسمة جداً، إذ قلما يتفق لإنسان مهما بلغ من الفضل والكمال أن يقوم بهذا الأمر بشجاعة وحماسة، وقلما يتفق لولد مهما بلغ من الصبر والحزم أن يسلم نفسه للذبح والقتل عن إيمان ورباطة جأش.

ولكن شاء الله سبحانه أن ينال خليله إبراهيم هذه الكرامة، وأن يتقلد ولده

١. الصافات: ١٠١.

٢. ذلك أن رؤيا الأنبياء تختلف عن رؤى الناس، فرؤياهم كلها صادقة تخبر عن واقع كائن، كما هو الحال في رؤيا يوسف، ولذلك لما قصها لأبيه يعقوب أمر الأب يوسف أن يكتب رؤياه، وقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ يوسف: ٥.

الحليم إسماعيل تلك الشهادة.

خرج الوالد والولد إلى منى مستسلمين لأمر الله سبحانه، فلما ألقى إبراهيم ولده على شِقِّهِ، كما يحكي سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ وأراد أن يذبحه، وافاه الخطاب ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ بإقدامك وعزمك على تنفيذ ما أمرنا به.

لقد أراد سبحانه أن يختبرهما بهذا الأمر الشاق، فلما امثلا له، وبادرا إلى الطاعة، جازاهما سبحانه بأحسن الجزاء ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، إذ كشف سبحانه عنهما هذه المحنة الشديدة بأن فدى إسماعيل بذبح عظيم الشأن ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وكان - كما ورد في الأخبار^(٢) - كبشاً أتى به جبريل من عند الله فداءً لإسماعيل.

إن ما قام به إبراهيم بقي على جبين الدهر علامة مضيئة على إخلاصه وصفائه، وإلى ذلك يشير سبحانه بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، أي أبقينا له ثناء حسناً وذكرًا جميلاً عند الناس. ثم ختم سبحانه كلامه بالسلام على إبراهيم وبإسباغ صفة العابد المؤمن عليه: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

الذبيح هو إسماعيل

ابتدأ سبحانه وتعالى قصة الذبيح بقوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وأدار الكلام حول هذا الغلام. وبعدها أتم قصة الذبيح وأنهى الكلام فيها بقوله: ﴿إِنَّهُ

١. الذبيح (بكر الذال): المهيا لأن يُذبح.

٢. راجع مجمع البيان: ٨/ ١٣٢٤ الميزان: ١٧/ ١٥٣.

٣. الصافات: ١٠٩-١١١.

مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، شرع في ذكر البشارة لإبراهيم بإسحاق: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. (١)

وهذا يدل على أن الذبيح هو الغلام الحليم، أعني: إسماعيل، وإنما بشره سبحانه بولادة إسحاق بعد الابتلاء بذبح الغلام الحليم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الذبيح غير إسحاق، ولما لم يذكر القرآن لإبراهيم إلا ولدين، تعين أن الذبيح هو إسماعيل.

ويؤيد هذا ما ذكره الطبرسي في تفسيره، قال: روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فسألني عن الذبيح؟ فقلت: إسماعيل واستدللت بقوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فأرسل إلى رجل بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده، فقال: إسماعيل، ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان من أمر الله فيه ما كان، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم.

وقال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق أم إسماعيل؟ فقال: يا أصمعي أين ذهب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان بمكة إسماعيل، وهو بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة لا شك فيه. (٢)

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين». (٣) فيما أن لآبيه

٢. مجمع البيان: ٨/٤٥٣.

١. الصفات: ١١٢.

٣. السيرة النبوية: ١/١٥٣.

عبدالله مصيراً نظير مصير إسماعيل، وبما أن أحدهما هو أب والآخر هو الجد الأعلى له سمى نفسه ابن الذبيحين.

١٠

خليل الرحمن

وطلب إراءة إحياء الموتى

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.^(١)

روى المفسرون أن إبراهيم رأى جيفة تمزقها السباع فيأكل منها سباع البر، وسباع الهواء، ودواب البحر، فسأل الله إبراهيم فقال: يا رب قد علمت أنك تجمعها من بطون السباع والطيور ودواب البحر فأرني كيف تحييها لأعابن ذلك.^(٢) لا شك في أن إبراهيم كان قوي الإيمان بيوم البعث وإحياء الموتى عن طريق العقل والوحي ولم يتسرب الشك إلى إيمانه قيد شعرة، ولكن بما أن لليقين مراتب مختلفة، فأين المشاهدة بالعين لحقيقة ما، من اليقين الحاصل بالبرهان والدليل، فقد طلب من الله سبحانه أن يريه كيفية إفاضة الحياة على الأموات ليزداد يقينه ويرى بأم عينيه السرّ الإلهي في كيفية إحياء الموتى، حتى ينقلب علم

١. البقرة: ٢٦٠.

٢. مجمع البيان: ٧/ ٣٧٢.

اليقين إلى عين اليقين.

وقد أشار سبحانه إلى مراتب اليقين في قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ
الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾^(١).

استجاب الله طلبه، وأمره أن يأخذ أربعة طيور مختلفة الأجناس، ثم
يُقطِعُهُنَّ، ويفرق أجزاءهن، ويضع على كل جبل منهنّ جزءاً، ثم يدعوهنّ، ففعل
إبراهيم ذلك، ثم دعاهنّ، فاجتمعت أجزاءهنّ، ودبت فيهنّ الحياة، وعُدن إلى
إبراهيم سعياً.

والمراد من قوله: ﴿فَصُرْمُنَّ﴾ أي اقطعهنّ، أما تعديته بلفظ «إليك» فلائنه
يتضمن - مضافاً إلى التقطيع - معنى آخر وهو أملهنّ إليك. ولعل الغاية من
تضمين الكلمة معنى الإمالة، التعرّف على شأنها لئلا يلتبس عليه الأمر بعد
الإحياء.

نظرية المنار ونقدها

ومن الآراء الشاذة ما ورد في المنار ونسبه إلى أبي مسلم^(٢) المفسر الشهير
وقال: ليس في الكلام ما يدلّ على أنه فعل ذلك، وما كل أمر يُقصد به الامتثال،
فإنّ من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر لا سيما إذا أُريد زيادة البيان، كما إذا سألك
سائل كيف يصنع الخبر مثلاً؟ فتقول خذ كذا وكذا وافعل به كذا وكذا يكن حبراً.

١. التكاثر: ٥-٧.

٢. محمد بن بحر الأصفهاني، أبو مسلم (٢٥٤-٣٢٢هـ): عالم معتزلي، مفسر، كاتب. ولي أصفهان
وبلاد فارس للمقتدر العباسي. له جامع التأويل، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.
الأعلام: ٦/٥٠.

تريد هذه كفيته، ولا تعني تكليفه صنع الحبر بالفعل. قال: وفي القرآن كثير من الأمر الذي يراد به الخبر والكلام هاهنا مثل لإحياء الموتى. ومعناه خذ أربعة من الطير فضمها إليك وآنسها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك، فإن الطيور من أشد الحيوان استعداداً لذلك ثم اجعل كل واحد منها على جبل ثم ادعها فإنها تسرع إليك، لا يمنعها تفرق أمكتها وبعدها من ذلك. كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين «كونوا أحياء» فيكونوا أحياء كما كان شأنه في بدء الخلق، إذ قال للسموات والأرض اتبيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. هذا ما تجلّى به تفسير أبي مسلم وقد أورده الرازي مختصراً وقال:

والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة، وأنكر (يعني أبا مسلم) القول بأن المراد منه فقطعهن.^(١)

يلاحظ عليه: أولاً: أنّ الخليل طلب من الله سبحانه أن يُريه إحياء الموتى، وهذا التمني لا يتحقق إلا بما ذكره المفسرون من أنه أخذ أربعة من الطيور فقطعهن وجزأهن وجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم دعاهن فأتين إليه سعيّاً. وأمّا إذا أخذ أربعة من الطير ثم جعل كل واحد على جبل وهو حي فدعاهن فأسرعن إليه ولم يمنع تفرق أمكتها وبعدها من ذلك إلى آخر ما ذكره، فهذا لا يُحقق طلب إبراهيم.

ثانياً: أنّ ما ذكره من أنه جعل كل طير حي على كل جبل لا يناسب قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا﴾، فإن الجزئية حاكية عن تقطيع الطيور ومزج لحومها بعضها ببعض حتى صار الكل شيئاً واحداً فجزأهن. والعجب أنه قال في تقرير النظرية: «ثم اجعل كل واحد منها على جبل» مع

صريح القرآن ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً لا واحداً.
وأظن أن الذي حمل صاحب المنار على التأويل البعيد و المتعسف للآية،
هو إرضاء أو مجاملة المبهورين بالكشوف العلمية آنذاك، والذين ينكرون المعاجز
والكرامات التي لا يدعمها العلم التجريبي. ومن هنا سعوا إلى إخضاع نصوص
الوحي للحس والتجربة، وفهمها ضمن هذا الإطار في محاولة للتوفيق بينهما.
وهذا منحى خطير، بعيد عن شأن المفسر الواعي الذي يستلهم من القرآن
ولا يحكم عليه ويتعلم منه ولا يكون معلماً له. فلو حاولنا تأويل كل القضايا
الغيبية الواردة في القرآن الكريم وفق الاتجاه المذكور، لأدى ذلك إلى طرح نصوص
القرآن وظواهره، وهو مما لا يقول به من يلتزم بالقرآن الكريم ويتخذه دستوراً
وإماماً.

١١

تنصيبه لمقام الإمامة

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ
وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)

الآية المباركة تدل على أنه سبحانه بعد أن امتحن إبراهيم بكلمات وابتلاه
بها وخرج من هذا الامتحان موفقاً شامخ الرأس، تفضل عليه بالإمامة ونصبه لهذا
المقام، ثم إنه عليه السلام طلب من الله سبحانه أن يمن بها على ذريته، فاستجاب الله

سبحانه دعوته لكن لغير الظالمين منهم.

وعندئذ يقع الكلام في الأمور التالية:

١. ما هو المراد من الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم؟

٢. ما هو المراد من إتمامها؟

٣. ما هو المراد من الإمام في قوله: للناس إماماً؟

٤. ما هو المراد من الظالمين الذين لا ينالهم منصب الإمامة؟

وبإيضاح هذه الأمور الأربعة يتضح معنى الآية.

١. الكلمات والابتلاء

الكلمات جمع الكلمة وهي ترادف اللفظ الموضوع، وربما تطلق على الجملة،

فيقال: لا إله إلا الله كلمة الإخلاص، يقول ابن مالك في الغنية: «وكلمة بها

الكلام قد يؤم»، وربما تستعمل في الأشياء الخارجية، ولذا سُمي الله سبحانه

المسيح كلمة: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(١)، كما أنه سبحانه

سُمي عالم الكون من جواهره وأعراضه كلمات: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ

رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(٢)، وربما تستعمل

الكلمات في مورد التكاليف التي يؤمر بها الإنسان لغاية الامتحان، وهذا هو المراد

منها في الآية المباركة وقد امتحن الله سبحانه الخليل بأوامر شاقة لا يقوم بها إلا

الأمثل فالأمثل من الناس، فقد ابتلاه بالأمور التالية:

١. ترك الوطن وإلقاء الرحل في دار الغربية لنشر الدعوة بعد إجماع قومه على

١. آل عمران: ٤٥.

٢. الكهف: ١٠٩.

إحراقه، وقد حكى سبحانه عنه ذلك بقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهْدِينَ﴾^(١).

٢. بعد أن استقر به المقام في دار الغربية ورزق بولده إسماعيل، أمره الله سبحانه بإسكان أهله وولده بواد غير ذي زرع. فأسكنهم هناك، صابراً على لوعة فراقهم، طاوياً ضلوعه على لواعج الشوق إليهم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾^(٢).

٣. أمره سبحانه بعمارة البيت ورفع قواعده وتطهيره: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٣).

٤. أمره سبحانه بذبح ولده، فامتثل أمره، وعزم على تنفيذه برحابة صدر وتسليم مطلق لله سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَىٰ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ إِنِّي أَدْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٤). وبما أن الاستسلام لأمر ذبح الولد والرضا به، يعد من أقوى مظاهر الابتلاء، وصفه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾^(٥).

بهذه المواقف والأعمال قامت الحجة على خلوق قلب إبراهيم من كل شيء سوى حبه لله سبحانه وإيمانه به، ووفائه بما عهد إليه من أوامر وتكاليف.

٢. ما هو المراد من الإتمام؟

هذا كله حول الابتلاء وأما الإتمام فربما يطلق ويراد به ما يقابل النقص

١. الصافات: ٩٩.

٢. إبراهيم: ٣٧.

٣. البقرة: ١٢٥.

٤. الصافات: ١٠١-١٠٢.

٥. الصافات: ١٠٥-١٠٦.

وأخرى إبلاغ الشيء حدّ الكمال، يقول سبحانه: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. (١)
 وعلى ضوء ذلك فالمراد من إتمام الكلمات هو القيام بها حق القيام، وأداؤها
 على أحسن وجه، كما في قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ
 الَّذِي وَفَّىٰ﴾ (٢)، أي تمّ وأكمل ما امتحن به، ويؤيد ذلك أن الفاعل في وفتى (هو
 إبراهيم) كما أن الفاعل في أتممت (هو إبراهيم).

٣. ما هو المراد من الإمام؟

الإمام في اللغة كما ذكر صاحب القاموس: ما يتعلّمه الغلام كل يوم من
 رؤوس الأقلام. وما امتثل عليه من إمام ودليل، وخشبة يسوى عليها البناء. (٣)
 وهذه العبارة من صاحب القاموس توصلنا إلى المعنى الأصيل لهذا اللفظ، وهو
 أنّ الإمام عبارة عن كل شيء يتخذه الإنسان مثلاً لعمله ودليلاً لفعله ويطبق
 فعله وعمله على ذلك المثال والدليل.

هذا هو المعنى الأصلي لهذه الكلمة، وعلى هذا الأساس استعملت في
 القرآن المجيد في الموارد التالية بما أنّها من مصاديق ذلك الجامع:

أ. التوراة إمام: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. (٤)

ب. الطريق الذي تمشي عليه القوافل إمام: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَإِمَامٍ

مُبِينٍ﴾. (٥)

٢. النجم: ٣٦-٣٧.

١. المائدة: ٦.

٣. القاموس المحيط: مادة «أم».

٤. هود: ١٧.

٥. الحجر: ٧٩.

ج. قادة الفكر والانحراف أئمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾^(١).

فالمعنى في الجميع واحد، وهو الدليل الذي يهتدى به، والمثال الذي يمثل به، وإن كانت التطبيقات مختلفة، فالتوراة إمام، لأنها يقتدى بها؛ وطريق القوافل إمام، لأن القوافل تتخذة دليلاً وتمشي عليه؛ وقادة الكفر بل جميع القادة أئمة، لأن المقتدين يتخذونهم مثلاً في الحياة ويمشون على آثارهم حتى أن الأنبياء جميعهم أئمة بهذا المعنى، فإن عمل وقول النبي ﷺ وتقريره تتخذ مثلاً ودليلاً يسار على ضوئه.

وهذا ما قلنا من أن معنى الإمام في الذكر الحكيم لا يختلف عن المعنى الذي نصت عليه الكتب اللغوية حتى الإمام في الآية المباركة، فقد استعمل فيها الإمام بالمعنى اللغوي لا غير، وهو الدليل والمثال والأسوة والمقتدى، غير أن ما يجب التدبر فيه هو الوقوف على الملاك الذي جعل به الخليل عليه السلام إماماً، فهل هو لأجل كونه نبياً أو رسولاً أو خليلاً، أو كونه مفترض الطاعة، أو غير ذلك من الملاكات المختلفة التي تُصحح كون الإنسان إماماً؟

ما هو الملاك في إمامة الخليل عليه السلام؟

إذا كان الإمام بمعنى الأسوة والمقتدى فيجب أن نقف على ما هو السبب من تخصيص الإمامة بالخليل دون من تقدمه من الأنبياء أو عاصره. وقد اختلفت كلمة المفسرين في بيان ذلك الملاك، وسوف نسردها هنا مع التحليل.

الملاك الأول: الملاك هو النبوة

ذهب غير واحد من المفسرين ومنهم الرازي في مفاتيح الغيب إلى أنّ الإمامة هي النبوة.^(١)

وهذا هو أيضاً مختار صاحب المنار قال: الإمامة هنا عبارة عن الرسالة وهي لا تنال بكسب الكاسب وليس في الكلام دليل على أنّ الابتلاء كان قبل النبوة.^(٢)

وكي نتوصل إلى حقيقة الأمر، نشير إلى مراحل حياة إبراهيم التي عرضها القرآن الكريم، والتي تساهم في إلقاء الضوء على هذا الموضوع.

١. كان ﷺ صاحب ذرية، عندما تفضل عليه سبحانه بالإمامة، بشهادة أنّه طلبها لبعض ذريته ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وهذا يعني أنّه كان صاحب ذرية عند نصبه إماماً.

٢. أنّه لم يُرزق بولديه إلا بعد أن هاجر من بلاده إلى الأرض المباركة، وأصبح شيخاً كبيراً، بدليل قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.^(٣)

٣. أنّه كان نبياً قبل هجرته من بلاده، حيث ناهض فيها المشركين، وحطم أصنامهم، وتحمل الصعاب والآلام في سبيل دعوتهم إلى التوحيد ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ إذ قال لأبيه يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾.^(٤)

١. مفاتيح الغيب: ١/ ٤٩٠.

٢. المنار: ١/ ٤٥٥.

٣. إبراهيم: ٣٩.

٤. مريم: ٤١.

وبملاحظة هذه النقاط، يُعلم أنه قد خُصَّ بالإمامة بعد فترة طويلة من نبوته، وبعد مسيرة حافلة بالأحداث والابتلاءات. وبهذا يتبين أن تفسير الإمامة بالنبوة غير صحيح.

الملاك الثاني: كونه أسوة لمن بعده

إنَّ الله سبحانه بعث الخليل بشريعة لم تُنسخ برحيله، بل أمر المبعوثون من بعده بالسير على ضوئها، وبذلك صار إماماً للناس باعتبار تبعية أنبيائهم له. وهذا مقام شامخ تبوأه الخليل، باستحقاقه ولياقته.

ويؤيد ذلك أنَّ الله سبحانه وصف كتاب موسى إماماً باعتبار أنَّ الأنبياء الذين بُعثوا بعده كانوا يعملون بشريعته ويتبعون كتابه وأحكامه، يقول سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾^(١).

توضيح الآية: أنه سبحانه يصف المؤمنين بنبوة محمد ﷺ بأنهم آمنوا بدعوة الرسول الخاتم بدلائل تدلُّ على صحة دعوته. وهذه الدلائل تتلخص في أمور ثلاثة:

الأول: نفس القرآن الكريم، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ﴾، والمراد من البينة هو القرآن. فتحديه بالقرآن آية كونه من جانب الله سبحانه.

الثاني: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾، أي الله يشهد بصحة نبوته، فلو كان الضمير في «منه» عائداً إلى الله كما مرّ، فالمراد به جبرئيل لأنه يتلو القرآن للنبي.

الثالث: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي قبل القرآن، ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ يشهد على صدق نبوته، لأن موسى الكليم بشر بنبوته في التوراة.

وأما سرّ كون كتاب موسى إماماً فلأجل أنّ التوراة يُؤتم بها في أمور الدين، ورحمة ونعمة من الله تعالى على عباده. فالذين بعثوا بعد الكليم، كانوا يسرون على ضوء التوراة في كافة المجالات، فلو وُصف كتاب موسى بالإمامة فصاحب الكتاب أيضاً إمام لمن بعده، يُؤتم به في الأقوال والأفعال.

ومع ذلك كله فلم يوصف المسيح ولا إنجيله بالإمامة، ولعلّ الوجه أنّه لم يكن صاحب شريعة مستقلة بل كان مأموراً بالعمل بالتوراة، غير أنّه ربما يُجَلّ لهم بعض ما حُرّم عليهم كما يقول سبحانه: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (١).

وهناك احتمال آخر وهو أنّه سبحانه لم يذكر إمامة المسيح وكتابه لأجل أنّ طرف الخطاب هم اليهود، وهؤلاء لم يكونوا مؤمنين بالمسيح.

وبذلك يعلم أنّ النبي الخاتم أيضاً إمام، لأنّ شريعته عالمية، وقد أمر الإنسان بالعمل بها إلى يوم القيامة، فهو إمام للناس بأقواله وأفعاله وكتابه، وإن خُتمت به النبوة وليس بعده أيّ نبي يأتي به في كتابه وسنته، لكنّه إمام باعتبار دوام شريعته إلى يوم القيامة. وعلى كلّ تقدير فهذا مقام عظيم يناله الأفضل فالأفضل من الأنبياء العظام، ولا شك أنّ الخليل رُزق هذا المقام واختص به بعد اختبارات وامتحانات أهله للصدارة والإمامة. ولعلّ هذا الوجه حول تفسير الإمامة أفضل من الوجه الأول.

ولو أردنا أن نلخص هذا الوجه فنقول: المراد بالإمام هم الأنبياء أصحاب الشريعة المستقلة المعبر عنهم في مصطلح المتكلمين بأولي العزم.

سؤال وإجابة

يلاحظ على هذه النظرية أنه لو كان ملاك الإمامة كون النبي في القمة بالنسبة إلى سائر الأنبياء أو من يؤتم به إلى يوم القيامة لانحصر مصداقه بالأنبياء الخمسة أو الأربعة (أولي العزم)، ولكن القرآن الكريم يصف جمعاً من الأنبياء بالإمامة وليس لهم هذا الشأن، قال تعالى: ﴿وَنَجِّنَاهُ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (١).

وهذا يعرب عن أن الإمامة في القرآن الكريم تهدف إلى معنى آخر يشمل هؤلاء الذين لم يكونوا في القمة من النبوة، حتى يكونوا أصحاب شريعة وكتاب يأتهم بهم المبعوثون من بعدهم.

الملاك الثالث: كونه مفترض الطاعة

هذه النظرية تتلخص في أن المقصود بالإمام في هذه الآية هو الحاكم السائد على المجتمع، والأخذ بيد الأمة إلى الكمال في الحياة الفردية والاجتماعية، فيجب على الأمة امتثال أوامره وتوجيهاته في الحقول السياسية والاجتماعية والقضائية والعسكرية. وهذا المنصب غير منصب النبوة والرسالة، فإن منصب النبوة يتلخص في كون الإنسان متصلاً بالله تعالى متلقياً عنه الوحي ومتحملاً عنه

النبأ، كما أن منصب الرسالة يتلخص في إبلاغ ما أمر به للناس، فمقام النبوة هو مقام تلقي الوحي والاطلاع عليه كما أن مقام الرسالة هو مقام الإبلاغ والبيان، فمن صار نبياً فرسولاً - ما لم يكن إماماً - ليس له أمر ولا نهي ولا سيطرة على الناس، وإنما شأنه التعليم والتبيين، وفي الآيات التالية يتجلى معنى النبوة أولاً والرسالة ثانياً، قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^(١)، وقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٢).

وعلى ضوء ذلك فلو بلغ النبي ما شرع الله سبحانه لهم من الصلاة والصوم والحج والزكاة فهم مطيعون لله دون أن يكون هناك إطاعة للرسول، ولو نسبت الإطاعة إلى الرسول ﷺ فهو بضرب من المجاز، يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣).

هذا إذا قصرنا النظر على مجالي النبوة والرسالة، ولكن عندما يلبسه الله ثوب الإمامة وينصبه لذلك المقام، يكون عندئذ صاحب رأي وعزم وأمر ونهي، وقائداً للأمة، نافذاً حكمه في الحقول المختلفة سياسياً وعسكرياً وغيرها، وعند ذاك يقوم بوظائف الإمامة من نصب القضاة والحكام وإجراء الحدود، وحفظ الثغور، والأمر بالجهاد في سبيل الله إلى غير ذلك مما يقوم به ساسة البلاد والعباد، وهذه هي الإمامة التي وهبها الله سبحانه لقليل من الأنبياء وفي مقدمتهم - بعد الخليل - موسى وعدد ممن جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل، والنبى الأكرم ﷺ على ما مر.

دل القرآن الكريم على أنه سبحانه أتى آل إبراهيم أموراً ثلاثة: الكتاب والحكمة والملك العظيم. قال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

٢. المائدة: ٩٢.

١. الغاشية: ٢١-٢٢.

٣. النساء: ٦٤.

فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿١﴾.

والكتاب والحكمة واضحان، فالكتاب رمز الوحي والنبوة، والحكمة هي السنة وجوامع الكلم. وإنما الكلام في «الملك العظيم» الذي أعطاه الله سبحانه المصطفين من آل إبراهيم من غير فرق بين ولد إسماعيل وأخيه إسحاق.

فباقتران هذه الآية التي أخبر فيها سبحانه أنه أعطى آل إبراهيم الملك العظيم بآية الابتلاء، التي استجاب فيها سبحانه دعاء إبراهيم في أن يهب المصطفين من ذرية إبراهيم الإمامة، يتبين أن الإمامة الموهوبة لهم (التي دللنا أنها غير النبوة والرسالة) هي نفس «الملك العظيم» الذي يدل ظاهر الآية على أنه غير النبوة والرسالة، لعطفه على الكتاب والحكمة اللذين يعدان رمز الوحي ونزوله والاتصاف بالنبوة.

ولا يصح حمل الملك العظيم على النبوة أو الرسالة للاستغناء عنهما بما تقدم من إيتاء الكتاب والحكمة، كيف؟ ونزول الكتاب والحكمة دليل على كون المنزل عليه نبياً، يأتيه الوحي بلا واسطة فلا حاجة لتكراره مجدداً، ولذلك اقتضت بعض الآيات على ذكر الكتاب والحكمة عندما يكون الهدف بيان منصب النبوة والرسالة دون الإمامة، قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(٢)، فالآية تهب ببني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم حيث بعث فيهم الأنبياء والرسل، كما امتن سبحانه على النبي الأعظم ﷺ بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَهَلَمَّا مَا لَمْ تُكُنْ تَعْلَمُ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من

١. النساء: ٥٤.

٢. البقرة: ٢٣١.

٣. النساء: ١١٣.

الآيات التي وردت فيها هاتان الكلمتان.

وإن شئت قلت: إن قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١) تدل على أنه سبحانه أعطى منصب الإمامة لإبراهيم وبعض ذريته.

كما أن قوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٢) تدل على أنه سبحانه أعطى آل إبراهيم بعد الكتاب والحكمة، الملك العظيم، فباقتران الآيتين نخرج بهذه النتيجة: أن الإمامة المعطاة لآل إبراهيم هي الملك العظيم فيتحدان حقيقة ومصداقاً، فإذا كان ملاك الإمامة في الذرية هو كونهم ذوي ملك عظيم، فيصبح ملاكها في نفس الخليل أيضاً ذلك.

ثم إن هناك آيات تدل على أنه سبحانه تفضل بالملك على أولاد إبراهيم، نظير:

١. يوسف عليه السلام، حيث يشكر الله سبحانه، ويقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٣).

فالمراد من الملك في هذه الآية هو الملك العظيم في الآية السابقة لها، ومرجعها إلى رئاسة المجتمع في عامة الحقول.

٢. داود عليه السلام، امتن الله سبحانه عليه بقوله: ﴿وَأَنَاهُ اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ

مِمَّا يَشَاءُ﴾^(٤).

١. البقرة: ١٢٤.

٢. النساء: ٥٤.

٣. يوسف: ١٠١.

٤. البقرة: ٢٥٢.

وقال أيضاً في شأنه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابَ﴾^(١).

٣. سليمان بن داود عليه السلام، حباه الله بالملك استجابة لدعائه الذي قال فيه:

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٢).

٤. طالوت، وهو من بني إسرائيل، جعله الله ملكاً عليهم لكي يقاتل

جالوت، قال سبحانه مخاطباً إياهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْعَمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

وعلى ضوء هذا فالإمامة الموهوبة من الله سبحانه لإبراهيم هي الرئاسة العامة في الدين والدنيا، ثم إن إبراهيم طلب من الله أن يهبها لبعض ذريته، فاستجاب له سبحانه، ووفى بوعدده، إذ وهبها لذريته الصالحين، وقد ذكر تعالى أسماءهم في القرآن، مثل يوسف وداود وسليمان، ولعل هناك ملوكاً آخرين من صلب إبراهيم تولوا الملك ودبروا أمور أممهم، ولم يذكرهم القرآن.

والفارق كبير جداً بين من يهبه الله الملك ويجعله ملكاً، فيقيم العدل، ويحكم بالقسط، ويشيع الأمن والسلام، ويصلح في الأرض، وبين من يسعى إلى الملك بكل وسيلة، ويتهمز كل الفرص - مهما كانت - للوصول إلى غاياته، فيستبد، ويستأثر، وينشر الظلم والفساد، وهؤلاء هم المعنيون بقول ملكة سبأ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٤).

١. ص: ٢٠.

٢. ص: ٣٥.

٣. البقرة: ٢٤٧.

٤. النمل: ٣٤.

ولعلَّ الوجه في أنه سبحانه ذكر «القُدوس» بعد أن ذكر «المَلِك» كأحد أسمائه إلى أن مُلكه سبحانه غير ملك غيره، والغير إذا لم يكن معصوماً لا يخلو عمله من ظلم وتعدٍ، بخلافه سبحانه، فإنه أجل من أن يظلم أو يعتدي على أحد.

١٢

مناجاة إبراهيم وأدعيته

ذكر القرآن الكريم نماذج رائعة من ابتهالات المنيب الأواه إبراهيم عليه السلام إلى ربه العليّ الكريم، وهي غنية بمعانيها ومعطياتها وأهدافها السامية. ونودّ أن نشير هنا إلى فائدتين مهمتين، يمكن استخلاصهما من الخط العام لأدعيته عليه السلام، وهما:

١. معرفة طبيعة أسلوبه في الدعاء والمناجاة والتذلل لله سبحانه، لترسّمه والسير على ضوئه.

٢. طرح المعاني والأهداف الكبيرة في الدعاء، ورفع الإنسان إلى مستوى المسؤولية والاهتمام بالقضايا الكبرى التي تواجهه في حاضره ومستقبله وفي دنياه وآخرته.

وسوف نتضح لنا هاتان الفائدتان من خلال عرض أدعيته عليه السلام:

أ. ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. (١)

إنه يدعو الله تعالى أن يمنّ على هذا البلد بنعمتين عظيمتين: سيادة الأمن والسلام فيه، وتمتّع أهله بالخيرات.

ولا شك في أن هاتين النعمتين ضمانه لاستقرار الحياة ونمائها وازدهارها. وتتجلى لنا أهميتها أكثر إذا ما ألقينا نظرة على الشعوب المضطهدة اليوم، والتي فقدت أمنها وسلامها، وشاع فيها الخوف والذعر، وأدمنت الفقر والحرمان، بسبب الظلم والقهر والاستغلال الذي يمارسه المستبدون وأصحاب الامتيازات، والحروب التي تشنها الطغاة والمستكبرون لتحقيق مآرب شيطانية تختفي خلف شعارات براءة وكلمات مزخرفة.

ب. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١)

تتجلى في هذا الدعاء الروح الإيمانية والإخلاص في العمل والانقياد المطلق لمن بيده أزمة الأمور ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾.

كما يتجلى لنا الهمّ الكبير الذي يحمله إبراهيم وولده إسماعيل تجاه الأجيال اللاحقة، وهما ينظران من وراء ستر شفيف إلى مستقبلها الذي يدعوان الله أن يكون زاهراً في ظل الهداية الربانية، وتزكية النفوس من الشرك والآثام.

وقد تحققت هذه الدعوة ببعثة النبي الأكرم محمد ﷺ الذي هدى الله به

الناس من الضلالة، وأنقذهم من الجهالة.

قال الإمام علي عليه السلام: «إلى أن بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله لإنجاز عِدَّتِهِ، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سئاته، كريماً ميلاده. وأهل الأرض يومئذٍ مللٌ متفرقةٌ، وأهواءٌ متشعبةٌ، وطرائقٌ متشعبةٌ، بين مُشَبِّهٍ لله بِخَلْقِهِ، أو مُلْحَدٍ فِي اسْمِهِ، أو مشيرٍ إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة»^(١).

ج. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٢).

﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٣).

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٤).

تشيع هذه الباقية من الأدعية أجواءً معطرة تشفّ فيها الروح، وتسمو فيها النفس، ويطمئن القلب، حيث الارتباط القوي بالله، والشعور بوجوده في كل شيء، والاستعانة به في كل الأمور. فهو العالم بالسرائر والخبير بالضمائر، والمحيط بكل شيء علماً. إليه المنتهى، وعليه يُعرض الخلق، فالسعيد منهم من أتى الله بقلب سليم، (والشقي من انخدع لهواه)^(٥) واغترّ بأمواله وبنيه.

١. نهج البلاغة: ٤٤، الخطبة (١).

٢. إبراهيم: ٣٨.

٣. الشعراء: ٨٧-٨٩.

٤. المتحنة: ٤.

٥. نهج البلاغة: ١١٧، الخطبة ٨٦.

خلاصة قصة إبراهيم عليه السلام

ولد إبراهيم عليه السلام في مجتمع، يعكف فيه أفراده على عبادة الأصنام، وعبادة الكواكب، وفي بلد (بابل) يتشر فيه الشرك في كل زاوية من زواياه، ودخل كل بيت حتى بيت أبيه أزر.

وكان إبراهيم ذا ملكات عالية واستعدادات فطرية متميزة، تسامى بها على مجتمعه، فلم يتأثر بعقائده وطقوسه، بل نشأ منذ نعومة أظفاره وهو يمقتها ويؤزري عليها، وقد علم الله منه ذلك، فأتاه رشده، وزاده بصيرة في رؤيته، فأخذ يحاور أباه أزر بشأن الأصنام، وقدم له أفكاراً واضحة عنها، لا لبس فيها ولا تعقيد ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ كاشفاً له عن حقيقة الأصنام، داعياً إياه إلى سبيل الرشاد، معللاً ذلك بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾، ويواصل حواراً معه بأسلوب كله رفق وحنان، قائلاً له: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾، ولكن «أزر» أعرض عن هذه الدعوة، إذ بينه وبينها حجاب غليظ من الجهل و التقليد، ولم يتحرك قلبه لهذه العاطفة، بل جابه إبراهيم بقسوة وغلظة وصلف، قائلاً له: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾.

لم يتخل إبراهيم عن مسؤوليته تجاه أبيه، ولم يزل يطمع في هدايته وإنقاذه من وهدة الضلال، فخاطبه بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي

﴿حَفِيًّا﴾

ولمّا أحسّ منه الإصرار على الضلال، أعلن البراءة منه، ضارباً المثل الأعلى في إخضاع عاطفته وتوجيهها بما يخدم رسالته الإلهية.

ودارت حوارات بين إبراهيم وقومه الذين كانوا يلهجون بذكر الأصنام وتقديسها، وحاول أن يبصرهم بحقيقة الأصنام، فخاطبهم بقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾. إنهم يعلمون أنها لا تملك من ذلك شيئاً، فماذا يجيبون وليس عندهم دليل أو برهان على إثبات ربوبيتها؟ إذن لابد من إحضار الجواب الذي ما فتىء يردده أسلافهم، والذي يشطبون به على عقولهم ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾.

وهنا انتفض إبراهيم، وراح يقرع أسماعهم بقوة، غير هتّاب ولا وجيل، لعلهم يستفيقون من غفلتهم ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: إن كثرتكم وامتداد وجودكم في أعماق التاريخ لن يجعلكم محقين، مادمتم تؤمنون بعقيدة فاسدة.

ثم أخذ يلفت أنظارهم إلى حقيقة الرب الذي ينبغي أن يُطاع ويُعبَد، إنّه الخالق المقتدر المالك لأزمة الأمور ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

واتبع ﷺ في تزييف عقيدة عبدة الأجرام السماوية أسلوباً حكيماً، أظهر فيه إقراره بعقيدتهم في كونها أرباباً، لكسب ثقتهم، واستدراجهم إلى استماع حجته في بيان فساد تلك العقيدة. تطلع ﷺ إلى السماء، فرأى الأجرام الثلاثة (أحد الكواكب، والقمر، والشمس) كلاً في وقت بزوغه، فقال مجازةً لهم: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فلما أفلت هذه الأجرام، ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، فالمدبر من لا ينقطع فيضه

وعطاؤه، وعندئذ توجه إلى الرب الذي يستحق العبادة، وهو الخالق البارئ المصور، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

استنفذ إبراهيم كل أساليب الحوار مع قومه في دعوتهم إلى التوحيد ونبذ الشرك، وكأنه كان ينفخ في رماد، ولذا قرّر النزول إلى الساحة، ومواجهتهم ببرهان عملي فيه الكثير من الجرأة والشجاعة والتحدي. انتهز عليه السلام فرصة غيابهم عن البلد، ودلف إلى هيكلهم الذي نُصبت فيه آهتهم المزعومة، وطفق يضربهم جميعاً (باستثناء كبير لهم لغاية يرومها) حتى جعلهم قطعاً متناثرة.

ولما قدم القوم، ورأوا ما حل بأصنامهم، راعهم ذلك، ووجهوا الاتهام إلى إبراهيم لعلمهم برأيه فيهم، فأحضر عليه السلام، واستجوب أمام الجموع، فقال: قد فعل ذلك كبير الأصنام، وأضاف بقصد إلزامهم الحجة: ﴿فَأَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

صدم القوم بهذه الحقيقة، فاعترفوا - تحت تأثير هذه الصدمة - بخطئهم وجهلهم، ثم عادوا إلى مكابرتهم وعنادهم، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

كان إبراهيم ينتظر منهم إقرارهم هذا، فقال مندداً بهم ومعتفاً: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفْلَآءَ تَعْبُدُونَ﴾.

لم يجد القوم ما يسترون به ضعفهم أمام هذا البرهان القاطع، إلا أن يلجأوا إلى القوة في التعامل مع إبراهيم، فأمرؤا بإحراقه، ولكن الله تعالى أنجاه من النار، قائلاً لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وكان الملك في عهد إبراهيم (وهو نمرود، كما في التفاسير) يدعي الربوبية، فناظره إبراهيم في ذلك، قائلاً له ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فقال الملك مغالطاً ومموهاً ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وذلك - كما جاء في الروايات - بأن أخذ رجلين محكومين بالقتل، فأقتل أحدهما، وأطلق الآخر. لم يضيق إبراهيم وقته في كشف هذا التمويه والخذاع، بل جابه بهذا البرهان الساطع، قائلاً له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، فدهش الملك، ولاذ بالصمت.

عزم إبراهيم على مفارقة قومه بعد يأسه من استجابتهم لدعوته، فهاجر إلى الأرض المباركة (فلسطين)، وظل يدعو فيها إلى الله سبحانه إلى أن تقدمت به السن، ثم جاءت البشارة بولادة إسماعيل، ثم البشارة الأخرى بولادة إسحاق.

وقام ﷺ بأمر من ربه بإسكان ولده إسماعيل وأمه (هاجر) في أرض مكة (وهي أرض جرداء)، وعاد هو إلى موطنه (فلسطين)، ثم أخذ يتردد إليهم بين الفينة والأخرى إلى أن أوحى الله إليه ببناء أول بيت للناس، وجعله مثابة لهم، يعبدون فيه الله وحده، ويأمنون فيه على حياتهم وأموالهم، فبناه ﷺ بمشاركة ولده إسماعيل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

ثم جاءه الأمر الإلهي (في رؤيا رآها) بذبح فلذة كبده إسماعيل، فلم ينكص ولم يتأخر، بل استقبل هو وابنه إسماعيل هذا الأمر الخطير برحابة صدر وإيمان وتسليم مطلق لله تعالى، وأسرعاً إلى تنفيذه، فلما ألقاه على الأرض، لياشر عملية الذبح، جاءه النداء الإلهي أن كُفَّ عن ذلك، فقد فدينا ابنك بذبح عظيم، وكذلك يجزي الله المحسنين.

اتسم إبراهيم ﷺ بصفات جليلة ومزايا سامية، إذ استسلم لله في كل شؤونه، وعمل لمرضاته، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، واصطفاه للرسالة،

فعاشر همها بكل كيانه، ورفع درجاته، واتخذ خليلاً لسلامة قلبه ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وحلمه وكثرة رجوعه إلى الله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ووفائه بعهدہ ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، وكان أمة في فضائله وعلمه ويقينه وجهاده وصبره وتضحياته، ولذا استحق مقام الإمامة الرفيع ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

١٣

الدروس والعبر

في قصة إبراهيم العديد من الدروس والعبر التي تُثري تجربة الإنسان الرسالي، وتضيء له طريق سيره إلى الله، وإليك جانباً منها:

١. إن السجايا الكريمة والخصال الحميدة التي تحل بها إبراهيم، والمنزلة السامية التي تبوأها عند الله وعند الناس، هي من ثمار علاقته الصادقة مع الله، ومسارعة إلى طاعته وامتنال أوامره ونواهيه، وتحركه في نطاق مرضاته، واستشعار وجوده وهيمته في كل ما يصدر عنه من قول وفعل وما يتخذه من موقف.

ومن أهم الأحداث التي يتجلى فيها تفانيه في ذات الله، هو إقدامه على ذبح مهجة قلبه إسماعيل عن رضاً وتسليم مطلق، طاعةً لله وامتنالاً لأمره، وتعبيراً عن التضحية بأعز شيء على قلبه في سبيل مبدئه.

وهذا درس بليغ للقادة والزعماء وأصحاب المسؤوليات الكبيرة الذين يسارعون إلى تلبية رغبات أبنائهم وأحبائهم، ويحرصون على إرضائهم على حساب رسالتهم وأهدافهم التي ينبغي عليهم تحقيقها، بل قد يخضعون لأفكارهم

وتوجهاتهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

٢. مارس إبراهيم عليه السلام خلال مسيرته في الدعوة إلى الله سبحانه أساليب متعددة في الحوار والمناظرة، وهي تُبنى عن ذكائه في اختيار الأسلوب الذي ينسجم مع طبيعة الموقف، وخصوصية الطرف الذي يدور معه الحوار، كما تُبنى عن سعة معلوماته ومعارفه التي يستند إليها في بيان أفكاره وإثباتها، وفي نقد آراء ومعتقدات الآخرين، ودحض شبهاتهم ومفترياتهم.

والإنسان العامل في سبيل الله، أحوج ما يكون اليوم إلى ابتكار أساليب جديدة في حواراته ومناقشاته، وإلى التزوّد من العلم اكتساب الثقافة في مختلف المجالات، ليصبح مؤهلاً لخوض هذا الميدان بحكمة وقوة، خصوصاً ونحن أمام غزو ثقافي سافر، وشيوع مختلف التيارات الفكرية والمذاهب الفلسفية.

٣. إن المتبني لبعض الأفكار والعقائد الباطلة بدافع الجهل والغرور أو التقليد أو المصلحة الضيقة، لا ينفع معه كل برهان وحجة ودليل، وإذا ما أُفحم في موقفٍ ما، واضطرّ للإقرار بخطئه في لحظة اصطدامه بقوة الحقيقة، فإنه لا يلبث أن يعود إلى سجيته في العناد والمكابرة، وإنكار الحقيقة. وهذا ما حدث لقوم إبراهيم الذين قرع أسماهم بهذه الحجة «فَأَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» مشيراً إلى أصنامهم المحطّمة، فرجعوا إلى أنفسهم قليلاً واعترفوا بأنهم ظالمون بعبادتهم لها، ولكنهم نكسوا بعد ذلك على رؤوسهم، وعادوا إلى ضلالهم.

ومن هنا يجب عدم التسرع في الاطمئنان إلى الأشخاص الذين يبدوون موقفاً أو رأياً صائباً في بعض الأحيان، أو يعترفون بخطئهم أو يتراجعون عن بعض أفكارهم في لحظة مواجهة الحقائق الدامغة، كما ينبغي التريث في إسباغ صفة الفضيلة عليهم، إلا إذا حصل اليقين بصدق ودوام هذا الموقف والاعتراف و

التراجع، عبر متابعة أفكارهم ومواقفهم لفترة طويلة وفي ظروف مختلفة.

ومما يصب في هذا الاتجاه قول الشاعر المفلح أبي فراس الحمداني عليه السلام وهو

يخاطب الحكام العباسيين:

باؤوا بقتل الرضا^(١) من بعد بيعته

وأبصروا بعض يومٍ رُشدهم وعموا

يا عُصبة شقيث من بعد ما سعدت

ومعشراً هلكوا من بعد ما سلموا

٤. أبدى إبراهيم وهو يضطلع بمسؤولياته في الهداية والإرشاد و الدعوة

إلى الحق والخير، أبدى شجاعة فريدة، وبسالة نادرة في مواجهة قوى الشرك

والضلال والانحراف، ولم يُبالِ جمعهم وكيدهم وطفياهم، فقد تحدى قومه

المشركين في أعز مقدساتهم التي صنعنها أوهامهم، وراح يحطمها بيمينه، كما أنه لم

يخشّ مقابلة ملكهم الجبار الذي ادعى الربوبية، والتصدي لمناظرته وتزييف

ادعائه.

والسرّ في هذه الجرأة والشجاعة، هو إيمانه العميق بالله، وتوكله عليه، وثقته

به وبرسالته، وبقينه بصحة موقفه، وإعراضه عن الدنيا وزخرفها.

٥. لا يتورّع الطغاة حين يعجزون عن مواجهة الرساليين وأصحاب المبادئ

الحقة، لا يتورّعون عن ممارسة القمع والظلم و القهر، واستخدام أبشع وسائل

القتل والتنكيل. وهذا ما تُبرزه لنا هذه القصة، حيث صدر الحكم على إبراهيم

١. الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، عُيّن ولياً للعهد في زمن المأمون العباسي، ثم سُقي السم، فمات

شهيداً غريباً في طوس، وذلك في سنة (٢٠٣هـ).

بإحراقه، فبنوا له بنياناً وسعروا فيه النيران، وألقوه فيها، ولكن الله تعالى أنجاه منها بقدرته.

وفي هذا اليوم^(١) الذي نكتب فيه هذه الكلمات، تجسدت روح الشر لدى الطغاة بأبشع صورها، إذ هاجمت الطائرات الإسرائيلية أحد المباني في بلدة (قانا) بجنوب لبنان، كان قد احتمت به العائلات الهاربة من جحيم قذائفهم التي تدمر المنازل وكل شيء منذ تسعة عشر يوماً بدعم مباشر من أميركا، وقد راح ضحية هذا العمل الإرهابي والجريمة المروعة نحو (٦٠) شخصاً، نصفهم من الأطفال، كما أصيب العشرات بجروح.

ومن مهازل الدهر أن هذا يحدث في ظل سعي أميركا إلى إقامة ما يُسمى بـ(الشرق الأوسط الجديد) وتحت غطاء نشر الديمقراطية.

وأتساءل: ألم تستطع كل هذه القرون المتهادية بين عصر إبراهيم وعصرنا هذا، ترويض النزعة الشريرة لدى سفاكي الدماء؟ وهل ذهبت هدراً كل جهود المصلحين ورجال التربية، ونحن نرى العالم يضح بالظلم والفساد والإرهاب؟ وهل بقي ظلٌّ - ولو محدود - لشعارات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان؟! إن هذه الأسئلة المنطلقة من أفواه المظلومين والمضطهدين، ستبقى دون جواب إذا استمرت في طرق أبواب قلعتي الأقوياء المستبدين: مجلس الأمن، والأمم المتحدة، ولم تستمد جوابها من عزيمة الأحرار وإرادتهم وانتفاضتهم.

٦. بلغ إبراهيم عليه السلام من حيث الكمالات النفسية إلى درجة أن جعل الله سبحانه موطن قدمه موضعاً للعبادة، قائلاً جلّ من قائل: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾، بل جعل موطن أقدام زوجته (هاجر) محلاً للعبادة والطاعة لله،

حيث إنَّ المسعى هو خطواتها المتلاحقة التي سعت بها إلى طلب الماء لصغيرها إسماعيل.

٧. جرت سنة الله تعالى على العناية بعباده المؤمنين وإنقاذهم من الشدائد، فأبراهيم عليه السلام الذي وهب قلبه لله، قد ترك زوجته وصغيرها في وادٍ مقفر لا زرع فيه ولا زرع، استجابة لأمر الله، وطبيعة الحال كانت تشير إلى هلاكهما، ولكن الله سبحانه نظر إليهما بعين رأفته، وأمدّهما برعايته وفضله.

٨. إنَّ إبراهيم عليه السلام بنى البيت الحرام، تأدية لوظيفته الرسالية، ولم يُيال بها يأتي به المستقبل، وما يسعى إليه المشركون من جعله مأوىً لأصنامهم. فالرجل الرسالي ينجز مهمته الرسالية، ويوكل المستقبل إلى الله سبحانه.

إسماعيل الذبيح عليه السلام

ورد اسم إسماعيل في القرآن المجيد اثنتي عشرة مرة^(١)، مقروناً بالمدح والثناء، وبيان بعض خصائصه وشأنه، فقد منّ الله عليه بالهداية إلى الصراط المستقيم، واجتباؤه للنبوة من أجل دعوة الناس إلى التوحيد، وإرشادهم إلى الخير والفلاح، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(٣)، كما أسبغ عليه القرآن الكريم صفات الصبر والحلم والصلاح.

وكان عليه السلام باراً بأبيه إبراهيم، مشاركاً له في إنجاز أعماله الرسالية، مقتنياً شريعته، سائراً على نهجه، صابراً على الأذى في سبيل الله. حمله أبوه وهو طفل صغير، وأسكنه هو وأمه (هاجر) في وادٍ غير ذي زرع (وادي مكة). فنشأ هناك

١. انظر: البقرة: ١٢٥، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، آل عمران: ٨٤، النساء: ١٦٣، الأنعام: ٨٦؛

إبراهيم: ٣٩؛ مريم: ٥٤؛ الأنبياء: ١٨٥؛ ص: ٤٨.

٢. البقرة: ١٣٦.

٣. النساء: ١٦٣.

متحملاً آلام الغربة والوحشة، ومصاعب الحياة ومرارة العيش.

ولما أوحى الله إلى إبراهيم ببناء البيت الحرام، شمر هو وولده إسماعيل عن ساعدَي الجدِّ، وطفقا يرفعان من قواعدهِ، حتى أتما بناءه، وقد عهد إليهما تعالى أن يطهراه من كل ما لا يليق به، وأن يدعوان الطائفين والعاكفين والركع السجود إلى زيارته وارتياده.

وقد مضى في قصة إبراهيم، ذكر الموقف الرائع لإسماعيل، والمعبر عن شجاعته النادرة، وإيمانه العميق، وإخلاصه الشديد، وبصيرته النافذة، إذ جاد بنفسه لله، راضياً بقضائه، مطمئناً إلى مشيئته وحكمته، ولم يتردد في تسليم رقبته لأبيه الذي أمر بذبحه، ولكن الله تعالى أنجاه من القتل، وفداه بذبح عظيم بعد أن ظهر كمال إخلاصهما لله، وبان جوهرهما ومعدنهما الحقيقي.

وثمة آيتان وُصف فيهما إسماعيل بأنه صادق الوعد، أمر بالصلاة والزكاة، مرضيٌّ عند ربه، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾^(١)، وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بإسماعيل هنا - كما في سائر الآيات - هو ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولو أُريد به غيره في هاتين الآيتين، لكان الأنسب التصريح بالتعدّد والتغاير.

وقيل إن المذكور في هاتين الآيتين، هو غير المذكور في سائر الآيات، وإن هذا - كما ورد في بعض الروايات^(٢) - هو إسماعيل بن حزقيل.

يُشار إلى أن القرآن الكريم أثنى على إسماعيل هذا بعد الثناء على

١. مريم: ٥٤-٥٥.

٢. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤/٦٤-٦٥.

موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً * وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾^(١)، ولعل هذا يُعدّ قرينة على أنه بُعث بعد موسى وأنه من أنبياء بني إسرائيل.

ويمكن أن يقال في هذا الشأن إن القرآن المجيد لا يراعي الترتيب الزمني عند ذكر أسماء الأنبياء، وإن ذكرهم يأتي في إطار غرض معين يستهدفه القرآن.^(٢)

١. مريم: ٥١-٥٥.

٢. انظر على سبيل المثال سورة ص، حيث جاء ذكر الأنبياء المتأخرين زمنياً مثل داود وسليمان وأيوب، قبل الأنبياء المتقدمين زمنياً مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب (الآية ٤٥).

إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام

رُزق إبراهيم عليه السلام أيام شيخوخته بولده إسحاق من زوجته (سارة) بعد أن اعتزل قومه المشركين، وهاجر إلى الأرض المباركة (فلسطين). وهو أصغر من أخيه إسماعيل.

وقد جاء اسم إسحاق في الكتاب المجيد سبع عشرة مرة^(١)، مشفوعاً بالتبجيل والتكريم، مع بيان بعض فضائله وسماته.

كان عليه السلام من الصالحين، الذين أخلصوا لله في أقوالهم وأفعالهم، وآثروا الآخرة، ولم يركنوا إلى الدنيا، فاتمّ الله نعمته عليه كما أتمّها على أبيه إبراهيم، واختاره للنبوة، فأدى ما عليه، وسار على ملة أبيه، واتّبع شريعته، ولم يزل عنها.

وإليك بعض الآيات الواردة في شأن إسحاق عليه السلام:

١. انظر: البقرة: ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، آل عمران: ٨٤، النساء: ١٦٣، الأنعام: ٨٤، هود: ٧١، يوسف: ٦ و ٣٨، إبراهيم: ٣٩، مريم: ٤٩، الأنبياء: ٧٢، العنكبوت: ٢٧، الصافات: ١١٢ و ١١٣ و ص: ٤٥.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾. (١)

﴿فَلَمَّا اخْتَارَهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾. (٢)

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾. (٣)

وقد مضى في قصة إبراهيم عليه السلام التحقيق في أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، كما تزعم التوراة المتداولة، وكما ورد في بعض الروايات التي تعتبر من الإسرائيلية التي بثها كعب الأخبار وغيره في أوساط المسلمين.

١. الأنبياء: ٧٢.

٢. مريم: ٤٩.

٣. ص: ٤٥-٤٧.

النبي لوط عليه السلام

في أرض المؤتفكات

كان لوط عليه السلام (وهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، كما في كتب الأنساب وغيرها) قد آمن بدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام الذي بُعث في أرض بابل (العراق)، ثم رافقه في هجرته إلى الأرض المباركة (فلسطين)، قال تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

ولكنه - أي لوط - استقرّ في بلاد الأردن، وأقام في إحدى مدنها التي تسمى (سدوم) كما يقول المؤرخون والمفسرون.

قال المسعودي: وأرسل الله لوطاً إلى سدوم وقراها الخمس، وهي: صبغة، وعمرة، وإدما، وصبوغ، وبالغ.^(٢)

١. العنكبوت: ٢٦.

٢. نقله السيد عبدالصاحب الحسيني العاملي في كتابه «الأنبياء: حياتهم - قصصهم» ص ١٥٨.

وقد عبر القرآن المجيد عن قرى قوم لوط بـ (المؤتفكات)^(١)، و بـ (المؤتفكة)^(٢).

يُشار إلى أن القرآن المجيد ذكر اسم لوط (٢٧) مرة^(٣)، وأشاد بشخصيته، وما انطوت عليه نفسه من صفات غراء ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤).

كما تعرّض إلى جهاده ودوره الرسالي في أمته، ودعوتهم إلى الإيمان بالله وطاعته، وتحذيرهم من مغبة الإمعان في الفساد واقتراف الفاحشة النكراء التي ابتدعتها نفوسهم المريضة.

أهم المحاور في قصة لوط عليه السلام

١. ممارسة القوم للخبائث، وإنكار لوط عليهم.

٢. معارضة قومه له.

٣. نزول ملائكة العذاب وطمع القوم بهم.

١. الآية ٧٠ من سورة التوبة، والآية ٩ من سورة الحاقة. والمؤتفكات: المنقلبات على وجهها، من اتفكت الأرض إذا انقلبت.

٢. الآية ٥٣ من سورة النجم.

٣. الأنعام: ٨٦؛ الأعراف: ٨٠؛ هود: ٧٠، ٧٤، ٨٠، ٨١، ٨٩؛ الحجر: ٤٩، ٦١؛ الأنبياء: ٧١، ٧٤؛

الحج: ٤٣؛ الشعراء: ١٦٠، ١٦١، ١٦٧؛ النمل: ٥٤، ٥٦؛ العنكبوت: ٢٦، ٢٨، ٣١، ٣٣؛

الصفات: ١٣٣؛ ص: ١٣؛ ق: ١٣؛ القمر: ٣٣، ٣٤؛ التحريم: ١٠.

٤. الأنبياء: ٧٤-٧٥.

٤. إسرائ لوط مع أهله في غسق الليل.

٥. توقيت نزول العذاب.

٦. كيفية إهلاكهم.

٧. الدروس والعبر.

وإليك بيان هذه المحاور على حسب ترتيبها.

١

ممارسة الخبائث

زاول قوم لوط أقبح الأعمال وأشنعها، بعد أن نضب ماء وجوههم، إذ كانوا يقطعون الطريق على المارة، ويبارسون معهم عمليات السلب والشذوذ الجنسي، ويتعاطون في مجالسهم كل منكر ورذيلة وفساد.

وإليك الآيات الواردة في هذا المضمار.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾^(١).
 ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ

الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾^(٢).
 ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ

الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَتَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾^(٣).

لم يركز القرآن الكريم على الجانب الاعتقادي لقوم لوط، ولم يتطرق إلى نوع المعبودات التي كانوا يقدسونها، بل ذكر بإيجاز دعوة لوط إليهم إلى تقوى الله وطاعة نبيه الذي يحرص على هدايتهم، ولا ينبغي على ذلك منهم أجراً، وهذا هو شعار كل الأنبياء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. ويوحى قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى تكذيبهم بدعوته إلى التوحيد ونبذ الشرك، لأنها دعوة المرسلين جميعاً.

ولكن القرآن الكريم اهتم كثيراً بذكر الخبائث التي كانوا يعملونها، لا سيما تلك الفعلية الشنعاء التي كانوا يقترفونها دون حشمة وحياء، وذلك لشيوعها

١. الشعراء: ١٦٠-١٦٦.

٢. الأعراف: ٨٠-٨١.

٣. العنكبوت: ٢٨-٢٩.

فيهم، ولكونها تشكّل حالة مرضية خطيرة، تصيب المجتمع بالصميم، فتفقدته كلّ معاني الطهر والعفاف والكرامة والفضيلة، وتدفع به نحو الهاوية والدمار.

والخبائث التي كانوا يقترفونها، وهي:

١. الشذوذ الجنسي.

٢. قطع الطريق على المآزة ليرتكبوا معهم الفاحشة.

٣. ارتكاب القبائح والمنكرات علانية في نواديهم، حيث لا يرون في ذلك

سوءاً ولا قبحاً، وإلى هذه الأمور الثلاثة يشير لوط عليه السلام في قوله: ﴿أَنتُمْ لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾.

لقد جرت سنة الله سبحانه على استمرار وجود هذا الإنسان على وجه

الأرض إلى يوم القيامة، وهذا لا يتأتى إلا من خلال ميل الجنس البشري إلى الجنس الآخر، والارتباط معه بعقد الزواج المعروف. وهذا أمر فطري تعارف عليه البشر.

وأما إطفاء الغريزة الجنسية عن طريق الجنس الموافق، فهو يضادّ حكمة

خلق الذكر والأنثى، ويؤدي بالنسل البشري إلى الانقطاع، مضافاً إلى ما فيه من

آثار نفسية وصحية سيئة، كشف عنها العلم، أخطرها مرض عوز أو نقص المناعة

المكتسب (الإيدز) الذي يهاجم فيه (فيروس) هذا المرض كريات دم بيضاء

معينة، مما يؤدي إلى تحطيم الوظيفة الطبيعية في جهاز المناعة. ويعتبر الاتصال

الجنسي بصورة أساسية السبب الرئيسي لانتقال الفيروس، ويكون احتمال

الانتقال أكبر في اللواط (الشذوذ الجنسي)، كما يؤدي الزنا دوراً كبيراً في انتقال

(الفيروس)، وغالباً ما يقود هذا المرض في نهاية المطاف إلى الموت.^(١)

والعجب أن بعض المفكرين في الدول الغربية ومجالس التشريع فيها (كمجلس العموم البريطاني)^(١)، قد أضفوا على هذه الفاحشة النكراء الصبغة الشرعية والقانونية، ووضعوا لذلك حدوداً وقوانين، وهم في الوقت نفسه يدعون التقدمية، ويتهمون الآخرين بالتأخر والوحشية. وعلى هذا يركز لوط عليه السلام في خطابه لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾^(٢).

فالغريزة الجنسية نعمة من الله سبحانه لكل إنسان، ليصون بها نسله ووجوده في المجتمع، وقد جعل الله هذه الغريزة في الزوجين المتخالفين في الجنس، فأعمالها في الجنس الموافق، انحرف عن الفطرة وصرف للنعمة في غير موردها، والتي يعبر عنها بالإسراف، يقول سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾^(٣).

ويظهر من قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أنه ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط، وربما يُفسر قوله بأنهم كانوا يفعلون ذلك بالغرباء لا بغيرهم، وهؤلاء الذين كانوا يرتكبون تلك الجريمة من قوم لوط وصفهم نبيهم بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي متجاوزون للحدود التي تقرها العقول والشرائع، وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ إلى غير ذلك من التنديدات الواردة في الكتاب العزيز.

إنَّ عدم نجاح لوط عليه السلام في ردعهم عن اقتراف هذا العمل الشائن، يكشف

١. أقر هذا المجلس في عام (١٩٦٧م) حق ممارسة هذه الرذيلة، التي تعبر عن انحطاط النفوس، وانحراف الطباع.

٢. الشعراء: ١٦٥-١٦٦.

٣. الأعراف: ٨١.

عن تحوله إلى ظاهرة اجتماعية خطيرة، وإلى مرض وبيل سرى في نفوسهم إلى حدٍ، لم يُعد يُجدي معه أي علاج سوى إزهاق تلك الأنفس الملوثة بالأرجاس.

٢

معارضة القوم لنبيهم لوط عليه السلام

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾^(١).^(٢)

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾.^(٣)

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.^(٤)

قام النبي لوط عليه السلام بمهمته الرسالية على أتم وجه، حيث وعظ قومه وحاوهم ونصح لهم ونهاهم عن ارتكاب المعاصي، وخوفهم من بأس الله تعالى وعذابه.

١. الأعراف: ٨٢.

٢. وجاء في سورة النمل الآية ٥٦ بتفاوت يسير وهو «ولما كان» بدل «وما كان».

٣. الشعراء: ١٦٧-١٦٨.

٤. العنكبوت: ٢٩-٣٠.

ولكنهم لم يأبهوا له ولم يرتدعوا، فلما ألح عليهم بالعظات والإنذار، اتخذوا منه هذين الموقفين:

١. الاستخفاف بإنذاره وتخفيفه، قائلين: ﴿إِثْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ

الصَّادِقِينَ﴾.

٢. تهديده بالنفي والإبعاد من بلدهم، كما يحكي سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

ماذا أراد قوم لوط من قولهم إن لوطاً ومن آمن معه أناس يتطهرون؟

فهل المراد أنهم يتحرّجون عن إتيان الرجال شهوة دون النساء، فعابوهم بما

يجب أن يُمدحوا به، أو المراد أنهم يتزهون عن أفعالهم وطرائقهم.

إن ردّهم هذا - على كل تقدير - يعرب عما أصاب فطرتهم الإنسانية من

تشويه وانحراف، حيث أصبح العمل القبيح عندهم حسناً فعابوا لوطاً ومن آمن

معه باجتناهم ذلك، وقد يبلغ الجهل بالإنسان إلى مستوى، يُصبح عنده العمل

القبيح حسناً والحسن قبيحاً، وهذا المستوى الهابط هو الذي يلحق الإنسان بشرّ

الدواب، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا

يَعْقُلُونَ﴾^(١).

وهناك حديث طريف مروى عن النبي الأكرم ﷺ يتحدث فيه عن درجات

فساد النساء والشباب، فيقول مخاطباً أصحابه: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم،

وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟ فليل له: ويكون ذلك يا

رسول الله؟! فقال: وشّر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن

المعروف؟ فقبل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟! قال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً.^(١)

فإذا اختلّت المقاييس والموازن عند الإنسان إلى هذه الدرجة، فبطن الأرض خير له من ظهرها، وموته أجدى من حياته. وقد تجلّى هذا الاختلال في المقاييس والإصرار على ارتكاب المعاصي في قوم لوط، الذين فقد أي أمل في إصلاحهم، ولذا دعا ﷺ ربه مستنصراً، وقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي هَلَى الْقَوْمِ الْمَفْسِدِينَ﴾.

واستجاب الله سبحانه دعوته، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأهلكهم جميعاً ودمّر بلادهم تدميراً، كما سنبينه في المحور التالي.

٣

نزول الملائكة، وطمع القوم بهم

قضت مشيئته سبحانه وتعالى بتطهير الأرض من الفاسقين، الذين أمعنوا في ارتكاب الفواحش، ولم يبق بصيص من الأمل في انتشالهم من هذا الوحل، ولذا أرسل ملائكةً على هيئة رجال لإبلاغ أمر الانتقام منهم، فنزلوا أولاً ضيوفاً على إبراهيم الخليل ﷺ، وإنباؤه بمهمتهم، ثم انطلقوا إلى لوط ﷺ، فلما سمع بهم قومه، هرعوا إلى بيته، بغية قضاء أوطارهم المنكرة منهم، فاجتهد ﷺ في إقناعهم بالعدول عن هذه الفكرة بمختلف الأساليب، فلم يُفلح، وأصروا على

١. الوسائل: ١٦/١٢٢، الباب ١ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحديث ١٢.

تنفيذها، فطمس الله أعينهم فلم يبصروا طريقهم إليهم، ثم أخذهم بعذاب
بئس، انطوت به صفحة حياتهم التي سودوها بفعل الخبائث.

وإليك الآيات التي تتحدث عن هذا الجانب من القصة:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ

عَصِيبٌ﴾.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ

هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْقِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ

رَشِيدٌ﴾.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. (١)

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ لَوْ كُنَّا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾. (٢)

﴿قَالَ إِنَّ هؤُلَاءِ ضَيْقِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾.

﴿قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

١. هود: ٧٧-٨٠.

٢. الحجر: ٦١-٦٤.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾. (١)

والكلام في هذه الآيات يتضمن أربعة أمور:

١. تضايق لوط من ضيوفه.
٢. اطلاع قومه على ضيوفه.
٣. أساليب لوط عليه السلام في زجر قومه عن نياتهم الفاسدة.
٤. إصرار قومه على نياتهم. وإليك التفصيل:

الأمر الأول: إن استقبال الضيف بوجه مشرق وصدر رحب والسرور ببلقائه، من شيم الكرام وسيرتهم وفي طبيعتهم الأنبياء عليهم السلام، ولكن لوطاً ساءه مجيء ضيوفه، وتبرم بهم، وتوقع أن يكون يومه هذا شديداً، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِّنْهُمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. ووجه ذلك واضح، وهو خوفه من أن يعتدي عليهم قومه ويفضحونه فيهم باغتصابهم قهراً.

ولمّا رأى الضيوف ما يعانیه لوط من حرج شديد بسبب عجزه عن حمايتهم من قومه، أعلموه بحقيقتهم، وقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾. (٢)

وفي آية أخرى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾. (٣)

مشيرين إلى أنهم لا يصلون إلى من في بيتك من الملائكة.

١. الحجر: ٦٧-٧١.

٢. العنكبوت: ٣٣.

٣. هود: ٨١.

الأمر الثاني: أعني اطلاع قومه على وجود الضيوف في بيته وإسراعهم إليه، فيذكره سبحانه بقوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١).

وفي آية أخرى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٢) أي يبشر بعضهم بعضاً.

الأمر الثالث: وهو أساليب لوط في زجر قومه عن التناول على ضيوفه، فقد ذكرها سبحانه في آيات عديدة.

فتارة يلين معهم الكلام قائلاً: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾،

فالتناول عليهم إهانة لي واعتداء على كرامتي.

وأخرى يستنجد العقلاء منهم، فيقول: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، أي

أليس في جملتكم رجل قد أصاب الرشد فيعمل بالمعروف وينهى عن المنكر ويزجر هؤلاء عن قبيح فعلهم.

وثالثة: يتمنى أن تكون له منعة وقدرة وجماعة وعشيرة يتقوى بها على هؤلاء

المتجاوزين فيدفعهم عن ضيوفه كما يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٣)، والمراد من الركن هو العشيرة التي تنصر أعضائها وأفرادها.

ورابعة: يحاول أن يعيدهم إلى الفطرة السليمة، ويُرشدهم إلى الأسلوب

الصحيح في إطفاء شهواتهم العارمة، فعرض عليهم نكاح بناته والاقتران بهن، وكان هذا آخر حلقة من حلقات دفاعه عن ضيوفه.

وقد اختلف المفسرون في واقع هذه البنات، فهل عرض عليهم بناته لصلبه

١. هود: ٧٨.

٢. الحجر: ٦٧.

٣. هود: ٨٠.

أو أراد النساء من أمته، لأنهن كالبنيات له، فإن كل نبي أب لأُمَّته وأزواجه أمهاتهم.

فسواء قصد بناته هو أو نساء أمته، فقد أراد مسهّن عن نكاح لا سفاح فحاشا نبي الله عن ذلك، لأن السفاح لا طهارة فيه أصلاً وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(١). وهو يقول في المقام «هن أطهر» وصيغة التفصيل مجردة عن التفضيل، لأن المراد أن النكاح طهر، دون غيره، مثل قول يوسف عليه السلام: ﴿السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(٢)، أي هذا محبوب دون الآخر.

وقد يُطرح هنا سؤال وهو أن ظاهر قوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يهرعون إليه﴾ أن القوم أسرعوا إلى بيته، وكل يأمل أن ينال حاجته منهم، فكيف يمكن لهؤلاء جميعاً نيل حاجتهم من ضيوفه، وهم قليلون بلا شك؟

يمكن أن يراد بأهل القرية رؤساؤهم، وإنما عبر عنهم بأهل القرية لمظاهرهم لهم، حتى يتم مرادهم.

وبذلك يعرف الجواب عن سبب عرض بنات لوط عليهم، فإن بناته كنّ محدودات العدد، فكيف يقتنع بهن أهل القرية وهم جمع كثير؟ والجواب هو الجواب عن السؤال الأول، وهو أن الغاية هو نكاح الرؤساء المحددين، لا كل من يعيش في القرية.

ويمكن أن يُجاب عن السؤال الثاني بأن المراد من البنات هو نساء أمته وهن كثيرات.

١. الإسراء: ٣٢.

٢. يوسف: ٣٣.

إلى هنا تم الكلام في الأمر الثالث.

الأمر الرابع: وهو إصرار قومه على نياتهم الفاسدة، ويتمثل في موقفهم من الحل الذي قدمه لهم نبيهم ومن مناشداته لهم بالإقلاع عن هذه النية. لقد لخصوا جوابهم عن كل ذلك بوجهين:

الأول: ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

هذا المنطق المعوج ليس بغريب على قوم لوط بعد أن تدنست نفوسهم، ومرضت قلوبهم، وفسدت ضمائرهم. لقد منعناك من إقامة العلاقات مع الناس ومعاشرتهم، ومن استقبال الضيوف وإيوائهم وحمايتهم. فلم تفعل ذلك؟ وهكذا تنقلب المقاييس في نظر هؤلاء المنكوسين، ويتحول كل شيء إلى ضده.

فالقبحُ حُسْنٌ، والظلام ضحى والنَّحْسُ سَعْدٌ، والعمى بصرٌ^(١)

الثاني: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.^(٢)

كان هذا جوابهم عما دعاهم إليه لوط من النكاح المباح، ولعل المراد من الحق هو الحاجة، أي ما لنا في بناتك من حاجة، وكل ما ليس للإنسان فيه حاجة فكأنه لا حق له فيه.

وقيل: المراد بالحق، هو الحظ والنصيب دون الحق الشرعي أو العرفي، أي لا

رغبة لنا فيهن لأنهن نساء، ولا ميل لنا إليهن.^(٣)

إن جوابهم هذا يكشف عن أن هذا العمل المنكر كان متفشياً فيهم،

١. البيت للمرحوم السيد محمد جمال الدين الهاشمي.

٢. هود: ٨٠.

٣. الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ٣٤٠.

ومألوفاً لديهم إلى درجة غدا فيه واقعاً ينبغي أن تُقام عليه المقاييس والموازن
الاجتماعية الجديدة!!

٤

إسراء لوط مع أهله

في غسق الليل

لقد أتمّ النبي لوط عليه السلام الحجّة على قومه المنحرفين الذين حاولوا أن يتناولوا
على ضيوفه، ولكنهم لم يكثرثوا له، وأصرّوا على القيام بأفعالهم المنكرة.
ومن هنا استحقّوا العذاب الذي يطهر الأرض من هذا الكيان المسخ،
فبعث سبحانه إلى لوط ملائكة على صورة البشر، وإنباؤه بالأمر الإلهي القاضي
بإهلاك قومه الفاسقين وقطع دابرهم. وإليك الآيات التي تستعرض هذا
الموضوع:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ نَبَسُ
الصُّبْحِ بِقَرِيبٍ﴾. (١)

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ
وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ

مُصْبِحِينَ ﴿١﴾.

اقتضت إرادته سبحانه بإهلاك قومه المسرفين الخارجين عن الفطرة الإنسانية المنهمكين في الشهوات الحيوانية، وبما أنهم كانوا يعيشون مع لوط وأهله في منطقة واحدة، فقد أمر الملائكة لوطاً بالخروج مع أهله عن المنطقة، على أن لا يلتفت أحدٌ منهم إلى خلفه، فإن العذاب سيصيب القوم كلهم بما فيهم امرأة لوط الكافرة الخائنة، وإلى ذلك أشار سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَمِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٢).

فالملائكة يوصون لوطاً بالأمر التالية:

١. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾، أي سر بأهلك بعد ما يمضي أكثر الليل وتبقى قطعة منه.
٢. ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾، أي اقتف إثرهم وكن وراءهم لتكون عيناً عليهم، فلا يتخلف أحد منهم.
٣. ﴿لَا يَلْتَمِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾، أي لا يلتفت أحد منكم إلى ما وراءه من المدينة، وهذا كما يقول القائل: امض لشأنك ولا تعرّج على شيء، وعلى ذلك يكون تأكيداً للأمرين السابقين، والظاهر أن المراد هو السرعة في المشي لقرب نزول العذاب والالتفات إلى هذا الطرف وهذا الطرف يورث التأخير.
٤. ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: أي اذهبوا إلى الموضع الذي أمركم الله بالذهاب إليه.

ثم أخبر الرسل لوطاً بأن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين؛ أي أنه تعالى

١. الحجر: ٦٥-٦٦.

٢. الحجر: ٦٥.

سيستأصل هؤلاء المفسدين عن آخرهم وقت الصبح، فقله مصبحين بمعنى وقت دخولهم في الصبح.

وعلى كل تقدير، فقد تضافرت الآيات على هلاك امرأة لوط، ففي سورة هود: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾^(١)، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾^(٢)، وفي آية ثالثة: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾^(٣).

كل ذلك يدل على أن المصاحبة الظاهرة لا تؤثر في نجاة الشخص حتى وإن لامس جسده جسد النبي المعصوم، وإنما تؤثر فيما لو كان بينهما صلة معنوية ورابطة روحية، فمجرد المصاحبة لا يكفي ما لم يكن هناك إيمان وعمل كما أنها لا تؤثر في نجاة الإنسان ولا تجعل الإنسان معصوماً من الذنب.

نعم لصحبة الكرام فضلاً عن صحبة الأنبياء ﷺ شرف وكرامة بشرط أن يكون المصاحب مستعداً روحياً وأخلاقياً للاستضاءة بنور المصاحب والاستنارة بهدايته.

وكنا قد ألقينا مزيداً من الضوء على هذا الموضوع (الصحبة) عند دراستنا لقصة نوح ﷺ (فقرة: قاعدة ربانية).

١. هود: ٨١.

٢. العنكبوت: ٣٣.

٣. التحريم: ١٠.

وقت نزول العذاب

اهتم سبحانه ببيان تفاصيل هلاك قوم لوط وبيان وقت حلول العذاب، وذلك من خلال الآيات التالية:

- ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(١).
 ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾^(٢).
 ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾^(٣).
 ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾^(٤).

اتفقت الآيات على أن العذاب عنهم صباحاً، عند بزوغ الشمس، فمعنى قوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي حال كونهم داخلين في الصبح، ومعنى قوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي حال كونهم داخلين في وقت شروق الشمس.

١. هود: ٨١.

٢. الحجر: ٦٦.

٣. القمر: ٣٨.

٤. الحجر: ٧٣.

كيفية إهلاكهم

استعرض القرآن الكريم بشيء من التفصيل العقاب الذي حلّ بقوم لوط،
وبيّن نوع العذاب الذي هلكوا به، وذلك من خلال الآيات التالية:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾^(٢).

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ

مَنْصُودٍ﴾.

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾^(٣).

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٤).

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾^(٥).

٢. الشعراء: ١٧٣.

٤. الحجر: ٧٣-٧٥.

١. الأعراف: ٨٤.

٣. هود: ٨٢-٨٣.

٥. الذاريات: ٣٣-٣٤.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾. (١)

لقد أهلكهم الله تعالى بأسباب مختلفة مرتبة، وهذه الأسباب عبارة عن:

١. الصيحة.

٢. قلب القرية، وجعل أسفلها أعلاها.

٣. الإمطار بالحجارة.

وفي بعض الآيات جاء: ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، كما سيوافيك.

وإليك تفصيل هذه الأسباب.

السبب الأول: الصيحة

أخذتهم الصيحة السماوية أي الصوت الشديد، كما يقول

سبحانه ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾.

وقيل: إن كل شيء، أهلك به قوم فهو صيحة.

وتلتهم آية أخرى وهي:

السبب الثاني: قلب القرية أسفلها أعلاها

ولعلها كانت بحدوث خسف في أرضهم على نحو قلبت فيه القرية فصار

أسفلها أعلاها وهم يحاولون الخروج من بيوتهم، فتبعهم آية تالية وهي:

السبب الثالث: الإمطار بالحجارة

قال سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾.

وهذه الآيات تحكي عن نزول المطر، ولكن هل هو المطر العادي أي الماء، أم هو الرجم؟ إن الآيات الأخرى ترفع هذا الإبهام عن وجه هاتين الآيتين، وتصرح بأنه كان مطر الرجم، فالله سبحانه أهلكهم في النهاية بحجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾. وقال أيضاً: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ إلى هنا تبين أنهم أهلكوا بالرجم. وقد تكفلت الآيات الأخرى ببيان ماهية هذا الرجم، إذ جاء وصفه فيها بأنه كان حجارة من سجيل أو حجارة مسومة، كما يقول سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾، وفي آية ثالثة: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، وعبر في آية أخرى بالحصب وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾.

قال بعض المفسرين: والصورة التي يرسمها السياق هنا بهذه النازلة التي أصابت قوم لوط، أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها، ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل.^(١)

ويستفاد من بعض الآيات أنه سبحانه أنزل عليهم رجلاً من السماء كما يقول: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٢)، وما الرجز إلا العذاب ويكفي في صدقه إخافتهم بصيحة، وقلب الأرض بهم، وإمطارهم بالحجارة. ولعل الأخير هو المصداق لقوله: ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

١. في ظلال القرآن: ١٢ / ٦٠.

٢. العنكبوت: ٣٤.

ثم أنه سبحانه يذكر بأن في مصير لوط عبرة للمعتبرين، فإن التاريخ كتاب اعتبار وتجربة يتكلم مع الإنسان بلسان خاص وإلى هذه يشير سبحانه بقوله: **﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** ^(١).

ثم إنه سبحانه يخص هذه العبرة بطائفتين هما:

١. المتوسمون.

٢. المؤمنون.

يقول سبحانه عن الأولى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾** والمراد بهم هم الذين رزقوا ذكاءً وفراصة، كما ورد «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ^(٢) وإلى ذلك يرجع قوله سبحانه: **﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** ^(٣).

ويقول عن الثانية: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾** ^(٤).

ويدل بعض الآيات على أن آثار قوم لوط كانت شاخصة في طريق أهل مكة وعندما يذهبون إلى الشام للتجارة، قال سبحانه: **﴿وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾** ^(٥)، أي أن مدينة لوط كانت واقعة في طريق مسلك يسلكه الناس في حوائجهم فينظرون إلى آثارها ويعتبرون بها، لأن الآثار التي يستدل بها قائمة ثابتة فيها.

١ . الذاريات: ٣٧.

٢ . الكافي: ١ / ٢١٨، باب أن المتوسمين الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه هم الأئمة، الحديث ٣.

٣ . العنكبوت: ٣٥.

٤ . الحجر: ٧٧.

٥ . الحجر: ٧٦.

خلاصة قصة لوط عليه السلام

انفتح قلب لوط عليه السلام على الإيمان، واستجاب لدعوة (عمه) إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي بُعث في بلده (أرض بابل)، ثم هاجر معه إلى الأرض المباركة (فلسطين) بعد أن ضاق بإبراهيم قومه الذين ناهضوه بشدة، وحكموا عليه بالموت حرقاً.

أقام لوط عليه السلام في مدينة (سدوم) إحدى مدن الأردن (كما يقول المؤرخون والمفسرون)، وكان قد شاع بين أهلها ارتكاب الموبقات، وممارسة الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وهي: إتيان الرجال شهوةً من دون النساء.

اضطلع عليه السلام بمسؤوليته الإلهية، مُصارعاً قومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾، منادياً بشعار الأنبياء، الذي يُعرب عن الإخلاص والتفاني لرسالاتهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والمعضلة الكبرى التي كانت تواجهه عليه السلام في طريق دعوته وإصلاحه، هي تلك الخبائث التي كانوا يعملونها، والفاحشة المنكرة التي كانوا يقترفونها. ومن هنا كرس أكثر جهوده لمعالجة هذه الظاهرة التي أصبحت مرضاً وبيلاً متفشياً فيهم، يُنذر بتفكك المجتمع وانهيار أسسه ودعائمه في كافة المجالات، ولكن القوم تجاوزوا كل الحدود التي تقرها العقول والشرائع، ولم يكتفوا لمواعظه ونصائحه بأن لا يذروا ما خلق لهم ربهم من أزواج، ولم يعبأوا بتحذيراته وإنذاراته، بل قالوا له

جهلاً وعناداً ﴿إِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وهكذا زينت لهم أنفسهم المريضة هذه القبائح، فألفوها وأنسوا بها، وصارت الدعوة إلى الانتهاز عنها دعوة غريبة لا ينبغي لها أن تعيش في هذا البلد، ذي المقاييس الجديدة!!! ولذا ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ بِأَلُوطَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾، و﴿قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ ولماذا؟ ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

لقد بالغ النبي لوط ﷺ في إرشاد قومه والنصيحة لهم وإلقاء الحجج عليهم، ولكنهم لم يعبأوا بكل ذلك، بل تمادوا في غيهم، وعندئذ حقت كلمة العذاب بتطهير الأرض ومن عليها من هؤلاء الفجرة، فأرسل سبحانه إلى لوط ﷺ ملائكة على هيئة البشر، لإبلاغه بهذا الأمر الإلهي، فلما سمع بهم القوم هرعوا إلى بيته ﷺ وهم في سكرتهم يعمهون، وراحوا يتهدّدونه في ضيوفه الكرام، مما يؤكد إصرارهم على القيام بهذه الفاحشة النكراء حتى الساعات الأخيرة التي سبقت حلول نقمة الله تعالى عليهم.

شعر ﷺ بحرج شديد تجاه ضيوفه (الذين لا يزال يجهل حقيقتهم)، وطفق يناشد هؤلاء المفسدين بكل أسلوب، لصرفهم عن تنفيذ نواياهم الفاسدة، مخاطباً إياهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾... ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾... ﴿الْيَسَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

ولكن، أتى يستجيب له من صرع عقله تحت وطأة الشهوة العارمة؟

لقد دفع بهم هذا العرام إلى الردّ عليه بوقاحة وصلف: ﴿أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ

الْعَالَمِينَ﴾!!!

لم يفلح لوط ﷺ في مدافعة هؤلاء السفهاء، وهو يعلم أنه لا يملك جناحاً

ينهض به، وعندئذ قال متمنياً: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. في هذه اللحظة العصبية، أبان الضيوف عن حقيقتهم، و﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، وترجم هذا الوعد بأن طمس الله عين هؤلاء الفاسقين، فتبدد شملهم.

ثم أمر الملائكة لوطاً بأن يغادر المكان ليلاً هو وأهله إلا امرأته الكافرة، لأن العقاب الصارم سيحل بقومه صباحاً: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾.

وما أن بزغت الشمس حتى صُبت عليهم العذاب صباً، فقلبت ديارهم وجعل عاليها سافلها، وحُصبوا بحجارة من طين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٧

الدروس والعبر

١. إن المجتمع الذي يتماهى في ممارسة الشهوات واتباع الأهواء (كقوم لوط عليه السلام)، يُحرق مواهب أبنائه وطاقاتهم وقدراتهم الخلاقية، ويُخمد جذوة همهم في التطلع إلى الرقي والرفعة في شتى مجالات الحياة، ويدفع بهم إلى الانسياق وراء الأمور التافهة، والأشياء الرخيصة، ويُغلق عليهم منافذ التفكير في تسخير هذه الطاقات فيما يعود عليه وعليهم بالنفع والخير والرفاه.

٢. إن الأعمال السيئة التي يقوم بها بعض الأفراد، قد تستشري في المجتمع

بأكمله وتُصبح ظاهرة عامة فيه، ومرضاً مستعصياً ينهش روحه، وحينها يعجز أطباء النفوس عن معالجته ودرء خطره، مهما أُوتوا من علم وحكمة، وتميزوا به من صدق وإخلاص.

ومن هنا تتأكد الحاجة إلى وضع حلول مناسبة لمعالجة الانحرافات السلوكية لدى بعض الأفراد قبل أن يتسع مداها في المجتمع، وإلى اتخاذ إجراءات رادعة، تعمل على استئصالها أو تقليصها ومحاصرتها في دائرة ضيقة، وعدم السماح لها بأن تُمارس في الهواء الطلق.

ومن الوسائل الناجعة في هذا المجال، هي تفعيل دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس، وتنمية الشعور بالمسؤولية تجاه قضايا المجتمع ومصالحه العامة.

٣. إنَّ المجتمع الذي يألف مساورة الأعمال القبيحة، ويأنس بحياة اللهو والعبث، ولا يكثرث إلا للفرغائب التافهة... هذا المجتمع سوف تنعدم لديه المقاييس الصحيحة، وتبرز بدلها مقاييس أخرى خاطئة، يحكم بها على القضايا المختلفة بصورة مقلوبة، الأمر الذي يُفقد الكثير من المكاسب والمغانم الحقيقية في المجالين المادي والمعنوي، ويُفضي به إلى التصدّع والانهيار وملاقاة مصيره القاتم.

ولا غرابة في مثل هذا المجتمع أن تصبح الشجاعة والإقدام فيه تهوراً، والجبن والاستسلام تعقلاً، والركون إلى الظالم واقعية، و التملق لباقة وحسن سياسة، والطهر والعفاف تشدداً وانغلاقاً، والفسق والفجور تحضراً وانفتاحاً.

اقرأ معي هاتين الآيتين، لتدرك مستوى الانحدار الذي يصل إليه المجتمع

عند ضياع الموازين الصحيحة:

﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَظِرُونَ﴾ !!
 ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ !!

٤. إن الأمراض النفسية والخلقية شأنها في المعالجة شأن الأمراض الجسمية، فإذا ما أصيب - مثلاً - جزء من أحد أعضاء الإنسان بمرض ما، فإن علاجه قد يتم باستئصال ذلك الجزء، وأما إذا استفحل المرض وسرى إلى العضو كله، فإن الأطباء لن يجدوا مناصاً من بتره أو استئصاله ليضمنوا بذلك سلامة الجسم بأكمله.

والمجتمع الذي تنفش فيه الأمراض النفسية والخلقية ويصاب بكل كيانه، ويتلاشى الأمل في إصلاحه، فإن الحكمة تستدعي محوه من خارطة الوجود، لأن بقاءه يؤثر سلباً على باقي المجتمعات ويصيبها بالعدوى. ومن هنا استأصل سبحانه قوم لوط، ولم يبق أحداً منهم، لئلا يؤثر على سائر الأقوام.

النبي شعيب في مدين

يعدّ النبي شعيب أحد أنبياء الله الذين أرسلوا لنشر عقيدة التوحيد ومكافحة الفساد، ويمكن التعرف على حياته وخصائصه بالطرق التالية:

أولاً: زمانه

يظهر من القرآن الكريم أنه أرسل بعد إبادة قوم لوط، بشهادة أن قصته ﷺ قد وردت بعد قصة لوط ﷺ في أربعة مواضع منه، تضمّنتها الآيات التالية:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ (١)

﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ (٢)

١. الأعراف: ٨٤-٨٥.

٢. هود: ٨٣-٨٤.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾ (١).

والمراد بأصحاب الأيكة هم قوم شعيب.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ (٢).

يُشار إلى أن الآيات (في المواضع المذكورة) التي سبقت الحديث عن قوم شعيب، تتعلق بقوم لوط وهذا يومئ إلى التوالي بين القصتين وبين النبيين.

ثانياً: مكانه

دلّت الآيات السابقة على أنه ﷺ بعث في مدين، وهي اسم المنطقة التي كان شعيب يعيش فيها، ويقال: إنها اسم عشيرته وقبيلته أيضاً.

قال ياقوت الحموي: مدين - بالفتح ثم السكون - مدينة قوم شعيب وهي تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ست مراحل، وهي أكبر من تبوك.

ويظهر من كلماته ﷺ أن قومه كانوا قريباً من قوم لوط حيث إنه كان يحذّره من أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط، ويقول: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُّوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٣).

ثالثاً: قبيلته

بما أن مدين قريبة من تبوك فيظهر أن قبيلته كانت من العرب، ولذا فهو

١. الحجر: ٧٥-٧٨.

٢. العنكبوت: ٣٥-٣٦.

٣. هود: ٨٩.

أحد أنبياء العرب الذين بعثهم الله سبحانه لهداية الناس، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «لم يبعث الله عز وجل من العرب إلا خمسة، هوداً وصالحاً وإسماعيل وشعيباً ومحمداً خاتم النبيين صلوات الله عليهم، وكان شعيب بكاء»^(١).

رابعاً: أصحاب الأيكة هم أصحاب شعيب

قال سبحانه بعد ذكر قصة لوط: ﴿وَإِنْ كُنَّ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾^(٢) فانتقمنا منهم وإِنَّهُمَا لِيَأْمَامِ مُبِينٍ﴾^(٣).

والأيكة: الشجر الملتف الكثيف، وأصحاب الأيكة^(٤) هم قوم شعيب، كانوا في بقعة كثيفة الأشجار. وقيل: إنهم طائفة من قومه أرسل إليهم بعد هلاك أهل مدين بالصيحة، وإنهم - أي أصحاب الأيكة - هلكوا بالظلمة واحترقوا بنارها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لِيَأْمَامِ مُبِينٍ﴾ معناه إن مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة بطريق يؤم ويتبع ويهتدى به، وسمي الطريق إماماً لأن الإنسان يؤمه^(٥).

١. بحار الأنوار: ١٢ / ٣٨٥.

٢. الحجر: ٧٩-٧٨.

٣. قال ابن كثير: ومن زعم من المفسرين كفتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف. قصص الأنبياء: ٢١٣.

٤. مجمع البيان: ٣ / ٢٤١.

خامساً: خصائص شعيب وقومه

أما خصائصه فقد كان رسولاً أميناً، قاصداً للإصلاح كما يذكر ذلك

سبحانه بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾. (١)

وقوله: ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾. (٢)

أما خصائص قومه فكانت متمثلة في جانبين:

١. عبادة الأصنام.

٢. التطفيف في المكيال والميزان.

يقول سبحانه على لسان شعيب: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ﴾ (٣) مشيراً إلى الأول، وقال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ

وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾. (٤)

محاورة دراسة قصة شعيب عليه السلام:

١. أصول دعوته.

٢. أسلوب دعوته.

٣. موقف قومه من الدعوة.

٤. إبادة قومه ونزول العذاب.

١. الشعراء: ١٧٨.

٢. هود: ٨٨.

٣. الأعراف: ٨٥.

٤. هود: ٨٤.

أصول دعوة النبي شعيب عليه السلام

﴿وَالِى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَفَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾. (١)

﴿وَالِى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. (٢)

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِ
 الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا
 الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١﴾
 ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا
 تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. (٢)

يشارك جميع الأنبياء في أصول خاصة كالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك
 والإيمان بيوم القيامة إلى غير ذلك من الأصول المشتركة بين عامة الشرائع.
 ومع ذلك، فإن كل نبي قد امتازت دعوته بصفة تتعلق بالفساد الذي
 خص مجتمعه.

وها نحن نذكر أصول دعوة النبي شعيب من غير فرق بين ما يشارك سائر
 الأنبياء أو ما يختص به:

١. الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك

ركّز الأنبياء في دعوتهم على توحيد الله ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، وأخص بالذكر
 توحيد عبادته، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
 الطَّاغُوتَ﴾ (٣)، فلذلك نرى أن النبي شعيباً يدعو إلى التوحيد في العبادة،
 فيقول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والمراد

١. الشعراء: ١٧٦-١٨٤.

٢. العنكبوت: ٣٦.

٣. النحل: ٣٦.

من البينة المعجزة الشاهدة بصحة نبوته، وظاهر الآية أنه دعاهم إلى الأصول بعد أن أتاهم بالمعجزة، ويحتمل أن يراد به المستقبل القريب تنبيهاً على تحقق وقوعه، كما حكاها الله سبحانه عن موسى: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾^(١) فيكون معنى قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قد أعدت لأن تحيثكم البينة.

٢. الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر

اقرنت دعوة الرسالات السماوية إلى الإيمان بالله بالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان بالله حتى مع توحيد ذاته ذاتاً وعبادة لا يحقق بمفرده مفهوم الدين إلا إذا اقرن بالإيمان باليوم الآخر، ومن هنا نجد شعبياً يضم إلى دعوته بالتوحيد الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ويقول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٢).

ولقد تكررت الدعوة إلى الإيمان بالله منضمةً إلى اليوم الآخر في كثير من الآيات، وهو أوضح دليل على أن الإيمان بهما عماد الدين وأساسه.

٣. حفظ الحقوق في المعاملات

إن حفظ الحقوق في المعاملات من شُعب القسط الذي أمر الأنبياء بالقيام به، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٣).

٢. العنكبوت: ٣٦.

١. الأعراف: ١٠٥-١٠٦.

٣. الحديد: ٢٥.

وفي هذا الإطار أمر النبي ﷺ قومه بإيفاء الكيل والمنع عن البخس ويقول: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ والكيل هو المكيال كما في قوله تعالى: ﴿وَتَزِدَادَ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي مكيال بعير، فالجملة الأولى أي ﴿أوفوا الكيل والميزان﴾ تعود إلى حفظ حقوق المشتري، لأنّ التطفيف هو تنقيص المكيال والميزان وهو لصالح البائع وضرر المشتري وإن كان في الحقيقة ضرراً على المجتمع وسبباً للفساد.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وهذه الجملة تفيد غير ما تفيده الجملة المتقدمة فلا بدّ أن تكون راجعة إلى حفظ حقوق البائع، وذلك بالبيان التالي: قال في اللسان: البخس هو النقص بالتعيب أو التزهيد أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزويد في الكيل والنقصان منه.

فإذا كان هذا هو معنى البخس فهو من جانب المشتري، حيث يريد بتزهيده وتعيبه المبيع أن يخدع البائع ويشتريه بأقل من ثمنه. ويشهد على ما ذكرنا من أنّ البخس هو صيرورة البائع مغبوناً، قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ﴾^(١) أي باعوه دون قيمة أمثاله، وتساهلوا في ثمنه لأنهم حصلوه بغير عوض ولا كلفة.

٤. النهي عن الإفساد في الأرض

هذا هو الأصل الرابع لدعوة النبي ﷺ قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فظاهر الآية هو النهي عن كل ما يفضي إلى الفساد في الأرض من غير فرق

بين التطفيف في المكيال أو البخس في الأشياء أو غير ذلك من المعاصي والذنوب فيما يتعلق بحقوق الله أو حقوق الناس.

فقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن نفع هذا التشريع سيعود على الجميع إذا كانوا مؤمنين بدعوته.

ثم إنه علق نهيهِ عن الفساد في الأرض بقوله: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي أن ما تجمعونه بالتطفيف إنما هو متاع زائل، وما أدعوكم إليه، حظُّ باقٍ غير زائل، باقٍ في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فلأن رعاية القسط في المعاملة أساس الحياة، وأما في الآخرة فلأن الجزاء الأخروي فيض دائم وعطاء متواتر، قال سبحانه: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾^(١).

٥. النهي عن صد الناس عن الإيمان

ثمة أناس يتخذون عقائد ومناهج معينة في حياتهم، تتحقق في ظلها مصالحهم الشخصية ومنافعهم الذاتية، ويخشون من أية دعوة إلى الإصلاح، تعمل على تغيير الأوضاع السائدة التي اكتسبوا فيها مكانة زائفة ومنافع باطلة. ومن هنا يسعى هؤلاء إلى مواجهة الأشخاص الذين يستجيبون لتلك النداءات الخيرة والدعوات الصالحة، ويمارسون معهم سياسة المكر والتشويش والترغيب والترهيب، لصرفهم عن اتباع السبيل الأقوم، ولا يحترمون حقهم في اختيار العقيدة التي يقتنعون بها ويؤمنون بها عن دليل وبرهان.

وهذه الأساليب سلكها الجاحدون من قوم شعيب مع المؤمنين منهم، فنهاهم نبيهم عليه السلام عن ذلك، قائلاً لهم ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبَغُّونَهَا عِوَجًا ﴿١﴾.

والضمير (الهاء) في ﴿وَتَبَغُّونَهَا عِوَجًا﴾ يرجع إلى السبيل، أي تطلبون لسبيل الله عوجاً بالقاء الشُّبه، أو وصفها للناس بأنها معوجة. (١)
هذه هي الأصول الأساسية لدعوة شعيب عليه السلام.

٢

أسلوب دعوته عليه السلام

﴿قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. (٢)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. (٣)

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ...﴾. (٤)

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي إِنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمِ هُودٍ أَوْ قَوْمِ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾. (٥)

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾. (٦)

﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾. (٧)

١. تفسير البضاوي: ١/ ٣٤٩.

٢. الأعراف: ٨٥.

٣. هود: ٨٨.

٤. الأعراف: ٨٦.

٥. هود: ٨٩.

٦. هود: ٩٠.

٧. هود: ٨٤.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

استعان شعيب عليه السلام في هداية قومه بالأمور التالية:

١. الاعتماد على الدليل والبرهان

اعتمد شعيب في تبليغ دعوته على البينة التي أريد بها في المقام المعجزة قال: ﴿قَدْ جَاءَ تَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وذلك لأن البينة هي ما يتبين به الشيء، والإعجاز يبين حقيقة الدعوة وأنه صادق في دعوته وإخباره عن الله، وقد مر في الفصل السابق أن الأنبياء على صنفين: قسم منهم تقترن دعوته بالمعجزة، وقسم آخر تتأخر بينته عن دعوته حيث يأتي بالمعجزة بعد طلب الناس، ولعل النبي شعيب من الصنف الأول حيث يقول: ﴿قَدْ جَاءَ تَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾^(٣)، أو الصنف الثاني لاحتمال أن مراده هو إعداده لإتيان المعجزة.

٢. التذكير بنعم الله سبحانه

ذكر النبي شعيب قومه بنعم الله سبحانه التي تفرض شكر المنعم وإطاعته، ومن هذه النعم تكثير عددهم، وجعلهم أمة بعد أن كانوا معشراً بتهيئة

١. الأعراف: ٨٧.

٢. الشعراء: ١٨٠.

٣. هود: ٨٨.

الأسباب التي أدت إلى كثرة المواليد فيهم وقلة الوفيات ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾.

وقيل: إنه تعالى كثّرهم بالغنى بعد الفقر، أو بالقدرة بعد الضعف، ووجهه أنهم كانوا فقراء وضعفاء فهم بمنزلة القليل في قلة الغناء.^(١) ولا ريب في أن الأمة الكثيرة العدد أو التي تمتلك أسباب الغنى والقوة، هي أمة مُهابة، لا يلحق بها ظلم أو ضيم من سائر الأمم، وتعيش في أمن واستقرار وسعادة، وهذه نعمة كبرى تستوجب الحمد والثناء لمفيض النعم.

٣. التذكير بمصير المفسدين

في حياة الأمم السابقة عبر ودروس، والله سبحانه بالمرصاد للمفسدين والظالمين، وهنا يذكر شعيب قومه بمصير الأمم السابقة، ويقول: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(٢)، فلا تغرّنكم القوة والمنعة التي تتمتعون بها فسوف يحاسبكم الله بها في الدنيا قبل الآخرة، قال الإمام علي عليه السلام: «ولئن أمهل الظالم فلن يفوته أخذه، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه، وبموضع الشجى من مساع ريقه».^(٣) فقله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا تحملنكم عداوتي على مخالفة ربكم فيصيبكم من العذاب مثل ما أصاب قوم نوح من الهلاك بالغرق أو قوم هود بالريح العقيم أو قوم صالح بالرجفة، والحال أن قوم لوط منكم ليس ببعيد، وهل أراد به القرب

١. التبيان في تفسير القرآن: ٤/ ٤٦٤.

٢. هود: ٨٩.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٩٧، ص ١٨٧.

الزماني أو أراد القرب المكاني حيث إن دارهم كانت قريبة من دارهم، ولعله أراد به كليهما أي القرب مكاناً وزماناً، أي أن زمانكم قريب من زمانهم ودياركم قريبة من دارهم، يقول بعض المفسرين^(١): إن ديار مدين عند عقبه «أيلة» مجاورة «معان» مما يلي الحجاز وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت، وكان مدين بن إبراهيم عليه السلام وهو جد القبيلة المسماة باسمه - متزوجاً بابنة لوط.

٤ . التبشير والتحذير

الرسالة الإلهية رسالة واقعية تنطلق في أهدافها وأساليبها من نظرتها إلى الإنسان وما يعتمل في نفسه من أحاسيس ومشاعر، وما يتتابه من خوف أو رجاء. ومن هنا اعتمدت أسلوب التبشير والتحذير في دعوته إلى الحق والخير وتجنب الباطل والشر، لأن التبشير وحده يفتح للنفس رغباتها ومشتهاياتها ويدفعها إلى التجرؤ والانسحاق وراء المحرمات، والتحذير وحده يُغلق على النفس مطالبها الأساسية، ويبعثها على القنوط والشعور بالحرمان.

وفي إطار هذين الأسلوبين، يأتي حديث النبي شعيب مع قومه فتارة يأمرهم بالاستغفار ويقول: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.^(٢) وأخرى يحذرهم من عذاب الله سبحانه في الآخرة بقوله: ﴿إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.^(٣)

١ . راجع تفسير السمرقندي: ٥٤٦، وتاريخ ابن خلدون: ٢/ ٨١، القسم الأول.

٢ . هود: ٩٠.

٣ . هود: ٨٤.

٥ . الدعوة إلى نبد التنازع

مارس النبي شعيب عليه السلام مع قومه أساليب متعددة في حوارهم معهم، وألقى عليهم مختلف الحجج و البراهين في تأييد رسالته وتزييف عقائدهم وتقاليدهم، وحذّرهم وأنذرهم، ولما خاب رجاؤهم في اجتذابهم إلى روضة الإيمان والعمل الصالح، خاطب المؤمنين برسالته والرافضين لها بترك التنازع ونبد القهر والأذى، وانتظار أمر الله تعالى للفصل بينهم، وهو تعالى خير الحاكمين، إذ لا جور ولا محاباة في قضائه ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

وهذا الخطاب يحمل في طياته تحذيراً لخصوم الرسالة ، ودعوة إلى الكف عن ممارسة الضغوط على المؤمنين، وإلقاء الشبه عليهم.

٦ . الإخلاص في الدعوة

إن من أهم ما يميّز الأنبياء هو أن دعوتهم كانت خالصة لله سبحانه لا يطلبون عليها أجراً ولا مالاً، ولا يستهدفون من ورائها مصالح ذاتية ومكاسب شخصية، وهذا ما يجعلهم عليهم السلام - من هذه الناحية - فوق الشكوك والشبهات والالتهامات، ويجعل رسالتهم أدهى للقبول والإيمان بها عند ذوي النفوس السليمة والقلوب الواعية، قال شعيب عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

موقف قومه من الدعوة

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾. (١)

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾. (٢)

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. (٣)

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾. (٤)

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. (٥)

قد تعرّفت على أسلوب دعوة شعيب وأنه استخدم أسلوباً عقلاً أولاً وعاطفياً ثانياً، وكان يترقب أن يؤثر في قومه، ليصدهم عن الشرك والتطيف في

١. هود: ٩١.

٢. الشعراء: ١٨٥.

٣. الشعراء: ١٨٦.

٤. الأعراف: ٨٨.

٥. هود: ٨٧.

المكيال، والتبخيس في الأموال غير أن موقف قومه من دعوته اتسم بالرفض والعداء وتوجيه الاتهامات وإثارة الشبهات. ويبرز هذا الموقف في الأمور التالية:

أ. ادعاء الغموض في مضمون الدعوة.

ب. ضعف المكانة الاجتماعية لشعيب.

ج. الاتهام بأنه مُسخر.

د. ان البشرية لا تناسب الرسالة.

هـ. التهديد بالنفي.

و. رفض الدعوة التي تصادم عقيدة الآباء، وتنهى عن الكسب الحرام.

وإليك دراسة هذه الأمور واحداً بعد الآخر.

أ. ادعاء الغموض في مضمون الدعوة

من الناس مَنْ يتخذ أهواءه وميوله مقياساً لقبول الشيء ورفضه، فهو لا يؤمن أو لا يريد أن يؤمن بشيء لا يوافق أغراضه وميوله، مهما قام عليه من دليل وبرهان، ولذا يسعى إلى رده بأعذار واهية لا يقبلها العقلاء ولا وجدان المعتذر نفسه، وأوضح مثال لذلك قوم شعيب، الذين وصفوا دعوته ﷺ بالغموض في المضمون: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً يَمَا تَقُولُ﴾ مع أنه ﷺ لم يدعهم إلا إلى ركنين واضحين محددين هما:

١. نبذ الشرك.

٢. التحذير من الفساد المالي.

والحق أنهم يريدون بهذا العذر الواهي الإبقاء على الأوضاع كما هي، رافضين أي تغيير فيها يؤدي إلى فقدان مصالحهم الذاتية، وكأنهم يقولون

لشعيب: دَعْنَا وَشَأْنَنَا، فكلامك في غير محلّه، ولا طائل من ورائه، فنحن مصرّون على عقيدتنا وسوء استغلالنا للأموال.

ب . ضعف المكانة الاجتماعية

لقد أعرض قوم شعيب عن رسالة نبيّهم ﷺ، قائلين له: ﴿وَأَنَا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ وكانَ سَمَوَ المكانة الاجتماعية آية كون الدعوة صادقة.

وبما أنّ الشياطين يوحى بعضهم إلى بعض نرى تلك الذريعة قد وردت في حوار فرعون مع موسى رافضاً دعوته لأجل هذه السمة، قال: ﴿يَا قَوْمِ الْبَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ * أمّ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴿^(١) مع أنّ الشرط الأساسي في صحة الدعوة كونها مقرونة بالبرهان، موافقة للفترة سواء أكان الداعي قوي المنزلة أو ضعيفها.

ج . الاتهام بأنه مُسَحَّر

إنّ اتّهام الأنبياء بأنهم قد سُحروا حتّى اختلّت عقولهم، سبيل كلّ معاند لا يقدر على ردّ دعوتهم ﷺ بالدليل والبرهان والمنطق. وبما أنّ الأنبياء كانوا نقيتو الثوب، ولم يجد المخالفون لهم عيباً في صحائف حياتهم لجأوا إلى اختلاق هذا النوع من الاتهام الذي يقبله عوام الناس بلا دليل. ولم يسلم شعيب ﷺ من هذا الاتهام، إذ قال له قومه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين سُحروا كثيراً حتّى غلب على عقولهم.

د. البشرية لا تناسب الرسالة

إن الاعتراض على الأنبياء بالبشرية كالاتهام بأنهم مسحورون أو مجانين، هو الطريق الذي يلتجئ إليه المعاند العاجز عن مقابلة الدليل بالدليل، والمنطق بالمنطق، مع أن الوحدة في الجنس ضرورية في المرسل والمرسل إليهم.^(١)

هـ. التهديد بالنفي

من الأساليب التي استخدمها قوم شعيب لصدّه عن الدعوة هو تهديده ومن آمن به بالإخراج والإبعاد من القرية التي كانوا يعيشون فيها، وقد خيروهم بين الخروج من القرية أو العودة إلى ملة الشرك طوعاً أو كرهاً كما يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

وهذا هو الذي أجاب عنه شعيب على وجه التفصيل، وستطرق إليه في آخر هذا الفصل.

و. رفض الدعوة التي تصادم عقيدة الآباء، وتنتهي عن الكسب الحرام

دعا النبي شعيب عليه السلام قومه إلى عقيدة التوحيد ونبذ الشرك، وإلى مراعاة حقوق الناس في أموالهم، فلا يُنقصونها عند الكيل والوزن، فردّ عليه الطغاة المترفون بسخرية واستهزاء، و﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ...﴾ أي أن في دعوتك ما

١. مرّ الكلام عن هذا الاعتراض في قصص: نوح وهود وصالح عليهم السلام، فراجع إن شئت مزيداً من التوضيح.

يسبب تسفيه الآباء في عقيدتهم ومنهجهم، والإنسان الرشيد لا يسفه آباءه وأجداده، كما أن قولهم ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ يدل على أن الصلاة ليست مجرد شعيرة تعبر عن الارتباط بين العبد وربّه، بل تقتضي مراعاة العدل والأمانة والنزاهة عند تحصيل الأموال وكسبها، فقوله: ﴿أَوْ أَنْ نَفَعَلْ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ عطف على ﴿مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا، فتكون النتيجة ترك عبادة آبائنا وترك فعل ما نشاء في أموالنا من البخس والتطيف.

ثم حاولوا صرفه عن الدعوة بشيء من الرشوة وذلك بإثبات هاتين الصفتين له: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أنه يقبح بك وأنت الحليم الرشيد أن تندفع إلى إبداء مثل هذا الأمر الذي يدل على السّفه والطيش، كيف تأمرنا بترك تقاليدنا التي ورثناها عن الآباء؟! وكيف تسلبنا حريتنا في التصرف بأموالنا كيف نشاء، وقد رسخ حلمك وتكامل رُشدك؟! (١)

إلى هنا تم ذكر نقودهم وردود فعلهم لدعوة شعيب وأكثرها واهية إلا أنه ﷺ قد مرّ عليها مرور الكرام، وأجاب فقط عن أمرين منها:

١. تخييرهم له بين أمرين: رفض التوحيد أو الخروج من القرية.

٢. حكمهم عليه بالرجم لولا تكريم رهط شعيب.

أما الأول فأجاب عنه بقوله: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ ففي هذا الجواب إشارات إلى أمور منها:

١. يذهب السيد الطباطبائي إلى أن وصف شعيب ﷺ بالحلم والرشد من قبل قومه لم يكن على سبيل التهكم والاستهزاء - كما هو عليه كثير من المفسرين - بل هو على سبيل الإثبات والتأكيد، ليكون أبلغ في ملامته والإنكار عليه. الميزان في تفسير القرآن: ١٠/٣٦٦.

١. ان الرجوع من التوحيد إلى الشرك والتدين به افتراء على الله سبحانه.

٢. ان الرجوع إلى الشرك رجوع إلى الهلكة وقد نجانا الله منها فهل يلقي

العاقل نفسه في الهلكة.

ثم إن شعيباً واتباعه استثنوا، بقولهم: «إلا أن يشاء الله ربنا»، وليس معنى

ذلك أنه سبحانه ربما يشاء الشرك لعباده، بل المراد هو أن ثباتنا على التوحيد وعدم الرجوع عنه كله بفضل من الله ولولا فضله ومشيتته يضل كل إنسان.

وأما جواب شعيب عن الأمر الثاني، فهو قوله: «أرهطي أعز عليكم من

الله واتخذتموه ورائكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط»، وفي الجواب

تقريع للقوم وأنهم كيف يقولون ذلك، فالله أعز من الرهط لا العكس، فالعزة لله

سبحانه وعزة غيره نابعة من عزته، فأنتم قد جعلتم طاعة الله وراء ظهوركم والله

عالم بما تعملون.

٤

إبادتهم ونزول العذاب

«و يا قوم اعملوا على مكاتبتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه

عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب»^(١).

«فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين»^(٢).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١).
 ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٢).
 ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٣).
 ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾^(٤).
 ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥).

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ أبلغتكم رسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^(٦).

قد بلغ شعيب رسالة الله سبحانه إلى قومه ونصحهم، ولم يعبا بتهمهم ولا بتهديداتهم، ولكنه بعدما يشس من إرشادهم وهدايتهم، أنذرهم بالعذاب فقال:
 ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي اعملوا على حالتكم هذه، والمكانة هي الحال التي يتمكن بها صاحبها من عمل ما، كما ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾، بما أمرني ربي، فهو ﷺ يقول لهم قد مكنتم في الدنيا من العمل، كما مكنت غيركم ممن عمل بطاعة الله، وسترون منزلتكم من منزلته. وهذا في الواقع تهديد في صورة الأمر. لكن ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حين يتبين المخطئ من المصيب والجاني على نفسه من

١. الشعراء: ١٨٩.

٢. الأعراف: ٩١، والعنكبوت: ٣٧.

٣. هود: ٩٤.

٤. هود: ٩٥.

٥. الأعراف: ٩٢.

٦. الأعراف: ٩٣.

الناصح ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّجْزِيهِ﴾، أي يبينه ويفضحه ويظهر الكاذب من الصادق ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾، أي انتظروا ما وعدكم ربكم من العذاب كما أتى معكم منتظر حلول العذاب بكم.

ومع ذلك كله فهؤلاء المغفلون لم ينتبهوا من نومتهم وغفلتهم، وأصروا على السخرية والتكذيب، وقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. (١)

والكِسْف جمع كِسْفَة وهو القِطْع من السماء فطلبوا منه أن يسقط عليهم السماء قطعة بعد قطعة، وهذا يدل على شدة طغيانهم الذي بلغ بهم درجة أن يختاروا كيفية العذاب، ولكن الأمر لله وحده، يعذبهم كيف يشاء، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والظلة - كما يقول المفسرون - هي السحابة التي استظل بها قوم شعيب من حرِّ أصابهم، فأمطرت عليهم ناراً، فأحرقتهم جميعاً. (٢)

وقد عبر القرآن الكريم في آيات أخرى عن نوع العذاب الذي أصابهم بـ (الصيحة) و(الرجفة)، اللتين تركتهم صرعاً منكبين على وجوههم (جائمين). وقد مضى تفسير هذه المعاني في قصة صالح عليه السلام مع قومه الذين جاء التعبير عن نهايتهم شبيهاً بالتعبير عن نهاية قوم شعيب عليه السلام.

نجاة شعيب والمؤمنين من العذاب

جرت مشيئة الله تعالى الحكيمة العادلة عند إبادة أي قوم لطغيانهم على

١. الشعراء: ١٨٧.

٢. انظر مجمع البيان: ٤/ ٢٠٢.

إنقاذ نبيهم والمؤمنين به، وهذه هي إحدى الأمور الخارقة للعادة، ولذلك يحكي سبحانه عن إنقاذ شعيب والمؤمنين معه وهلاك الآخرين من قومه، قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ .

وبذلك تحقق الوعد الإلهي وإن للباطل جولة وللحق دولة، وهؤلاء المكذبون لأنبياء الله ورسوله كانت لهم جولة وصخب وهياج ولكن بعد أن نزل العذاب أصبحوا وكان لم يكونوا شيئاً مذكوراً، قال سبحانه ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ وغني في المكان إذا أقام به على وجه الاستغناء به عن غيره واتخاذ وطناً وماوى يأوي إليه. ومعنى الآية: كان لم يقيموا فيها، ﴿أَلَا بُعْدًا لِلَّذِينَ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ بُعْدًا منصوب على كونه مفعولاً مطلقاً كـ «تأله» أو «سحقاً» والبعد كناية عن التحقير، الملازم لكراهية الشيء كأنه يريد أن لا يراه، وقد شبه بعدهم ببعد ثمود خاصة، لأنهم أهلكوا بالصيحة كما أهلكت ثمود مثل ذلك مع الرجفة. (١)

خطاب شعيب لقومه

بعد أن سقط القوم صرعى في أماكنهم بسبب هول العذاب، أعرض شعيب عنهم إظهاراً لكراهته إياهم وخاطبهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ أبلغتكم رسالاتِ رَبِّي﴾ ولكن لم تؤمنوا ﴿وَتَصَخَّتْ لَكُمْ﴾ فلم تقبلوا، وقد نزل بكم البلاء فاستوجبتم ذلك بجنايتكم على أنفسكم ﴿فكَيْفَ آسَى﴾ وأحزن ﴿عَلَى قَوْمِ كَافِرِينَ﴾، وفي الآية دلالة على أن الأنبياء ربما يتكلمون مع الموتى بعد هلاكهم وإبادتهم، والدليل على أن تكلم شعيب مع قومه كان بعد نزول العذاب ووقوعهم صرعى

على الأرض هو تخلل الـ «فاء» حيث قال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ الدال على الترتب، وقد مرّ نظير ذلك في قصة ثمود.

خلاصة قصة شعيب عليه السلام

كانوا في عيشٍ خَصِل: نمت أعدادهم وعظمت قدراتهم واتسعت أرزاقهم، ولكنهم كفروا بأنعم الله تعالى بالإقامة على الشرك، والتماذي في الفساد، والتنافس في الكسب الحرام. أولئك هم (أصحاب الأيكة) أو (مَدِين) (١)، القبيلة التي تنتسب إلى مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام (كما يقول المؤرخون والمفسرون). (٢)

بعث الله تعالى فيهم نبياً منهم ﴿وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وأيده بآية بيّنة، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونعى عليهم سوء استغلال أموال الناس والتجاوز على حقوقهم، وقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لافتاً أنظارهم إلى الثروة التي يتمتعون بها ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ فلا مُسَوِّغٍ لاقتحام الطرق الدنيئة لتنميتها، مذكراً إياهم بأن الرزق الطيب خير وأبقى ﴿بَقِيَّةٌ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أطلق نداءاته هذه، وقرّنها بالعمل، وتناهى عن الأعمال المنكرة قبل أن ينهى عنها، ولم يضع في حسابه التلبس بها، مستهدفاً من وراء ذلك الإصلاح الشامل للمجتمع، مستمداً العون من ربه لإنجاز أهدافه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

١. وقال المفسرون والمؤرخون: إن (مدين) اسم قرية شعيب عليه السلام أيضاً.

٢. راجع التبيان: ٤/ ٤٦١ وج ٤٧/٦.

إِلَى مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١﴾.

اجتهد عليه السلام في إرشادهم والنصيحة لهم بأبلغ حجة وأسطع برهان والطف
أسلوب، منطلقاً في ذلك من قاعدة أمانته على الرسالة، وإخلاصه لها، وبعده عن
آية مآرب شخصية ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾.

ولكنهم أعرضوا عن ذلك كله، ووقفوا منه موقفاً صارماً، مرددين نفس
الكلمات السمجة التي فاه بها أسلافهم من المشركين الطغاة ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ
الْمُسْحَرِينَ ﴿١﴾﴾، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ كَاذِبًا لَّئِن لَّمْ يَكْفُرْ
بِالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِكَ لَيُخَذَنَّ بِالَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
الَّذِي بِالْبَيِّنَاتِ يُدْعَوْنَ لِيُحْجَمُوا وَكَانُوا هَادِينَ إِلَىٰ ضَلَالٍ كَبِيرَةٍ ﴿١﴾﴾.

وعبروا عن مكابرتهم وصدودهم عن الحق بهذا الادعاء ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ
كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴿١﴾﴾ فلذ بالصمت، فلا جدوى من كلامك الذي يُفقدنا- إذا أخذنا به
- امتيازاتنا الذاتية.

وراحوا يتساءلون في سخرية واستهزاء ﴿يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ
مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَالَّذِي أَصْبَحَ فِينَا سَنَةً جَارِيَةً ﴿١﴾ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴿٢﴾﴾ من
ضروب الكسب والتعامل، التي تعبر عن ذكائنا ومهارتنا في تحصيلها
وإربانها؟! ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿١﴾﴾ فكيف تطلق مثل هذه الأقوال البعيدة
عن الحلم والرشد؟!!

وتوالت الضغوط على شعيب عليه السلام، وهددوه في حياته قائلين: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا
ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١﴾﴾، وسعوا إلى التضييق عليه،
بإرعاب أصحابه المؤمنين به وإثارة الشبهات بينهم لصرفهم عنه، فخاطبهم عليه السلام
بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ

وَتَبَغُّونَهَا عِوَجًا ﴿١٠٠﴾

ثم تصاعدت وتيرة الضغوط على النبي شعيب وعلى أتباعه، ووضعوهم بين خيارين: الإخراج من البلد، أو الرجوع إلى دين آبائهم.

وقف شعيب عليه السلام إزاء هذه الاتهامات والتهديدات موقف الشجاع الحكيم، وردّ على بعض التهم وأعرض عن بعض، مذكراً إياهم بالقوة الحقيقية التي ينبغي أن يرهبوها، وهي قوّة الله المحيط بكلّ شيء علماً، مشيراً إلى نعمة الهداية إلى الحق التي منّ بها سبحانه عليه وعلى الذين آمنوا معه، قائلاً: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾.

لم تجد كل هذه الحوارات والاحتجاجات والإنذارات آذاناً صاغية منهم، وعند ذاك خاطبهم عليه السلام بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ فقد آيست من استجابتكم لدعوتي ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ بما أمرني ربي. ثم حذّره من حلول نقمة العزيز الجبار بهم، قائلاً: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾.

ثم حقت عليهم كلمة العذاب بكفرهم وعتوهم ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وخزوا على وجوههم صرعى خاسئين، وكأنتهم لسرعة زوالهم لم يقيموا في هذه الديار ولم يعمروها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

وفي نهاية المطاف، وقف شعيب بعد أن أنجاه سبحانه هو والذين آمنوا معه برحمة منه، وقف عليه السلام على جشهم الهامدة، وهو يستذكر جهوده الضائعة فيهم، قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ ولكنكم ارتضيتم لأنفسكم هذا المصير المخزي ﴿فكَيْفَ آسىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كافرين﴾.

الدروس والعبر

١. إن الرسائل السماوية كما تهتم بالجانب الروحي، فإنها تهتم أيضاً بالجانب الاجتماعي، وتضع الحدود والضوابط التي تحكمه، وتؤكد على الترابط الوثيق بينهما، وتأثير كل منهما على الآخر.

وفي قصتنا هذه (قصة شعيب عليه السلام) نرى الدعوة إلى عقيدة التوحيد وتقوى الله تعالى تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى ترك الغش في الكيل والوزن، وإيفائها بالقسط، وإعطاء كل ذي حق حقه، وتجنب الفساد في الأرض.

وتبرز هذه العلاقة بين الجانبين في الخطاب الموجه من مَدِين إلى نبيهم، حيث ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَانِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَشْرِكَ مَا يَغْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيهِمْ أَمْوَالَنَا مَا نَشَاءُ ﴾ .

ولا شك في أن الرسالة الخاتمة، هي أشمل الرسائل الإلهية، إذ تناولت كافة المجالات التي تخص الإنسان، وعالجت جميع شؤونه وحاجاته.

٢. إن الحرص على تكثير الأموال وحيازتها لا يقف عند حد، وإن حاجة الإنسان ليست هي الدافع وراء ذلك، بل البعد عن القيم الروحية والمسؤولية الأخلاقية، هو الذي يفتح طموحاتها المجنحة، وعندئذٍ يسترقيها الطمع، وتطلب ما تجد وما لا تجد، وتقتحم الموانع والحواجز في سبيل اصطياد المزيد من الفرص التي تتيح لها الثراء والغنى الفاحش، دون أن تكثر لزفرات الآخرين وآهاتهم بما يصيبهم من ظلم وحرمان، ودون أن تعبا بما تركه أساليبهم الماكرة في الكسب من

آثار سلبية على المجتمع وأمنه وصفائه، وعلى قيم العدل والخير والإنصاف. وقد تجلّى هذا الحرص، والغش والاحتيال في التعامل في قوم شعيب عليه السلام، فعلى الرغم من غضارة عيشهم، فإن نفوسهم الطامعة سوّلت لهم التلاعب بالمكاييل والأوزان، والاعتداء على حقوق الناس، والإفساد في الأرض، الأمر الذي عرّضهم لسخط العزيز الجبار وغضبه، فأصبحوا في ديارهم جائعين، كأن لم يقيموا فيها ولم يكتزوا الثروات والأموال.

٣. إن الأنبياء عليهم السلام هم الأسوة والقدوة في الاستقامة وإقران القول بالعمل، فلا ينكرون منكراً إلا وقد تناهوا عنه، ولا يأمرّون بمعروف إلا وقد سبقوا إليه، منطلقين في ذلك من دوافع ذاتية وفطرية، صقلها عمق الإيمان بالله تعالى والإخلاص له والذوبان فيه والخشية منه والثقة بها وعد عباده المؤمنين.

وهذا هو النبي شعيب عليه السلام يضرب المثل الأعلى في الالتزام برسالته الإصلاحية الداعية إلى الإنصاف في التعامل و التنزه عن الغش في المكاييل والأوزان واحترام حقوق الناس. ومن هنا صرح قومه بسلامة مسيرته ومواقفه، ووضوح أهدافه التي لا يشوبها هوى ولا مصلحة ذاتية، قائلاً لهم: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وهذا الدرس ينبغي أن يتمثله المصلحون والرساليون، وأن يضعوا نصب أعينهم قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»^(١)، وقوله: «العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه»^(٢)، فالمفاهيم والأفكار والنظريات مهما كانت صائبة وصادقة، فإنها لا

١. نهج البلاغه: ٤/ ٧٩ برقم ٣٣٧.

٢. نهج البلاغه: ٤/ ٨٥ برقم ٣٦٦.

تؤثر التأثير المرجو لها ما لم تُقرن بالتجسيد والتطبيق والممارسة.

٤. إن دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى أن يزنوا بالقسطاس المستقيم، وإن كانت تتعلق بوجوب تحري العدل عند تقويم الموزونات، إلا أنه يمكن الاستفادة من هذه الضابطة وتعميمها على مجال أوسع وأفق أرحب، يتمثل في السعي إلى أن نزن ونقوم كل عمل وكل جهد يبذله الإنسان وفي كافة مجالات الحياة، وفق مقاييس العدل والإنصاف، لأن ذلك يعتبر الضمانة الأكيدة لتجنب الظلم، ووضع الأشياء في غير موضعها، وما يبعثه ذلك من آثار سلبية ومشاعر سيئة تُحمد المواهب والطاقات الفاعلة وتصدّ عن العطاء، وتهتد العلاقات الاجتماعية والأواصر الإنسانية بالصميم.

٥. إن التهديد بالنفي الذي تعرّض له شعيب عليه السلام من مستكبري قومه، هو نتيجة طبيعية لشعورهم بالعجز عن مقارعة الحجة بالحجة، والمنطق بالمنطق. ولا ريب في أن المستكبرين في كل زمان ومكان يخشون من تأثير الدعوة الخيرة والكلمة الصادقة التي يطلقها المصلحون والخيرون، وعندما تتعرّ أساليبهم الماكرة في ثنيهم عن مواصلة مسيرتهم، لم يجدوا بداً من استعمال القوة لإبعادهم عن الساحة، وخنق أصواتهم، حفاظاً على مصالحهم غير المشروعة، ووجاهتهم المزيفة.

يعقوب عليه السلام

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ويسمى أيضاً إسرائيل، وإليه يُنسب جميع أنبياء بني إسرائيل. وقد ذُكر في القرآن باسم يعقوب ست عشرة مرة^(١) وباسم إسرائيل مرتين.^(٢)

إنّ قسماً من حياة يعقوب يتداخل مع حياة ابنه يوسف، وبما أننا سنتطرق بالتفصيل الوافي لقصة يوسف، لذا فسوف نختصر الكلام هنا، ببيان ما لا نذكره هناك.

١. يذكر سبحانه أن نبين كريمين قد وصيا أولادهما بالتوحيد ونبذ الشرك، قال سبحانه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣). والضمير في «بها» يرجع إلى ملة إبراهيم وهي

١. البقرة: ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، آل عمران: ٨٤؛ النساء: ١٦٣؛ الأنعام: ٨٤؛ هود: ٧١؛

يوسف: ٦، ٣٨، ٦٨؛ مريم: ٦، ٤٩، الأنبياء: ٧٢؛ العنكبوت: ٢٧؛ ص: ٤٥.

٣. البقرة: ١٣٢.

٢. آل عمران: ٩٣؛ مريم: ٥٨.

التوحيد المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(١)، أي لا يرغب عن ملة إبراهيم ويتركها إلا من جهل أنها- أي نفسه - مخلوقة لله يجب عليها عبادته، أو استخف بها وامتهنها.

ثم إنه سبحانه يذكر وصية يعقوب لبيه، ويقول: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

وقد ذكر المفسرون أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فنزلت الآية المباركة بأنه ما أوصى إلا بالتوحيد الذي هو ملة آبائه كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وعُدَّ إسماعيل أباً للتغليب ولأن العم بمنزلة الأب.^(٣)

٢. يصفه سبحانه بالعلم الذي علمه الله سبحانه دون أن يتعلم من الناس، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

٣. يظهر من بعض الآيات أن إسرائيل حرّم على نفسه بعض الطعام كما يحكي عنه سبحانه ويقول: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥).

١. البقرة: ١٣٠.

٢. البقرة: ١٣٣.

٣. تفسير الجلالين: ٢٠.

٤. يوسف: ٦٨.

٥. آل عمران: ٩٣.

تدل الآية على أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل قبل أن تنزل التوراة على موسى، ولكنها حين أنزلت، تضمنت تحريم بعض ما كان حلالاً لبني إسرائيل.

كما أن إسرائيل، في الوقت الذي لم يُحرّم فيه شيء على بني إسرائيل، حرّم على نفسه بعض الطعام.

وأما ما هو الطعام الذي حرّمه على نفسه، وما الداعي لذلك فقد اختلف المفسرون فيه.^(١) ولعل الداعي هو الزهد في اللذائذ.

إلى هنا تم ما يمكن بيانه هنا ويأتي بعض ما له صلة بحياته في الفصل الآتي.

يوسف بن يعقوب عليه السلام

ورد اسم يوسف عليه السلام في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة، كلها في سورة يوسف، باستثناء مرتين اثنتين ورد فيها اسمه في سورة الأنعام^(١)، وسورة غافر^(٢). إن خصائص يوسف ومنزلته عند الله وعند الناس واضحة لمن تدبر في آيات سورة يوسف، ونحن في غنى عن سرد شيء منها في هذا المقام، غير أننا نذكر أموراً تمهيدية لما نسرده من قصة يوسف:

١. كان عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل، وسلسلة نسبه كالتالي:

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وأما يعقوب فيقع في رأس السلسلة، فهو أبو أنبياء بني إسرائيل.

٢. يستفاد من سورة غافر أن يوسف عليه السلام نال مقام النبوة عند إقامته في

مصر، وبُعثَ لهداية الناس من الشرك إلى التوحيد، ولكن الناس لم يكثرثوا

١. الآية: ٨٤.

٢. الآية: ٣٤.

لرسالته، قال سبحانه وهو يخاطب بني إسرائيل من قوم موسى ﷺ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (١).

٣. من خصائص قصة يوسف انها عُرضت في القرآن مرة واحدة وبجميع حلقاتها على خلاف سائر القصص التي تكرر عرض كثير منها في القرآن الكريم، موزعة حلقاتها على أكثر من سورة منه، مع التأكيد على (أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في سورة واحدة، من ناحية القدر الذي يُساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حينما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار). (٢)

ولعل الوجه في إيراد قصة يوسف مكتملة، هو أن الاعتبار بها رهن الاطلاع عليها وقراءتها كاملة في وقت واحد.

٤. إن الله سبحانه أسمى قصة يوسف بـ: «أحسن القصص»، لأنها جزء من القرآن وهو بجميعة أحسن القصص، قال الإمام علي ﷺ: «إن أحسن القصص وأبلغ الموعظة وأنفع التذكر، كتابُ الله عز وجلّ». (٣)

وبعبارة أخرى: إن قصص القرآن من جهة حسن النظم وإعجاز الأسلوب، وما تتضمنها من العبر والحكم من أحسن القصص، فهو أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن الكريم.

٥. إن الغرض الأساسي من هذه القصة - كسائر قصص الأنبياء - هو إبراز

١. غافر: ٣٤.

٢. في ظلال القرآن: ١/٦٤.

٣. نور الثقلين: ٢/٤٠٩.

مسألة العقيدة والإيمان بالله تعالى، ودورها في صياغة الأفكار و التصورات، وتأثيرها في السلوك والعمل والموقف، وتبيان الثمار الطيبة التي يُجنيها المؤمن المتقي الواقف عند حدود الله، والكشف عن مصير الجاحد الضالّ الحائر عن طريق الهدى، فالنجاة والفوز للأول، والهلاك والخسران للثاني.

وثمة مقاصد أخرى ولفئات وعظات تتضمنها القصة، ولكنها لا تخرج عن إطار الغرض المذكور، بل تزيده وضوحاً ورسوخاً.

٦. نزلت سورة يوسف بمكة قبل هجرة النبي ﷺ إلى يثرب، وليس لإنسان أن يتهم النبي الأكرم بالأخذ عن التوراة إذ لم يكن في مكة قط، لا يهودي ولا مسيحي حتى يقال بأن النبي ﷺ قد تعلم تلك القصة منه، إذ إن معقل اليهود كان يثرب، وما والاها، فهذا الأمر صار بنفسه معجزة وبرهاناً لنبوته، إذ أنه سرد قصة يوسف كاملة نقية وسالمة مما لا يصح نسبته إلى المعصوم.

٧. جاءت قصة يوسف في التوراة والذكر الحكيم وعند المقارنة يتجلى للقارئ أن القرآن لم يتأثر بها قيد شعرة، إذ فيها من الأباطيل ما لا يصدق العقل ولا يدعمه البرهان ولذلك صار القرآن مهيمناً على الكتب السماوية.^(١)

مراحل حياة يوسف عليه السلام

سندرس في ظل الآيات القرآنية الكريمة حياة يوسف ضمن مراحل مختلفة، ولكل مرحلة محطات، يكمل بعضها بعضاً. وإليك تلك المراحل:

الأولى: حياته في صباه: بين حب الأب وحسد الإخوة.

الثانية: في بيت عزيز مصر.

الثالثة: حياته في السجن وخروجه منه.

الرابعة: انتخابه للوزارة.

المرحلة الأولى:

١

حياته في صباه: بين حب الأب وحسد الإخوة

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ
لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
وَعَلَى آلٍ يَغْتُوبُ كَمَا أُنْمَاهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ﴾. (١)

نقف هنا عند المحطة الأولى من المرحلة الأولى في حياة يوسف عليه السلام، وفيها تظهر طبيعة الجو العائلي الذي كان يعيش فيه، والذي تقاسمه نوعان من المشاعر: مشاعر الحب والعطف والشفقة والحنان التي كان يغمرها بها أبوه النبي المخلص لله تعالى، ومشاعر الغيرة والبغض والحسد التي كانت تعتمل في نفوس

إخوته تجاه أخيهم الصغير بسبب هذا الحب الأبوي.

كما تظهر في هذه المحطة ملامح شخصية يوسف، وتكوينه النفسي والروحي منذ صغره، إذ رأى في منامه - وهو لا يزال صبياً - رؤيا عجيبة، وصفها لأبيه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنَّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١).

أدرك الأب المؤمن الحنون مغزى هذه الرؤيا، وما سيكون لهذا الصبي من شأن خطير، وما ينتظره من مستقبل زاهر في ظلال العناية الربانية والألطف الإلهية، ولكنها أيضاً أثارت هواجسه ومخاوفه، ولهذا بادر إلى نصيح ابنه بأن لا يحدث إخوته برؤياه، فيؤجج بذلك مشاعر الحقد في قلوبهم أكثر، ويسؤل لهم الشيطان المكر به وتدبير ما من شأنه أن يضره: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وهذه الكرامة التي خصه الله تعالى بها، والمتمثلة بإراءته هذه الرؤيا، ستكون فاتحة خير لكرامات ومواهب جزيلة أخرى، بشر بها يعقوب عليه السلام ابنه بقوله: ﴿وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وهذه البشائر عبارة عن:

١. إن استعمال ما يختص بالعقلاء - ضمير الجمع المذكور وجمع المذكر السالم - للكواكب والشمس والقمر في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، إنما ورد لغاية جعلها في صورة العقلاء، بشهادة أنها سجدت ليوسف، والسجود - كما هو معلوم - حاكٍ عن الشعور والإرادة المختصين بالعقلاء.

١. الاجتباء، وهو الاختيار والاصطفاء، حيث اصطفاه الله على غيره، وخصه بمكارم الأخلاق ومعالي الأمور.

٢. تعليمه تأويل الأحاديث، والمراد به تعبير الرؤى، سميت أحاديث لأن الرائي يتحدث برؤياه إلى أقربائه وأصحابه أو إلى من يُعبرها له.

وقد برع يوسف عليه السلام - بتعليم من الله - في تفسير الرؤيا ومعرفة مآلها، وسيوافيك تفصيل ذلك.

وقيل: معناه يعلمك تأويل الأحاديث في آيات الله تعالى ودلائله على توحيده، وغير ذلك من أمور دينه.^(١)

٣. إتمام النعمة، وهو إعطاؤها بأفضلها وأكملها، والمراد به هنا النبوة والرسالة.

لقد ورد في القرآن الكريم أن يعقوب عليه السلام أوصى ولده بأن لا يقص رؤياه على إخوته، وسياق الآية يدل على أنه اطاع أمر والده، لكن التوراة تذكر خلاف ذلك فقد جاء فيها: ورأى يوسف حُلماً فأخبر به إخوته فازدادوا بغضاً له قال لهم: «اسمعوا هذا الحلم الذي رأيته: رأيت كأننا نحزم حُزماً في الحقل، فإذا حزمتي وقفت ثم انتصبت فأحاطت حزمتكم بحزمتي وسجدت لها» فقال له إخوته: أترك تملك علينا أو تتسلط علينا. وازدادوا أيضاً بغضاً له بسبب أحلامه وأقواله.

ورأى أيضاً حُلماً آخر، فقصه على إخوته وقال: رأيت حُلماً أيضاً كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي.

ولما قصه على أبيه وإخوته، وبخه أبوه وقال: ما هذا الحلم الذي رأيته؟

١. التبيان في تفسير القرآن: ٦/٩٨. وفيه: والتأويل في الأصل هو المنتهى الذي يؤول إليه المعنى. وتأويل الحديث فقهه الذي هو حكمه، لأنه إظهار ما يؤول إليه أمره مما يعتمد عليه وفائدته.

أترانا نأتي أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوته، وأمّا أبوه فكان يحفظ هذا الأمر.^(١)

وإذا قارن القارئ الكريم بين ما جاء في الذكر الحكيم حول قصة يوسف وبين ما ورد في التوراة لقضى بأنّ سورة يوسف - مضافاً إلى بلاغتها وفصاحتها - من صنع الوحي الذي أوحاه الله تعالى إلى نبيه، فلا ترى فيها أيّ كلمة أو جملة تناقض مقام النبوة وعصمة الأنبياء وأخلاقهم، وسوف نذكر في المستقبل مواضع الخلاف بين القرآن والتوراة عند سرد القصة.

٢

المؤامرة الفادرة لإخوة يوسف ﷺ

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَبِّينَ﴾.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ﴾.

﴿أُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَبْحَثُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا

صَالِحِينَ﴾.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهَا بَعْضُ

السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾.

١. الكتاب المقدس (التوراة، سفر التكوين ٣٧/٥-٢٥) ص ١٢٦.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لَبِخْرُتُنِّي أَنْ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ

غَافِلُونَ﴾.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَسْبِيْنَهُمْ

بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. (١)

كان إخوة يوسف يرون أن أباهم يؤثر يوسف وشقيقه عليهم في حبه وعطفه، الأمر الذي أثار غيظهم وحنقهم، ثم جاش الحقد في صدورهم ليتحرك على أرض الواقع في حياكة مؤامرة دنيئة، يستهدفون بها حياة يوسف عليه السلام، وقد شرع القرآن الكريم في عرضها بأسلوب قصصي رائع، مستهلاً ذلك بهذه الآية التي تثير اهتمام القارئ اللبيب: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾.

وهنا يتأكد الغرض القرآني من سرد القصص، وهو بث العبر والعظات لمن

يلتمسها من السائلين، رواد البحث عن الحقائق.

وهذه القصة غنية بالعبر والدلائل والآيات لمن يريد الانتفاع بها، والاستنارة

بأضوائها في مسيرة حياته، وتتلخص في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ

لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. (٢)

نشاهد في هذه المحطة وهي الثانية من حياة يوسف، نشاهد اجتماع الإخوة

لتداول قضية يوسف وأخيه، التي شغلت قلوبهم وأسهرت عيونهم، وافتتحوا

كلامهم بالإفصاح عن منشأ هذه القضية، وهو أن أباهم يحب هذين الأخوين

١. يوسف: ٧-١٥.

٢. يوسف: ٩٠.

أكثر منهم: ﴿لِيُؤَسِّفُ وَأُخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْنَا﴾^(١)، وهذا الأمر - كما يتصوِّرون - يبعث على العجب، إذ كيف يؤثر علينا هذين الصغيرين، غير القادرين على تأدية الأعمال وتدبير شؤون الحياة، بينما ﴿نَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ قوّة ونافعة، تضطلع بهذه المسؤوليات والواجبات؟! ولكنّ أبانا - حسب نظرهم المحدود بالمصالح الدنيوية الضيقة - ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إذ يُعرض عن مجتهد في توفير المصالح والمنافع، ويُحسن إدارتها وتدبيرها.^(٢)

ولكن مقاييسهم وتقديراتهم هذه كانت خاطئة، إذ لم يدركوا سرّ هذا الحب والاهتمام والرعاية والإكرام، الذي يوليه يعقوب لولده يوسف، وقد كشفت عنه الأحداث فيما بعد، كما أثبتت الأحداث والوقائع أنّهم كانوا في ضلال مبين، وقد لمسوا ذلك بأنفسهم، وأشاروا إليه بقولهم ليوسف: ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ آتٰرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا﴾.

نعود إلى اجتماع الإخوة، لنشهد حوارهم من أجل رسم خطة، يتخلّصون بموجبها من هذا الصبي النجيب البريء استولى حبه على قلب أبيهم، وبرز هنا رأيان: رأي يدعو إلى قتله وسفك دمه، وآخر يفضل إلقاءه إلى أرض نائية ينال فيها حتفه على الأكثر، أو يظلّ بعيداً لا يهتدي إلى بيته سبيلاً ﴿أَقْتُلُوْا يُوسُفَ أَوْ

١ . كان يوسف وأخوه هذا، واسمه بنيامين (كما في الأخبار) أخوين لأم واحدة، دون الباقيين، وهم عشرة (كما في الأخبار).

٢ . من هنا يُعلم أنّهم لا يريدون بالضللال هنا الضلال في الدين، لأنهم كانوا مؤمنين بالله تعالى وبنبوة أبيهم يعقوب، كما يظهر من قولهم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، وقولهم ليوسف: ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ آتٰرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا﴾، ولو أرادوا به الضلال في الدين لكانوا بذلك كافرين. وهو شبيه بقولهم لأبيهم أخيراً ﴿تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ حين قال لهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون﴾ ومن الواضح أنّهم يقصدون الإفراط في حب يوسف والمبالغة في أمره بما لا ينبغي. انظر الميزان:

اطْرَحُوهُ أَرْضاً» من أجل أن «يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ» الذي كان يصرفه عنا وجه يوسف، وعندئذ تستأثرون بمحبته وعطفه.

ثم «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ».

وانتهى اجتماعهم بإقرار هذا الرأي، القاضي بالقائه في غور بشر «غِيَابَةِ الْجُبِّ» واقع على طريق القوافل، ليأخذه بعض المسافرين، ويذهبوا به إلى بلد بعيد.

تنفيذ المؤامرة

اتفق الإخوة على تنفيذ المؤامرة وجعل يوسف في غيابة الجب، وهذا يتطلب الاستفراد به بعيداً عن أبيه، فكيف يُقنعون الأب ويُغرونه بالموافقة على اصطحابه معهم، وهم يعلمون شدة حرصه عليه، وعلى استبقائه إلى جانبه فيما مضى من الزمن؟

لابدّ إذن من خطة ماكرة، تتيح لهم تحقيق بُغيتهم، وقد بدأت بهذا التساؤل الذي يحمل لوماً وعتاباً: «يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ»، وهو يُشعر أيضاً بإحساسهم بما كان يهجس في صدر الأب من شكوك تجاه علاقتهم بأخيهم، ومن هنا بادروا إلى إزالة شكوكه فيهم وعدم اطمئنانه إليهم بإظهار نصحتهم له، وبأنهم لا يريدون له إلا الخير والفلاح.

ثم قدّموا بين يديه هذا العرض الذي يرون أنه محبّب إلى نفسه: «أُرْسِلْهُ مَعَنَا خِداً يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» وهل شيء أقرّ لعينيه من أن يتنعم ولده ويلعب ويُسرّ قلبه؟ ولماذا الخشية عليه ونحن نتعهد بحمايته وحراسته؟

لم يشأ يعقوب عليه السلام التصريح بأنه لا يأمن بوائقهم، بل اعتذر عن رفضه لهذا العرض بأمرين: ﴿قَالَ إِنِّي لَبِخْرُؤُنِّي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ فوجوده يؤنسني، وفراقه يثير حزني، ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

لم يجب الإخوة عن الأمر الأول، لارتباطه بالنفس ومشاعرها العاطفية، وهل يقدر أحد على تجريد النفس من مشاعرها؟ بيد أنهم أكدوا استحالة وقوع الأمر الثاني، و﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَكُنَّاسِرُونَ﴾ فلا جدوى فينا ولا فائدة ولا نصلح لشيء. وأرادوا بهذا الأسلوب إزالة قلق أبيهم بشأن سلامة يوسف.

انطلق الإخوة ومعهم يوسف، وهم عازمون على الغدر به ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ﴾، وفعلاً نفذوا ما اتفقوا عليه، ووضعوه في داخل البئر، ولكن اللطف الإلهي رافقه في هذا الموقف العصيب، إذ ألقى الله في روعه أنه سينجو وينبئهم بخيانتهم هذه في مستقبل الأيام، دون أن يعرفوا أن الذي يحدثهم بذلك هو يوسف الذي غدروا به وهو صبي^(١) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

إلى هنا تمت خيوط المؤامرة تخطيطاً وتنفيذاً.

فلننظر كيف واجهوا الوالد بصلافة وكذبوا عليه واختلقوا عذراً كان قد تنبأ به قبل أن يأخذوا يوسف منه، وهذا ما سندرسه في الآيات التالية.

١. تحقق هذا الوعد الإلهي بعد سنين متطاولة، إذ قال لهم بمصر حين دخلوا عليه يطلبون الميرة: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

تمثيلية مفضوحة

﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ
الذُّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ
أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(١).

اتفق الإخوة - بعد تنفيذ مؤامرتهم - على أن يخلقوا قصة كاذبة يبررون بها
لأبيهم عدم عودتهم بيوسف، ومهدوا لذلك بأن تأخروا إلى أن حل الظلام، ثم
اصطنعوا هذه الحالة إمعاناً في التمويه: ﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾.

ثم قالوا وهم يتباكون: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا
فَأَكَلَهُ الذُّنْبُ﴾.

قالوا إنهم ذهبوا يتسابقون، وتركوا يوسف عند متاعهم (والمراد به هنا ما
يحملة المسافر من زاد ولباس)^(٢) ليحرسه، فأكله الذئب، وهم بعيدون عنه.

إنّ هذا العذر الواهي قد فضحهم وأبان عن كذبهم، لأنّ كلمة أبيهم لازالت ترنّ في آذانهم وهو يحدّثهم من خطر الذئب، وهم يفخرون بقوتهم ويؤكدون قدرتهم على حماية أخيهم. ومن هنا خاطبوا أباهم بهذه اللهجة: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ لأنك لسوء ظنك بنا في شأن يوسف، لا تصدّق بنا ولا تطمئنّ لما نقول.

وارتأوا أن يقيموا شاهداً على ادّعائهم، فأروه قميص يوسف وهو ملطخ بدمٍ مكذوب فيه ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، ولكن يعقوب أدرك أنّهم كادوا ليوسف، وأنّ حكاية الذئب حكاية مُخْتَلَقَة، لأنّه (ما أضمر أحدٌ شيئاً إلاّ ظهرَ في فلتاتِ لسانه وصفحات وجهه) (١)، ولذا ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾، وإذا هوتت النفسُ أمراً (مهما كان عظيماً) أقدمت عليه.

لم يتزلزل يعقوب عليه السلام أمام هذا الخطب - رغم فداحته - ولم يُسَلِّب وقاره، بل فوّض أمره إلى الله تعالى، قائلاً: ﴿فَصَبِّرْ بِجَمِيلٍ﴾.

إنّه سيواجه هذا الحادث الجلل بصبر لا جزع فيه ولا شكوى لأحد من الخلق، طالباً من الله تعالى أن يعينه على ما يصفون ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وهذا دعاء في موقف التوكل ومعناه: اللهم إني توكلت عليك في أمري هذا فكن عوناً لي على ما يصفه هؤلاء.

ولعلّ في لفظ «تصفون» إشارة إلى أنّ الخبر مخلوق ولا واقعية له، ولو كان صادقاً لقال: والله المستعان «على ما وقع». والنبي يعقوب بهذه الجمل الحكيمة، حفظ مكانة العائلة وموقف الإخوة ولم يعنّف أبناءه وقد كان بوسعه تأديبهم

وعقابهم بأشد الوجوه، غير أن ذلك يوجب تفكك الأواصر الأسرية، والذهاب بمكانة عائلته بين الناس.

هذا هو الذي يحكيه القرآن الكريم عن النبي يعقوب الحازم، وما ذكره القرآن الكريم هو المناسب لشأن الأنبياء العظام الذين إذا أصابتهم مصيبة لم يتزعزعوا، بل يواجهونها بقوة وصلابة.

وهذا خلاف ما نقرأه في التوراة الحالية، فقد جاء فيها:

وقال الإخوة: انظر أقميص ابنك هو أم لا؟ فنظر إليه وقال: «هو قميص ابني وحش ضار أكله، افترس يوسف افتراساً».

ومزق يعقوب ثيابه وشدَّ مسحاً على حقويه وحزن على ابنه أياماً كثيرة. وقام جميع بنيه وجميع بناته يُعزّونه، فأبى أن يتعزى وقال: إن أنزل حزينا إلى ابني، إلى مشى الأموات»، وبكى عليه أبوه.^(١)

ويتلخص الفرق بين النقلين في أمرين:

١. يذكر القرآن بأن يعقوب لم يصدّق حكاية الإخوة وأدرك أن عملاً ما سؤلته لهم أنفسهم قد ارتكبه بحق يوسف، دون أن تكون لحكايتهم لمسة صدق أو مسحة حق. ولكن التوراة تذكر بأن يعقوب صدّق حكايتهم وأذعن لها.
٢. يظهر من القرآن أن النبي يعقوب كان كالجبل الراسخ، لم تزعه قصة مقتل ولده التي حكاها له أبناؤه، بل اتخذ الصبر جنة واستعان بالله سبحانه على ما وصفوه من الحادثة المفتعلة.

ولكن التوراة تذكر جزع يعقوب على ما مرّ ذكره، فأيهما أليق وأقرب بالواقع

١. التوراة (الكتاب المقدس) سفر التكوين: ٣٧/٢٦ ص ١٢٧.

وألصق بحياة الأنبياء؟

لنعد مرة أخرى إلى يوسف الذي تركه الغادرون في البئر، لنقف عند المحطة الثالثة والأخيرة من المرحلة الأولى من حياته.

تمر إحدى القوافل فتحط رحالها في المنطقة، وتبعث من يبحث لها عن الماء ويدهم عليه.

وينطلق (الوارد) باحثاً عن الماء، فيقف عند أحد الآبار، ويُدلي فيه دلوه، فيفاجأ بوجود غلام فيه، فاستبشر به أو بشر به أصحاب القافلة.

أخرج الغلام من البئر، وضّم إلى القافلة، وجعلوه من جملة بضائعهم التجارية، كاتمين بذلك حقيقة أمره، ثم عرضه للبيع باعتباره رقيقاً، فباعوه بثمان قليل، متعجلين التخلص منه، خشية أن يفتضح أمرهم، ويُتهموا بسرقة.

وقد أوجز القرآن كل ما حدث في هذه المحطة بهاتين الآيتين: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ^(١) بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

وسياق الآيتين يدل على أن يوسف بيع على غفلة من الإخوة، وأنهم غير عارفين بمكانه ومصيره إلى الوقت الذي جاءوا فيه إلى مصر في المرة الثالثة لطلب الميرة. وأما التوراة المتداولة فتحكي خلاف ذلك وتدعي أن الإخوة بعدما طرحوه في البئر وقفوا عند البئر لغاية بيعه للسيارة التي تمر إلى جانب الجب، جاء فيها: ... وأخذوه وطرحوه في البئر، وكانت البئر فارغة لا ماء فيها. ثم جلسوا يأكلون.

١. أي باعوه بثمان بخص.

ورفعوا عيونهم ونظروا، فإذا قافلة من الإسماعيليين^(١) مقبلة من جلعاد، وجمالهم محملة صمغ قتاد وبلساناً ولاذناً، وهم سائرون لينزلوا بها إلى مصر. فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفي دمه؟ تعالوا نبيعه للإسماعيليين. ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا» فسمع له إخوته.^(٢)

ولا يخفى أنه لو كانت الغاية بيعه للسيارة، فما الداعي إلى طرحه في البئر؟ إنما كان عليهم الوقوف في نفس المكان حتى تمر بهم القافلة فيبيعونه لهم، اللهم إلا أن يكونوا قد غيروا رأيهم بعد طرحه في البئر.

كل ذلك يدل على أن الذكر الحكيم وحي من الله سبحانه على قلب سيد المرسلين دون أن يستند إلى قول قائل أو كتاب.

إلى هنا تم الكلام في المرحلة الأولى من مراحل حياة يوسف، وإليك الكلام في المرحلة الثانية، المتمثلة بانتقاله إلى مصر بعد استرقاقه وبيعه.

١. المراد بالإسماعيليين: العرب، لأنهم يتتهون بنسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. التفسير الكاشف: ٢٩٦/٤.

٢. التوراة (الكتاب المقدس) سفر التكوين ٣٧/٢٦ ص ١٢٧.

في بيت عزيز مصر

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ
وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ
عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .^(١)

انتهت بنا المرحلة الأولى من حياة يوسف عند بيعه من قِبَل القافلة كعبدٍ
مملوك، ويتضح هنا أن الذي اشتراه كان رجلاً من أهل مصر، ذا منصب رفيع،
يلقب بـ(العزيز).

حمل العزيز يوسفَ إلى قصره، مبدياً اهتمامه به، وأتى به إلى امرأته فأوصاها
بأن تُحسن معاملته وتُكرم إقامته عندها ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ لما لاح عليه من سمات

كريمة ، أحيث الأمل في قلبه؛ فعسى أن ينفعهما في تحقيق مصالحهما أو يتبنياه، لأن العزيز كان عقيماً.

وهكذا قدر الله تعالى ليوسف الذي نُبذ في البئر، واعتبر عبداً رقيقاً، وزهد فيه فبيع بثمن بخس، قدر له أن يعيش في قصر منيف محفواً بالرعاية والإكرام، وأن يصبح مقتدرراً على ما يريد من أرض مصر ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وهذا التمكين والتعليم وغيرهما إنما يحصل بقدره الله الغالبة التي لا يردّها شيء، فهو المالك لأزمة الأمور، والمتصرف فيها وفق إرادته، وإذا أراد أمراً خضع له وانقاد ﴿وَاللَّهُ خَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾.

وهذا يوسف قد كاد له إخوته وأرادوا به شراً، ولكن الله تعالى أراد له الحياة وسمو المنزلة، فكان ما أراد الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر لله وحده، يدبره لمن يشاء، كيف يشاء .

ثم تتوالى النعم على يوسف عليه السلام، ويمنّ الله تعالى عليه بالحكم والعلم بعد بلوغه منتهى القوة وكمال العقل ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ .

لقد رزق عليه السلام السداد في حكمه على الأمور^(١)، وعلماً لدنياً يصيب به حقائق الأشياء^(٢).

١. وقال بعض المفسرين: المراد بالحكم هو القضاء الصحيح بين الناس، وقال غيرهم: المراد به هنا النبوة.

٢. ذهب بعض المفسرين إلى أن العلم هنا يعني العلم بتأويل الرؤيا. ونحن لا نرى ما يدعو إلى هذا التخصيص، لا سيما وأن قوله: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ جاء بعد قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ الذي فسّره أيضاً بتأويل الرؤيا، الذي هو - كما يظهر لنا - جانب مما أفاضه الله عليه من علم.

وهذه المواهب الإلهية التي مُنحت لـيوسف عليه السلام، إنما هي جزاء لإحسانه، المتمثل في انقياده لله في قوله وفعله، وصبره على المحن والنوائب وعن المعاصي، وصبره على الطاعة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال السيد الطباطبائي: وليس من البعيد أن يستفاد من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أن الله تعالى يجزي كل محسن - على اختلاف صفات الإحسان - شيئاً من الحكم والعلم يناسب موقعه في الإحسان، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾^(١)،^(٢)

٥

صراع الإيمان والغريزة

﴿وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١. الحديد: ٢٨.

٢. الميزان في تفسير القرآن: ١١٩/١١.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ وَإِنَّكَ كُنْتِ مِنَ

الْخَاطِئِينَ﴾ .^(١)

تُعدّ هذه الفترة من حياة يوسف من ألمع مراحل حياته ، حيث تجلّت فيها قوة إيمانه ونزاهته وعفته ، فقد حاكت امرأة العزيز له مصيدة ، قلما يتفق لإنسان أن يقع في مثلها ثم يخرج منها مرفوع الرأس ولا ينزل طائعاً لرغباته النفسية .

وإليك هذا التمهيد قبل الشروع في بيان القصة :

تربّى يوسف عليه السلام - كما نعلم - في قصر عزيز مصر ، و تفتّحت زهرة شبابه في أجوائه المتحرّرة ، الزاخرة باللهو والمرح ، وبين أهله وزوّاره المُنعّمين المُترفين ... وفي كنف امرأة ، هي سيدة القصر ، وقد عَشِقْتَهُ وهامت في حبه ، وظلّت تبعث إليه باستمرار برسائل حبتها وغرامها ، و تتفنّن في إغرائه ، وتتحيل في اصطیاد قلبه .

ولكنه عليه السلام كان في شغل شاغل عنها ، مستمسكاً بإيمانه الوثيق ، مُقتصاً أثر آبائه الكرام في التقوى والورع ، مراقباً لله تعالى في حركاته وسكناته ، فلم يتأثر بتلك الأجواء ، ولم يضعف أمام الفتنة أو يستسلم للإغراء والإغواء .

لم تُعدّ هذه العاشقة الوالهة تحتمل هذا العزوف والإعراض من محبوبها ،

وعزمت على إيقاعه في شباكها، مهما كلفها ذلك من ثمن، وخطت في هذا الاتجاه ثلاث خطوات جريئة:

الخطوة الأولى: المراودة

﴿وَرَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾.

الرَّوْدُ: هو التردد في طلب الشيء برفق، مشبهاً حالها بحال من يجيء ويذهب لمطلوبه، وهذا يدل على أنها كانت تغريه وتخادعه، وهي تدعوه إلى نفسها.

ولعل في قوله: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ إشعاراً بتسلط صاحبة البيت عليه، لأنها سيدته الأمرة الناهية المنعمة عليه، وكل ذلك دفع يوسف لأن يستجيب لها ويخضع لطلبها.

الخطوة الثانية: تغليق الأبواب

وهي ما أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾.

وفي تشديد الفعل في قوله: ﴿عَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ دلالة على إغلاق الأبواب إغلاقاً محكماً لا يمكن ليوسف معه الفرار.

الخطوة الثالثة: الأمر بالمبادرة

وهي الأمر بالمبادرة الذي يدل عليه قولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وهي اسم فعل بمعنى «بادر وأقبل إلى ما هو مهياً لك» وبهذا أتمت صاحبة البيت خطتها بإحكام لقضاء وطرها من يوسف على كل تقدير.

وقف ﷺ من هذه الدعوة السافرة موقفاً حازماً، وانتفض انتفاضة المؤمن الصادق الذي يخشى الله كأنه يراه، وتفجرت كل طاقته الروحية المكنونة فيه، لتجعل منه كياناً شامخاً، يستعلي على كل أشياء هذه الحياة الفانية .
في هذه اللحظات العصبية جداً، تجسّد إيمانه العميق بالله وحبّه الخالص له بهاتين الكلمتين: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ .

لقد استمسك بعروة التوحيد وتعوّذ بالله فحسب، لأنّ عشقه لله وذوبانه فيه، أنساه كل شيء من حوله حتى نفسه، ولذا لم يقل إني أعوذ منك بالله، بل قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ .

ثمّ أردف قائلاً، وهو يستذكر نعمة ربّه: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، إذ هبّأ لي هذا المقام الكريم في بيت العزيز، فكيف أعصيه باقتراف هذا المنكر؟ فذلك ظلم للنفس بعصيانها للمنعم المدبّر ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

ويستمر القرآن الكريم في عرض مشهد الصراع بين الإيمان والغريزة، بين يوسف و التي هو في بيتها: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ .

١. ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّ المراد بربي في قول يوسف ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ هو العزيز، لأنّه هو الذي أحسن مثواه، فكيف يخونه في زوجته؟ وقد ناقش بعض المفسرين هذا الرأي من وجوه:

أ. إنّ السياق يرجّح رجوع الضمير إلى لفظ الجلالة لقربه منه في قوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ .
ب. إنّ الدافع لامتناع يوسف عنها هو الخوف من الله تعالى، وليس مجرد الوفاء للعزيز.
ج. إنّ الأنسب - لو كان يوسف يقصد العزيز - أن يقول: إنه لا يُفْلِحُ الخائنون، كما قال للرسول وهو في السجن: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ولم يقل: إني لم أظلمه بالغيّب. انظر: التفسير الكاشف: ٤/ ٣٠١؛ الميزان: ١١/ ١٢٥.

اختلف المفسرون في تصوير هذا المشهد، وتباينت آراؤهم حوله تبايناً كبيراً، يعود إلى تباينهم في خلفياتهم الفكرية والعقائدية والنفسية، وفي منهجهم في التعامل مع الروايات.

وقبل الشروع في عرض ودراسة أهم الآراء، يحسن بنا أن نوضح معنى هاتين المفردتين: الهمّ، والبرهان:

فالهمّ له معانٍ مختلفة، منها: العزم على الفعل، ومنها خطور الشيء بالبال دون العزم عليه، ومنها المقاربة، يقولون همّ بكذا، أي كاد يفعله، ومنها الميل النفسي والرغبة، كقولهم: هذا أهمّ الأشياء إليّ.^(١)

أما البرهان - في اللغة - فهو الحجة القاطعة، يقول ابن منظور: البرهان هو الحجة الفاصلة بينة، يقال: برهن يبرهن برهنة، إذا جاء بحجة قاطعة لرد الخصم.^(٢) واستعمل البرهان في القرآن في المعجزة قال سبحانه: ﴿فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾^(٣) والبرهانان هنا: عصى موسى واليد البيضاء.

ولابدّ أن نشير إلى سخر الرأي الذي يفسّر همّ يوسف عليه السلام بالعزم على ارتكاب الفاحشة والإصرار على ممارستها، وأنه لم يردعه عن ذلك سوى البراهين الكثيرة المزعومة التي تداركه الله بها، والتي (لو أن أوقع الزناة لقي بأدنى ما لقي لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك)^(٤) حسب تعبير الزمخشري.

١. انظر: التبيان في تفسير القرآن: ٦/ ١٢٠.

٢. لسان العرب: ١٣/ ٥١.

٣. القصص: ٣٢.

٤. الكشاف: ٢/ ٢٥٠.

والروايات الواردة في هذا الشأن معروفة المصدر والأهداف!! وقد انخدع بها بعض المفسرين والمحدثين^(١)، أو قبلوها لحاجات في نفوسهم.

وهل تجد أحداً أشدّ من اليهود رغبةً في الطعن على الصديقين الأبرار والخطّ من منزلتهم ومقاماتهم الكريمة؟ أو أكثر سعيّاً منهم في ترويح الفساد وإشاعة الفجور بمختلف الوسائل الخسيسة؟

لقد جُبلوا على تحقير الإنسان الذي كرمه الله أيّ تكريم، ليهبطوا به إلى مستوى البهائم أو أدنى!! ومن هنا يعزّ عليهم أن يروا إنساناً تشرق حياته بالنظافة والطهر والعفاف، أو يُصروا سموّاً وارتفاعاً في روحه وإيمانه ومبادئه.

والحقّ أنّ النظر إلى هذا المشهد (الهمّ به والهمّ بها) ينبغي أن لا يحصل دون النظر إلى سائر مشاهد القصة التي ظهر فيها يوسف عليه السلام إنساناً محاطاً بالعناية الإلهية والرعاية الربّانية منذ أن كان صغيراً وفي كافة مراحل حياته وأطوارها، فقد هتأه تعالى لمهمة رسالية كبرى ومسؤولية عظمى، ومن هنا رزقه حكماً وعلماً وجمالاً وبهاءً، وبسط إليه يد العون في المواقف التي يحلّ فيها اليأس وتنقطع الآمال.

كما عكست مشاهد أخرى إيمانه العميق بالله تعالى وشدة تعلقه به وولائه في حبه، ومراقبته له في سرّه وعلانيته، وصبره على مصاعب الطريق، وثباته على القيم في السراء والضراء.

كلّ هذه المشاهد تهدف إلى أن تُبرزه قدوة، ومثلاً أعلى يُحتذى به في المجالات المذكورة، وكلّ ما يسيء إلى هذا الهدف أو يشوش عليه، ينبغي أن

يُنْبَذُ وَيُطْرَحُ جَانِباً.

وعلى ضوء ذلك ، يجب أن نقوم الآراء التي تصوّر المشهد المذكور. ولا ريب في أن الرأي الأقرب إلى جوّ القرآن هو ما ينسجم مع ما رسمه القرآن نفسه من معالم هذه الشخصية الإلهية المعصومة .

وإليك أهمّ الآراء التي وردت في هذا المجال :

١ . انّ في الآية تقديماً وتأخيراً ، والتقدير: (ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها) . أي أنه لم يهّمّ بها إطلاقاً . وهذا ليس بمعنى تقديم جواب (لولا) عليها (وهو قبيح كما قالوا ، لأنه في حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام) ، بل بمعنى حذف الجواب المؤخر لدلالة جملة متقدمة عليه .

فيكون معنى الجملتين :

وهمّت به : أي همّت امرأة العزيز بيوسف بلا قيد وشرط .

وهمّ بها : لولا أن رأى برهان ربه ، فرأى البرهان ولم يهّمّ .

ومعنى ذلك امتناع الجزاء ، أي الهم لوجود الشرط كما هو معنى لولا الامتناعية ، كقوله عنه : «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»^(١) فانتهى الأمر بالسواك لأجل مخافة أن يشق الأمر على الأمة .

وبذلك يظهر أن امرأة العزيز همّت بيوسف وأما يوسف ، فلم يخالطه همّ

بامرأة العزيز لما رأى من البرهان .

٢ . انّ اللام في قوله : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ للقسم ، والمعنى : وأقسم لقد

قصدت يوسف بما تريده منه ، ومعنى قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ :

١ . الكافي: ٢٢ / ٣ ، باب السواك ، الحديث ١ .

أقسم لولا رؤيته برهان ربه، لهمّ بها وكاد أن يجيها إلى ما تريده منه. وبعبارة أخرى: لولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهمّ والاقتراب، دون الارتكاب والاقتراف. (١)

ويقرب من هذا المعنى، قولهم: إنه مال طبعه إلى ما دعت إليه، وتحركت مشاعره نحوها.

قال إسماعيل حقي: إنه مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب ميلاً جبلياً لا يكاد يدخل تحت التكليف لا قصداً اختيارياً، لأنه كما أنه بُرئ من ارتكاب نفس الفاحشة، كذلك بُرئ من الهمّ المحرّم، وإنما عثر عنه بالهمّ لمجرد وقوعه في صحبة همّها في الذكر بطريق المشاكلة، لا لشبهه به. (٢)

٣. إنها همّت بالفاحشة منه وأرادت ذلك، وهمّ يوسف أن يدفعها عن نفسه وينالها بمكروه ولو بضربها ولكنه رأى برهان ربه فاجتنب ذلك، ولو أقدم عليه لدفع الثمن غالياً، ولصقت به تهمة المراودة على المنكر.

وثمة ملاحظتان وردتا على هذا الرأي: الأولى: إنه يلزم منه التفريق بين الهمّين، بجعل متعلّق الهمّ في الأول هو العمل القبيح، وفي الثاني العمل على ردّها ومدافعتها، وهو خلاف الظاهر القاضي بوحدة الهمّين.

الثانية: أن تفسير همّ يوسف بها بهذا المعنى، لا دليل عليه من عبارة الآية الكريمة.

والتفت بعضهم إلى الملاحظة الأولى، ففسر الهمّين بمعنى واحد،

١. الميزان: ١١/١٢٨.

٢. تفسير روح البيان: ٤/٢٣٧.

وذهب إلى أنّ الموقف بين الطرفين (يوسف وامرأة العزيز) كان موقف صراع ومواجهة، وأنّ الفارق بين همتها وهمة، أنّها أرادت الانتقام منه شفاءً لغيظها، إذ فشلت فيما تريد، وأهينت برفضه وإبائه لما أرادت، وأراد هو الاستعداد للدفاع عن نفسه، وهمّ بها حين رأى أمانة وثوبها عليه، ولكنه رأى من برهان ربّه وعصمته ما لم تره، إذ ألهمه أنّ الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي به تتم حكمته فيما أعدّه له. ^(١)

والآن، ما هو المراد من البرهان الذي رآه يوسف ﷺ وعصمه من الهمّ بامرأة العزيز؟ هناك عدة وجوه ذكرها المفسرون، منها:

أ. أنّه حجة الله سبحانه في تحريم الزنا والعلم بالعذاب الذي يستحقه الزاني.

ب. أنّه ما أتاه الله سبحانه من آداب الأنبياء وأخلاق الأصفياء في العفاف وصيانة النفس عن الأدناس.

ج. النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش والحكمة الصارفة عن القبائح.

د. أنّه اللطف الذي لطف الله تعالى به في تلك الحال أو قبلها فاختار عنده الامتناع عن المعاصي وهو ما يقتضي كونه معصوماً، لأنّ العصمة هي اللطف الذي يختار عنده التنزه عن القبائح والامتناع عن فعلها، ويجوز أن تكون الرؤية هاهنا بمعنى العلم كما يجوز أن تكون بمعنى الإدراك. ^(٢) هذه هي الوجوه المذكورة، وهناك احتمال آخر وهو أفضل من الجميع وهو أنّه تمثّل واقع الفحشاء ونتائج هذا العمل السيئ في الحياتين عنده وهذا صار سبباً

١. تفسير المراغي: ١٢ / ١٣٠. وانظر: الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٧ / ١٦٤.

٢. مجمع البيان: ٣ / ٢٢٥.

للاعتصام وعدم الهمّ . وكان التمثل على حدّ كآته رأى النتائج بأمر عينيه .
وتسمية ذلك بالبرهان من باب المشاكلة ، فكما أنّ الحجج القاطعة تصدّ
الإنسان عن الاعتقاد بالخلاف أو ارتكاب عمل يكون على جانب الخلاف من
البرهان فهكذا تمثّل نتائج المعصية تصدّ الإنسان عن الهم بها ، ولعل هذا هو
المراد من اللطف في الوجه الخامس .

٦

الشهادة الكبرى التي تقطع السنة السوء

اقتضت إرادته سبحانه أن يعصم يوسف من السوء والفحشاء ، لأنه من
الذين أخلصهم الله لطاعته واصطفاهم لرسالته : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ .

إنّ قوله : ﴿كَذَلِكَ﴾ نظير قوله فيما سبق ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ ، ومعنى
ذلك أريناه كذلك رؤية لنصرف عنه السوء .

وأما السوء وهو القبيح فالمراد به هنا خيانة من ائتمنه ، وقيل : كيد امرأة
العزيز ، وقيل : هو ما كان همّ به من أذاها ، وقيل هو مقدمات الفاحشة من
النظر بشهوة وغيره . والفحشاء هي أقبح أنواع المعاصي ، والمراد بها هنا الزنا .

ثمّ إنّ قوله : ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ من اللفظ البيان لتنزيه
يوسف عن ارتكاب أي عزم قبيح أو فعل كذلك فالآية تدلّ على أنّ السوء
والفحشاء هما اللذان قصدها فصرفهما الله سبحانه عنه . وإلا فلو كان يوسف

قاصداً للسوء والفحشاء لكان الصحيح أن يقول لنصرفه عن السوء والفحشاء .
ثم إن التعليل (لنصرف) دليل على أن يوسف لم يهتم أصلاً . وأنه امتنع
عن الهم لأجل وجود رؤية البرهان ، وإلا فلو كان الهم مطلقاً بلا قيد لكنه
سبحانه أتى بالصارف لما صح أن يقول لنصرف عنه السوء والفحشاء ، لأن الهم
المطلق من مصاديق السوء . وقد صار يوسف - حسب الفرض - مصدرأ له .

٧

نجاه يوسف من المكيدة

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا
جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .
﴿قَالَ هِيَ رَأودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من
قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ .
﴿وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ .
﴿فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدك إن كيدك عظيم﴾ .
﴿يوسفُ أغرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من
الخطئين﴾ .^(١)

تعكس لنا هذه الآيات الظروف القاسية التي كانت تحيط بيوسف وتلجته
إلى الاستسلام لرغبة امرأة العزيز، التي كانت تصر على تلبية رغبتها، بينما كان

يأبى ذلك **عَبْدًا** ويمتنع أشد الامتناع، واستمر النزاع بينهما مدة - الله أعلم بحدها - ، إلى أن حسمه بالتصميم على الهرب من الغرفة للتخلص منها، فجرى نحو الباب، وجرت هي خلفه مسعورة لتمنعه، فلحقت به قبل أن يهرب من الباب، وجذبت قميصه من الخلف فخرقته، وفي هذا الوقت فوجئًا بمجيء الزوج (السيد كما يُلقب عند النساء في مصر). وقد أودع قلم الإعجاز هذه المفاهيم في جملة موجزة: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيْتَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾.

والإلقاء يستعمل في وجدان شيء فجأة بدون سعي.

في هذه اللحظات الحاسمة يتميز العشق الإلهي عن العشق الغريزي ويفترق العاشقان في المسلك والموقف، فالأول منهما لا يتراجع عن أمنيته وحبته ويجاهر به ما دامت الدماء تجري في عروقه، في حين يتراجع الثاني بسرعة، وبدل أن يعترف العاشق بحبه وعمله يتهم المعشوق بتهمة مخزية، كما تراه في المقام حيث قالت: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فقد اتهمت يوسف بالتعدي على أهل السيد فصارت مدعية ثم صارت قاضية وأصدرت حكمها بأنه لابد أن يجازى بالسجن أو العذاب، ولعل مرادها من العذاب هو الضرب والقتل، ففي التعبير (بأهلك) مكان (نفسها) نوع من التحريض وتهيج الزوج على مؤاخذته، ولكن في التردد بين السجن والعذاب الأليم نوع إشارة إلى بقاء حبه له حيث ترددت بينهما لكي لا يؤخذ يوسف بالثاني.

ولم تصرح باسم المعتدي - على زعمها - ولا المعتدى عليه - أعني:

نفسها - تأدباً في حضور زوجها واحتراماً لساحته .

وطبيعة الموقف كانت تقتضي أن يتدبّر يوسف بالكلام ويشتكي من زوجة العزيز، ولكنه تأدباً وحفظاً لستر العائلة وعفافها لم يبدأ بالكلام وسكت، وإنما بدأت المرأة بالشكوى واتهمته وأصدرت حكمها، وعند ذلك لم يجد يوسف بداً من بيان الحقيقة: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾، أي لم أردّها بالسوء بل هي التي أرادت ذلك مني وراودتني عن نفسي .

هكذا، بلهجة المطمئن بنزاهته، يكشف يوسف ﷺ عن حقيقة ما جرى، من دون حاجة إلى تأكيد كلامه بقسم وغيره .

فوجئ العزيز بهذه الحادثة التي تمس كرامته، ولكنه لم يشأ أن يحكم فيها، بل حكم فيها أحد أقارب الزوجة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ .

وقد جعل الشاهد مبنى قضائه وتشخيصه وجود الشق في قميص يوسف (حيث يدل على منازعتها ومواجهتها)، وقال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

فلما رأى العزيز قميص يوسف قد شق من خلف، أذعن بأن يوسف كان يفرّ من بين يديها فجذبتة المرأة حتى شقت قميصه، عندئذ خاطبها بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ معاشر النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ثم التفت إليهما، وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

كان من المترقب أن يستفز هذا الحادث الجلل غيرة العزيز ويشير نخوته، فيبادر إلى معاقبة زوجته أو تعنيفها بشدة، خاصة بعد أن أيقن بعزمها على ارتكاب الفاحشة وخيانتها في فراشه، بيد أنه اكتفى بأمرين:

أمر يوسف بالإعراض وكتمان الخبر وعدم إذاعته، وأمر زوجته بالاستغفار.

وهكذا تبعث حياة اللهو والترف على التحلل من القيم، والميوعة في اتخاذ المواقف الحازمة بشأنها.

٨

اطلاع النسوة على غرام العزيزة

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبُّ السُّجُنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَالْأَنْصَرِفَ عَنِّي كَيَدُهِنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيَدُهِنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. (١)

انتشرت في المدينة أخبار ما يدور في قصر العزيز، وتلقفتها النسوة، ورُحِن يتحدثن - لغرض في نفوسهن - عن قصة تعلق سيدة القصر ذات المقام الاجتماعي الرفيع بمملوكها الذي اشتراه زوجها بثمان زهيد، واكتوائها بنار حبه، وتهالكها في بذل نفسها له: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

وأدركت امرأة العزيز غرض هذا الحديث الذي يُراد به النيل منها ومن شأنها، وفكرت في طريقة تتيح لها إطلاعهن على محتتها التي تعانيتها، لتلمس العذر لها، وتشفي غيظها منهن، وهي تشهد انهيارهن أمامها، فأقامت لهن مآدبة في قصرها ووفرت لهن وسائل الراحة والانبساط، وأعدت لهن وسائل يتكئن عليها، وقدمت لهن الطعام والسكاكين. وبينما كن يتفكهن ويستعملن السكاكين عند الأكل، أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج عليهن، فلما رأين طلعتنه أجملنه، وجرحن أيديهن من فرط التعجب والذهول، وصرحن بأن هذا ليس بشراً، بل هو ملك كريم في جماله وبهائه، وهذا ما تحدثت عنه الآية التالية:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

نجحت الخطة الماكرة لامرأة العزيز، فانبرت قائلة، وهي ترى مصرعهن أمام هذا الجمال الباهر ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، ووجدت الفرصة سانحة للاعتراف بالحقيقة دون حياء ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ وامتنع عن

١. الشغاف: غلاف القلب، والجمع شُغف. ومعنى قوله: ﴿شَغَفَهَا﴾ أي أصاب حبه شغاف قلبها، فاخترقه حتى بلغ القلب.

الاستجابة لي ، ثم أردفت قائلة في صلافة وتحذٍ وبحضور المدعوّات ، اللواتي لم يكن أقلّ منها وقاحة وتهتكاً: ﴿ وَلَيْسَ لِمَنْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لِيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ الأذلاء .

وجد يوسف عليه السلام نفسه مُقحماً في أجواء مشبعة بالفتنة والإغراء ، ووسط كلمات الإعجاب والحب والغرام ، وأمام التهديد الصارم لامرأة العزيز بسجنه وإذلاله .

توجه عليه السلام - كما هو شأنه - إزاء هذه الضغوط القاسية إلى ربه ، قائلاً: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ هؤلاء النسوة من ارتكاب المعصية ، ثم تضرّع إليه تعالى ، مستمداً منه المزيد من اللطف والرعاية ، للثبات أمام هذه الفتنة التي تعصف به ، والتي يخشى أن يقع في شباكها ، وتبعده عن رحاب الله ﴿ وَالْأَنْصَرِفُ عَنِّي كَيْدُهُنَّ ﴾ في تزيين الحرام ﴿ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ وأمل إلى جانبهن ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

لم تتأخر إجابة هذا العبد الصادق المخلص : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ بإفاضة المزيد من اللطف عليه وتثبيتته بالعصمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

حياة يوسف في السجن ، وخروجه منه

بالرغم من أن الآيات والشواهد دلت على براءة يوسف وطهارة ذيله ، كشهادة شخص من أسرتها ، واعترافها هي أمام النسوة ببراءته واعتصامه ، إلا أن قراراً ظالماً صدر بحقه يقضي بسجنه لأمد محدد ، لرفضه الانصياع لرغبة السيدة الكبيرة ، وللتغطية على فضيحتها التي صارت حديث الناس ، وإظهار أنه هو المتجاوز دونها .

زُجَّ عَلَيْهِ فِي السِّجْنِ ، فلبث فيه فترة ، ذكر القرآن الكريم بعض أحداثها ، وشيئاً من دوره في تأدية مهمته الرسالية . وإليك الآيات التي تستعرض ذلك :

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ .

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿قَالَ لَا يَا بُنَيَّ مَا تَرَكَ مِنْ تَرْكٍ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ .

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ .

﴿يَا صَاحِبِي السُّجْنِ أَرْيَا أَبُتُّ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿يَا صَاحِبِي السُّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ .

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السُّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ .^(١)

عرضت لنا هذه الآيات مشهداً من السجن ، يظهر فيه فتيان من حاشية الملك (أحدهما خباز، والآخر صاحب شرابه ، كما في الرواية) إلى جنب يوسف عليه السلام ، وهما يقصان عليه ما رآياه في منامهما ، ويطلبان منه تعبيرهما ، بعد أن لهما فيه كمال العقل والفهم ، وعِلْمًا بفضلِه وحسن سيرته :

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السُّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

اغتنم فرصة إقبالهما عليه ، ووثوقهما بعلمه وسيرته للقيام بمسؤوليته الرسالية والدعوة إلى عقيدة التوحيد ونبذ الشرك بحكمة ، متهجاً أسلوب

الخطوة خطوة لبلوغ أهدافه الإلهية ، فسعى أولاً إلى تعزيز ثقتهما به ، من خلال كشفه لأسرار ترتبط بشيء حسي من عالمهما الضيق (السجن) - وهو معرفته بحقيقة وخصوصيات الطعام ، الذي يؤتى به إليهما في السجن قبل أن يصل إليهما - للتدليل على أن علمه ببعض الأسرار (ومنه تعبير الرؤى) لم يكن ضرباً من العلوم والمعارف البشرية ، وإنما هو بإفاضة من الله تعالى ، ووحى منه . وهو يمهد بذلك لإثبات نبوته وارتباطه بالغيب وبالتالي صدقته في دعوته إلى التوحيد : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ^(١) قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ .

ثم شرع في بيان عقيدته ، بأن برأ نفسه أولاً من الإيمان بدين القوم القائم على الشرك بالله تعالى وإنكار المعاد . وهذه إشارة لطيفة إلى فساد عقيدة الفتيين السجينين : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ، ثم راح يؤكد أن للتوحيد الخالص جذوراً في عقيدة آبائه وأسلافه ، وأنه ينتمي إلى هذه الأسرة العريقة الشهيرة ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، لتكون دعوته إلى التوحيد أدعى للقبول بها والاطمئنان إليها .

ثم أضاف بياناً آخر وقال : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، أي لا يصح ولا يمكن لنا أن نشرك بالله شيئاً بعد دلالة الآيات على توحيده في ألوهيته وربوبيته ، وهو مثل قوله : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ . ^(٢)

١ . الضمير (الهاء) في (تأويله) يرجع إلى الطعام حسب ما فسرنا، وعليه أكثر المفسرين .

٢ . آل عمران: ٧٩ .

كل هذا البيان، هو تمهيد لما سيلقيه من البرهان على توحيده سبحانه، ولولا هذا التمهيد لربما يكون البرهان عقيماً عندهم ولذلك بدأ ببيان التوحيد مقروناً بالبرهان وقال: ﴿يَا صَاحِبِي السُّجْنِ الْأَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

إن الاعتقاد بوجود إله قاهر واحد كان أمراً متفقاً عليه بين يوسف وصاحبيه، غير أنهم كانوا مشركين في أمر التدبير، إذ يعتقدون أن الإله القاهر الواحد فوض تدبير الأمور إلى أرباب مختلفة، كلٌّ يدبر شأناً من شؤون الكون والإنسان، ولذا كانوا يعبدون تلك الأرباب المتفرقة مع الاعتقاد بكونهم مخلوقين لله سبحانه.

وأما وجه تخصيصهم بالعبادة دون الله فلاجل قولهم: إن الله سبحانه أجل وأرفع ذاتاً من أن تحيط به عقولنا أو تناله أفهامنا فلا يمكننا التوجه إليه بعبادته ولا يسعنا التقرب منه بعبوديته والخضوع له، والذي يسعنا هو أن نتقرب بالعبادة إلى بعض مخلوقاته الشريفة التي هي مؤثرات في تدبير النظام العالمي حتى يقربونا منه ويشفعوا لنا عنده. ^(١)

في هذا المقطع القصير من كلامه، راعى يوسف ﷺ أساليب التأثير على مخاطبيه، فقد وصف رفيقيه الجالسين معه بـ ﴿صَاحِبِي السُّجْنِ﴾ لجلب اهتمامهما لما يقول، كما تحاشى نقد عقيدتهما بشكل مباشر وصريح، وإنما ألقى إليهم حجته في صورة الاستفهام التقريري: ﴿الْأَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فإذا كان الله هو الواحد القهار والباقون هم المقهورون، فهو خير فيكون أولى بالعبادة لا غير، لأن الأرباب المتفرقة كلهم من مخلوقات الله الواحد القهار وهو الذي أعطى لهم الوجود والقوة والقدرة على إدارة طرف من

الكون، فإذا كان الحال كذلك، فمبدأ القوة والقدرة الذي يستمد الكل منه هو الأولى بالعبادة لا غيره.

وبذلك يظهر أن القوم كانوا موحدين بالخالقية وأنه لا خالق إلا الله ولكنهم مشركون في مرتبتين تاليتين:

أ. الربوبية وتدبير العالم علوه وسافله.

ب. العبودية والخضوع لمن له قوة التصرف في العالم.

فالنبي يوسف عليه السلام أبطل كلا الشركين بأن الكل مخلوق لله ولو كان لهم قدرة فهي معطاة من الله سبحانه فعبادة الغني المطلق هو المتعين دون هؤلاء الفقراء بالذات المتمسكين بذيل قدرته. كل ذلك على فرض وجود أرباب متفرقة، ثم أبطل عليه السلام ربوبيتهم بصراحة، قائلاً:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ فليس لما تعبدون من الأرباب حظ ولا نصيب من الربوبية إلا الأسماء، وهي مجردة عن المعاني ولا تعبر عن حقيقة، وذلك لأنكم أنتم الذين وصفتموهم بالأرباب، دون أن يكون هناك دليل قاهر على صحة ما تدعون.

فإذا تبين أنهم ليس لهم من الربوبية حظ ولا نصيب والكل عبيد لله سبحانه فيكون الحكم له تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾، لأنه المالك لأزمة الأمور والمتصرف فيها، وقد حكم و ﴿أَمَرَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فلم يأمر إلا بعبادته وحده دون عبادة غيره، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١)، وقال عز اسمه مخاطباً الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٢).

وعلى ذلك فإن دين التوحيد الذي دلت على صحته الفطرة والعقل، هو الدين المستقيم القادر على قيادة الحياة الإنسانية بجدارة، كما يشير قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا ينهض يوسف عليه السلام بأعبائه الرسالية في سجن الملك، باتخاذهِ منبراً إلهياً لهداية الناس إلى الدين القيم.

ولمّا أتم يوسف إلقاء الحجة على صاحبيه، بدأ بالوفاء بوعدهِ في تأويله رؤياهما، وهما يستمعان إليه بفارغ الصبر وبانتباه شديد، فقال: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَسَيَقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وهذا - بقرينة المناسبة - تأويل رؤيا من قال منهما: ﴿إِنِّي أُرَانِي أَهْبِرُ خَمْرًا﴾ حيث أولها عليه السلام بأنه سيطلق سراحه ويرجع إلى عمله عند سيده الملك، فيسقيه خمرًا، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾.

ولمّا كان عليه السلام واثقاً من تأويله للرؤيتين، لأنه بتعليم من الله تعالى، قال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ فهو واقع لا محالة، ولا يُجدي في رده شيء.

ورغب يوسف عليه السلام في إيصال مظلوميته إلى الملك عن طريق رفيقه الذي سيطلق سراحه ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

إنّ التمسك بالأسباب الطبيعية يتراوح بين التوحيد والشرك، فمن تمسك بها بما أنها من سنن الله سبحانه في الكون والمجتمع فقد اعتصم بالتوحيد، وذلك كالفلاح يبذر البذور في الأرض بعد تهيئتها لقبول الزرع ثم يسقيها بالماء ويزيل النباتات الضارة بالزراعة، كل ذلك لأجل أنه سبحانه أجرى سنته في الزراعة على هذا المنوال، فمن أخذ بها فقد اتبع سنة الله تعالى في عالم الكون،

وهذا هو نفس التوحيد .

وقد صرح سبحانه في العديد من الآيات الكريمة على تأثير الأسباب الطبيعية في الكون ولكن بإذن منه سبحانه مثل ، قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ .^(١)

وأما من تمسك بهذه الأسباب معتقداً بأصالتها واستقلالها في التأثير فهذا هو الشرك المحض .

وعلى ضوء ذلك ، فإن استعانة يوسف عليه السلام بالسبب الطبيعي (وهو هنا الملك) لإثبات براءته والتحرر من السجن ، تأتي في إطار التمسك بالسبب من المقولة الأولى ، فالمؤثر في الواقع هو الله سبحانه ، والملك سبب في مسير تحقق إرادته سبحانه .

ومهما يكن ، فإن رغبة يوسف عليه السلام في إبلاغ مظلوميته للملك لم تتحقق ، إذ نسي هذا الذي بشره يوسف بالنجاة وأطلق سراحه وعاد إلى عمله في بلاط الملك (وهو الساقى كما في الأخبار) ، نسي صاحبه يوسف ومحتته وما أوصاه به ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾^(٢) ، فدفع يوسف عليه السلام ثمن هذا النسيان من عمره وشبابه ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ :

١. البقرة: ٢٢.

٢. الضميران في (أنساه) و (ربه) يرجعان إلى الناجي ، أي أنسى الشيطان الناجي (ساقى الملك) أن يذكر يوسف لربه . ويؤيد ذلك قوله تعالى فيما بعد ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون ﴾ . وهذا صريح في أن الساقى هو الناجي والمتذكر بعد لأي من الزمن .
وذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير في ﴿ أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ﴾ يعود إلى يوسف ، أي أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله فاستعان بغيره . وهذا لا يليق بساحة المخلصين ، وهو منهم عليه السلام لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وقد اعترف الشيطان بأن لا سبيل له عليهم ﴿ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

١٠

رؤيا الملك : مفتاح تحرر يوسف من السجن

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُتُبَكُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ .
 ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ .
 ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .
 ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ .^(١)

تتضمن هذه الآيات أموراً أربعة:

١ . سبب خروج يوسف من السجن .

٢ . العوامل التي أدت إلى تقلده منصباً رسمياً رفيعاً .

٣. إثبات براءته من التهمة الملتصقة به، بتصديق كافة النسوة اللاتي حضرن في المجلس الذي رتبته امرأة العزيز.

٤. إجلاء جانب مما أفاضه الله تعالى عليه من علم، وهو تأويل الرؤى، فقد عبر رؤية الملك على وجه يكشف عن وجود الرابطة بين الرؤيا والتأويل.

وإليك قصة هذه الرؤيا:

بعد أن أمضى يوسف سنوات من عمره سجيناً، هباً الله تعالى له - جزاءً لإيمانه العميق وإخلاصه الشديد - وسيلة للخروج من السجن معززاً مكرماً مبراً من كل تهمة وزَّيب، فقد رأى الملك حُلماً غريباً، أثار لديه اهتماماً كبيراً، إذ رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف (هزيلات)، ورأى في حقل واحد سبع سنبلات قد انعقد حبُّها وأخر يابسات قد احتصدت.

ثم دعا أعيان قومه (الملا) وطلب منهم تفسير رؤياه، وقال: ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ولكنهم أظهروا العجز عن تفسيرها، و﴿قَالُوا أَضْغَاثٌ^(١) أَحْلَامٌ﴾ أي أخلاط أحلام متراكمة لا تفسير لها، أو نحن نجهل تفسيرها: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾.

في هذه الأجواء المشحونة بالخيرة والقلق، تذكر الناجي (الساقى) صاحبه يوسف عليه السلام الذي تركه في السجن منذ سنوات، والذي لمس منه صدق تعبيره لرؤياه ورؤيا صاحبه الآخر الذي صُلب، فأخبر الملك عنه وعن علمه بتأويل الرؤى، مقترحاً إرساله إليه ليأتيهم بالتأويل الذي لا مرية فيه ﴿وَقَالَ الَّذِي

١. الأضغاث جمع ضغث، وهو الحزمة من كل شيء، وقيل: من النبات فقط يختلط فيها الرطب باليابس.

نَجَا مِنْهُمَا وَادْكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١﴾ .

وصدر الأمر بإرساله ، فانطلق الساقى إلى يوسف في سجنه ، وتحدث إليه ، واصفاً إياه بالصادق الكثير الصدق ﴿الصَّادِقُ﴾ ، ثم طلب منه تفسير الرؤيا التي نقلها له بدقة ، رجاء أن يحمله (أي التفسير) إلى الملك ومن عنده ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾^(٢) الذين يترقبون الجواب ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك ومكانتك^(٣) ، فيخرجونك من السجن .

لم يكتف يوسف ﷺ بتأويل الرؤيا التي تُنذر بوقوع أزمة اقتصادية خانقة في المستقبل ، بل شفعه بطرح حلول ناجعة لمواجهة لها ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ متوالية ، تجود فيها الأرض بالغلّات الوفيرة (وهي تأويل البقرات السبع السمان) ثم نصح لهم بإبقاء الزرع في سنابله (ليصان من الفساد) وبالاقتصاد في الاستهلاك ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ .

ثم تنطفي سنوات الخصب والرخاء هذه ، لتأتي بعدها سبع سنين يعم فيها البلاد الجذب والقحط (وهي تأويل البقرات السبع العجاف) ، الأمر الذي يُفضي إلى نفاذ كل ما ادخرتموه في سنين الخصب . وهنا ينصحهم ثانياً بأن يُحصنوا ويحفظوا قليلاً منه ليُؤخذ بذراً^(٤) .

١ . قوله: ﴿وَادْكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي وتذكر بعد وقت وحين من الزمان. وقد حُدّد في التوراة بستين، حيث جاء فيها: وكان بعد مضي ستين من الزمان أن فرعون رأى حلماً إذ هو واقف عند النيل... (الكتاب المقدس: ٤١/٣٥ ص ١٣١).

وهذا مخالف لما في القرآن الذي جاء فيه ﴿فَلْيَبِئْسَ فِي السُّجْنِ بِضَعٌ سِنِينَ﴾ وأقله ثلاثة وأكثره تسعة.

٢ . انظر الميزان: ١١/١٩٢-١٩٣ .

٣ . وقيل: المراد بالناس، هم أهل البلد، لا الملك ورجال حاشيته فقط.

٤ . وقيل في معناه: لعلهم يعلمون تأويل الرؤيا.

وإليك الآية الكريمة التي أوجزت ما قدمناه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾.

ثم أضاف ﷺ شيئاً لم يرد في رؤيا الملك، فذكر مزايا عام رخي، يأتي بعد السبع الشداد، تكثر فيه الخيرات والبركات ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾. ^(١) هذه الإضافة تؤكد نبوته وارتباطه بالله تعالى الذي وهبه هذا العلم الذي لا يهتدي إليه العقل البشري، الأمر الذي يعزز من ثقة الناس به، ويجعلهم أكثر استجابة لرسالته ودعوته إلى التوحيد والإيمان بالله تعالى، كما تفتح - هذه الإضافة - أبواب الأمل للناس، وتنقذهم من حالة اليأس والقلق، التي سببها فيهم نبأ السنوات المجدبة التي تنتظرهم.

ومما مضى يتبين أن يوسف ﷺ قدم لشعب مصر خدمة جليلة، لولاها لعمّ الجذب هذا القطر الأعظم وهلك الناس من الجوع، وتمثل هذه الخدمة في جانبين:

١. إخبارهم بأن أمامهم سبعة أعوام مخصبة، وسبعة مجدبة، فليذخروا من السبعة الأولى للسبعة الثانية. ولولا هذا الإخبار ما اقتصدوا في استهلاكهم، وما آذخروا شيئاً لأيامهم السود.
٢. تعليمهم كيفية صيانة الزرع من السوس وغيره من مسببات فساد، في ذلك العصر الذي لا توجد فيه مخازن ضخمة لحفظ الطعام، فقد أرشدهم

١. قوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾، فالغوث النفع الذي يأتي على شدة الحاجة، والغيث المطر الذي يجيء في وقت الحاجة، والمعنى: يُمطرون، فيرتفع الجذب من بينهم، ومن الجائز أن يكون ﴿يُغَاثُ﴾ مأخوذاً من الغيث، بمعنى الكلا الذي ينبت من ماء السماء. وقوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي يعصرون الثمار التي تُعصر من العنب والزيتون والسَّمْسَم وغيرها، ويمكن أن يراد بالعصر الحلب أي يجلبون ضروع أنعامهم.

إلى مخازن طبيعية تقوم على ترك الزرع في سنبله عند حصده، وعدم تذريته وتصفيته. وهذه الطريقة تتيح صيانتة من الفساد مدة من الزمان. فمن أين تعلم ذلك، هذا الذي قضى عمره في القصر رقيقاً وفي السجن مظلوماً؟

١١

نزاهة يوسف مما نسب إليه

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ .
 ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ .
 ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .^(١)



بعد أن أبلغ الساقى تعبير يوسف رؤيا الملك، أعجبه التأويل وأمر

بإحضاره، فأسرع إليه الرسول ليُخرجه من السجن ويرافقه إلى قصر الملك حتى يراه عن كثب، حيث أثار علمه وتدييره إعجاب الملك بل عامة رجال البلاط، ولعلهم أحسوا بظلمهم لمن يملك تلك القدرات العلمية والتدبير الرائع في السجن.

ولما جاءه الرسول ليخرجه من السجن، أبى يوسف أن يخرج، إلا بعد أن يتضح شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ وما هي قصتهنّ وما نهايتها في إشارة تنضح بالأدب إلى براءة ساحته مما زُمي به، متحاشياً التعرض لامرأة العزيز. إن امتناعه ﷺ من الخروج من السجن إلا بعد أن يتبين حال النسوة وشأنهن، أوضح دليل على شخصيته العالية ومكانته السامية، ولم يكن كغيره من الناس الذين إذا سجن أحدهم، وبُشر بإطلاق سراحه، نسي كل شيء يترتب على خروجه من السجن، وإن أضرب بمكانته وشخصيته.

رجع الرسول وأخبر الملك بقول يوسف، فأمر بالتحقيق في الأمر، فجمع كل من كان في ذلك المجلس من امرأة العزيز والنسوة اللواتي قطعن أيديهنّ، فلما استجوبهن الملك عن القضية وعن تهمةنّ ليوسف، علت أصواتهنّ بنزاهة يوسف و ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾. في هذه الأجواء لم تجذ امرأة العزيز بدأً من الاعتراف والقول بصراحة ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ واستبان ﴿أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله، إنني أنا التي راودته.

وباعترافها أغلق ملف هذه القضية وتبين المخطئ من البريء، وعند ذلك قال يوسف ﷺ، وهو يشير إلى علة ردّ الرسول وطلب التحقيق في سبب سجنه ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فلتطمئن نفسه ولا يشك في

أمري .

ثم ركز هذه القاعدة التي تتحكم في سلوك الإنسان إذا استند إليها ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ . ولا يسدّد خطواتهم إلى نيل مآربهم ، بل يفضحهم ويكشف مساوئهم ولو بعد حين . وهذه القاعدة هي التي انطلق منها يوسف ﷺ في تعامله مع مختلف القضايا .

ثم كره ﷺ بعد قوله : ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أن يظهر - وهو المخلص العميق الإيمان - في موقع من يزكي نفسه ويعجب بها ، وينسب لها الاستقلال في التنزه عن الخطيئة ، ولذا بادر إلى استدراك ذلك ، قائلاً : ﴿ وَمَا أُبْرِي نَفْسِي ﴾ فهي بطبعها تميل إلى الأهواء والشهوات ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ فهو تعالى وحده الذي يلطف بها ويعصمها من الذنوب والآثام ويوفقها للصالحات .

يُذكر أن كثيراً من المفسرين - عملاً بظاهر السياق - يذهب إلى أن هاتين الآيتين ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ... ﴾ و ﴿ وَمَا أُبْرِي نَفْسِي ... ﴾ تنمة لكلام امرأة العزيز ، وهو بعيد للأسباب الآتية :

١ . لو كان ذلك من تنمة كلامها فلا وجه لأن تقول : « ذلك ليعلم » بل كان اللازم أن تقول : وليعلم أنني لم أخنه بالغيب ، بحذف ذلك فالإتيان باسم الإشارة البعيد غير لازم .

٢ . لو كان الهدف من قولها : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ هو الاعتراف بالحق في هذه اللحظة الحاسمة ، فقد تبلجت فيها الحقيقة كتبلج الفجر الصادق قبل هذه الجملة باعترافهن جميعاً ، فلم يكن أي حاجة لهذه الجملة لأنها اعترفت بذنبها وطهارة يوسف بقولها : ﴿ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

وإن كان الهدف منه القول بعدم خيانتها طول الزمان فهو خلاف الواقع ، لأنها خانته حيث اتهمته وقالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ ، ولم يقر لها قرار حتى أودعته السجن وقالت في كلامها السابق ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

٣ . إن امرأة العزيز كانت تعيش في أجواء الشرك واللهو والمجون ، وأين هي من هذه القيم الإيمانية والحقائق الرفيعة : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ و ﴿ وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .^(١)

وقد برّر أحد الأعلام صدور هذه المعاني الجليلة من امرأة العزيز بقوله : (لا يبعد أن الإنسان حين ترتطم رجله بصخرة صماء ، تظهر في نفسه حالة من التيقظ المقرون بالإحساس بالذنب والخجل ، خاصة أنه لوحظ أن الهزيمة في العشق المجازي يجر الإنسان في طريق العشق الحقيقي «عشق الله» . وبالتعبير الحديث المعاصر: بدلاً من زوال الميول النفسية التي أصيبت باللوم والتوبيخ ، يحصل عندها «تصعيد» و تتجلى بشكل عال) .^(٢)

وهذا التبرير صحيح في نفسه ، ولكنه - فيما نرى - لا يصح في امرأة العزيز التي كانت من قوم كافرين ، وكانت تعيش حياة اللهو والترف والتحلل من القيود الأخلاقية في قصرها وفي علاقاتها الاجتماعية ، ولم تتورع عن خيانة زوجها بمراودة فتاها ، والتهالك على بذل نفسها له ، وحياسة قرار ظالم ضد يوسف عليه السلام ، سُجن على أثره بضع سنين ، دون أن يظهر - طيلة هذه الفترة - أي

١ . انظر: الميزان: ١١/ ١٩٩ .

٢ . الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٧/ ٢٠٧ .

مسعى لها تتدارك به خطيئتها برفع الظلم عنه وتحريره من السجن .
والله يعلم مقدار السنوات التي كان يمكن أن يقضيها في السجن بفعل
ظلمها واستهتارها ، لو لم يرَ الملك رؤياه ، ويفتح تحقيقاً في الأمر .
أما إصهارها بالحقيقة ، فهو لا يعبر عن حالة من التيقظ المقرون
بالإحساس بالذنب والخجل ، خاصة أنه جاء في جلسة استجواب يعقدها
الملك ، وفي ظل معرفته بفضل يوسف عليه السلام وعلمه ورجاحة عقله ، وبعد شهادة
النسوة بنزاهته من كل سوء .

وثمة سبب آخر دعا إلى استبعاد ربط هاتين الآيتين بيوسف ، وهو : أنه
(إذا كانت هاتان الآيتان بياناً لكلام يوسف ، فسيبدو بينهما نوعاً من التناقض
والتضاد ، فمن جهة يقول : ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ، ومرة يقول : ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ
نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ .

وهذا الكلام لا يقوله إلا من يعثر أو ينزلق ولو انزلاقاً يسيراً ، في حين أن
يوسف لم يصدر منه أي انزلاق) .^(١)

لا شك في أن يوسف عليه السلام لم يعثر أو ينزلق ولو انزلاقاً يسيراً ، لأنه يقف
على أرض ثابتة من الإيمان والورع والتقوى ، ويتمتع بالطاف إلهية تقيه من
الانزلاق ... فهو من الصديقين الأبرار الذين أخلصهم الله لطاعته واصطفاهم
لرسالاته ، فعصمهم من الذنوب والآثام ، وطهرهم من أرجاسها .

وقوله عليه السلام : ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ
رَبِّي ﴾ ينسجم مع مقامه الرفيع هذا ، لأنه تعبير عن شعوره بضعف نفسه وقلة

حيلته في مقاومة الشهوات والأهواء وكل ضغوط الحياة، وتعبير أيضاً عن عميق ثقته بالله تعالى وافتقاره إلى رحمته ولطفه وعصمته .

لقد أراد ﷺ بهذا القول بعد أن أعلن عن أمانته وبراءته من الخيانة ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أراد أن ينأى بنفسه عن الاغترار بهذا الإنجاز والانتصار، وأن ينسبه إلى ربه الكريم، الذي صرفه عن سيئ الأعمال ووقفه لصالحها، لأن النفس بطبيعتها تجنح إلى السوء، فتزل وتردى .

وهذا التذلل والخضوع لله تعالى واتهام النفس بالضعف والتقصير، يتجلى بوضوح في سيرة المعصومين، ونجده بارزاً في أدعية الإمام زين العابدين علي بن الحسين ﷺ في «الصحيفة السجادية» .

ونحن نورد هنا كلاماً لأmir المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، يُلقى أضواءً ساطعة على ما نحن بصدده، وكأنه تفسير وبيان لقول النبي يوسف . قال ﷺ: «... فلا تكفُّوا عن مقالةٍ بحقٍّ، أو مشورةٍ بعدلٍ، فإنِّي لستُ في نفسي بفوق أن أُخطئَ، ولا آمنَ ذلكَ من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به منِّي ^(١)، فإنما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لربِّ لا ربَّ غيره، يملكُ منا ما لا نملك من أنفسنا ... » ^(٢).

١ . أمعن النظر في قوله: فإنِّي لست في نفسي... وقوله: إلا أن يكفي الله من نفسي....

٢ . نهج البلاغة: ٣٣٥، الخطبة ٢١٦.

انتخاب يوسف للوزارة

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .
﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .
﴿ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .^(١)



لما ثبتت براءة يوسف أمام الناس جميعاً وتجلت شخصيته بأبهى حُللها، رضي ﷻ هذه المرة بالخروج من السجن، والحضور بين يدي الملك، الذي أراد أن يستأثر به ويجعله من خاصته ليتفجع بمواهبه ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ الملك وسأله عما يُهمه، ازداد إعجاباً بشخصيته وبما يتمتع به من سمات ومَلَكات، وقال له لقد خصصتُك بمكانة رفيعة لديّ، ومنحتك ثقتي المطلقة ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

انتَهز ﷺ فرصة هذا التكريم الذي أولاه إياه الملك ، والعزم على إشراكه في إدارة شؤون البلاد ، انتهز ذلك ليعرض عليه رغبته في تولي خزائن^(١) مصر وشؤونها الاقتصادية في هذا الوقت ، لعلمه بما ينتظر البلاد من سنوات مُجدبة ، تتطلب رسم خطط اقتصادية محكمة وتدابير مُتقنة في سنوات الخصب والرخاء ، تتيح له تجاوز المصاعب والأزمات والشدائد التي ستحدث في السنوات الحالكة القادمة .

كما تتطلب - سنوات القحط - وضع إجراءات حازمة وموازن عدل صارمة ، تمنع المحتكرين والمستغلين والمحتالين من الاستئثار بأقوات الناس ، وهضم حقوقهم ، والتلاعب بمصائرهم ، وتحول دون وقوع مجاعة تهدد حياة المستضعفين والفقراء والمحرومين .

لقد رأى ﷺ الفرصة سانحة لتحقيق رسالة الأنبياء في إقامة العدل وإزالة مظاهر الظلم في أهم جوانب الحياة ، وذلك من خلال حفظ الأموال العامة وتحقيق مصالح المجتمع وتوفير العيش الكريم له . وهو ﷺ يمتلك من الصفات والقابليات ما يؤهله للنهوض بهذا العبء الفادح ، وقد أشار إلى بعضها بقوله للملك : ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ .

(ولم يكن ﷺ مزكياً لنفسه وهو يقول : ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ إنما كان يذكر الصفتين الضروريتين للاضطلاع بذلك الواجب الثقيل ، صادقاً فيما يقوله ، متحدثاً بنعمة الله عليه ، وقد آتاه الله الحكمة والعلم).^(٢)

باشِر النبي يوسف مهامه ، وأصبح له - بفضل الله تعالى - نفوذ واسع

١ . الخزائن واحداً خزانة ، وهي ما تُخزن فيه غلات الأرض ونحوها .

٢ . في ظلال القرآن: ٩ / ١٣ .

وسلطة ممتدة في البلاد ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ويتصرف فيها كما يريد، بعد أن عانى وحشة البشر وقيود السجن وضيقتهما ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾، وقد شاء أن يمنّ عليه بالرفعة وعلو المنزلة، ولا رادّ لمشيئته الجارية وفق السنن التي وضعها، ومنها مجازاة المحسنين في إيمانهم وسلوكهم ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه إيماء إلى أن هذا التمكين في الأرض، هو أجر دنيوي ليوسف، جوزي به لصبره وتحمله للمصاعب والمتاعب في سبيل الله، وله مع ذلك أجر أخروي. ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أي خير لأولياء الله المتحلّين بأمرين: الإيمان الكامل والتقوى كما قال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. (١)

١٣

السبع المجذبة

و

إخوة يوسف في مصر

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾
 ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَفِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ .

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى

أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .^(١)

مرت السنوات السبع المخصصة وأقبلت السبع المجدبة واشتد الجذب في مصر، وامتدّ إلى فلسطين أرض كنعان، فأصاب الكنعانيين من القحط ما أصاب غيرهم، وقد تناهت إلى يعقوب عليه السلام وأبنائه أخبار طيبة عن مصر وعن توفر الطعام فيها. فتجهّز بنو يعقوب - باستثناء (بنيامين) شقيق يوسف - وساروا حتى وردوا مصر: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ في مقرّه الذي يُشرف فيه على عملية بيع الغلال وتوزيعها ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ ولم يعرفوه ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لطول العهد به وتغيّر شكله وبُعد حاله التي رأوه عليها عن حاله حين فارقه.

أكرم يوسف عليه السلام إخوته وأمر بإيفاء الكيل لهم، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ وأوقر ركائبهم، واستعدّوا للرحيل ﴿قَالَ اثْنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾، وهنا يثار هذا السؤال: كيف عرف عليه السلام أن لهم أخاً من أبيهم؟

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: والذي اقتضى طلبه الأخ من أبيهم أنه فاوضهم وسألهم عن أخبارهم وأحوالهم، وأخبار أهلهم، كما يتساءل الناس عن مثل ذلك، ودلّ الكلام على ذلك، وهو من عجيب فصاحة القرآن.^(٢)

ثم رغبتهم عليه السلام بالعودة إليه، بقوله: ﴿قَالَ اثْنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي لا أبخس الناس شيئاً وأتم لهم كيلهم ﴿وَإِنَّا خَيْرٌ

١. يوسف: ٥٨-٦٢.

٢. التبيان في تفسير القرآن: ٦/١٦١.

الْمُنزِلِينَ ﴿ أَي خَيْر الْمُضِيفِينَ .

ثُمَّ هَدَدَهُمْ قَائِلًا : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ .

أحس إخوة يوسف بأن ما يحملونه من الطعام لا يكفي عائلة مكونة من اثني عشر نفرًا، ومن جانب آخر هدد العزيز بمنعهم من ابتياع الطعام إذا لم يأتوا بأخيهم فلذلك خاطبوا يوسف بقولهم : ﴿ سَتَرَاوِدُ هُنَا أَبَاهُ ﴾ أي نبذل قصارى جهدنا في الإتيان بالأخ، ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي عاملون بوعدنا .

وقبل أن يرحلوا، أمر يوسف خدّمه بأن يدسوا ما قدّمه إخوته من الأثمان لشراء الميرة، يدسوها في أوعية أمتعتهم ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾، والهدف من ذلك هو تشجيعهم على العودة إليه مرة أخرى، والظفر بإحسانه وكرمه^(١) ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

١٤

عودة الإخوة إلى وطنهم

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا
وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

١ . ولا يبعد أن يكون من مقاصد يوسف في دس بضاعة إخوته في رحالهم أن يُطمئن أباه، ولا يشغل

عليه إرسال أخيه له . التفسير الكاشف: ٤ / ٣٣٤ .

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ .

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِّي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ .

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .^(١)

عاد إخوة يوسف بما يحملون من أطعمة إلى وطنهم (فلسطين)، وسارعوا إلى رواية قصة رحلتهم إلى أبيهم يعقوب عليه السلام، وأخبروه بقرار متولي خزائن مصر برفض التعامل معهم والكيل لهم في المستقبل، ما لم يؤتوه بأخيهم من أبيهم، ثم طلبوا إليه أن يرسله معهم، متعهدين بحفظه وحمايته ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

لم يطمئن الأب إلى قولهم، فله معهم تجربة قاسية نغصت عليه حياته، ولذا واجههم بهذا الرد: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد تعهدتم بحفظه، ولكنكم فرطتم فيه، وادعيتم أن الذئب أكله وأنتم عنه غافلون .

ثم توجه بكل كيانه إلى الله تعالى ، وقال : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وقد فوّضت إليه أمري في حفظ ولدي ، وقطعت رجائي عمّن سواه .
ترك الأبناء أباهم والأحزان تستعر في قلبه ، وتوجهوا إلى رواحلهم ، لإخراج ما في الأوعية من أطعمة ، فلما فتحوها وجدوا فيها أيضاً بضاعتهم التي حملوها كئمن للشراء ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ فانطلقوا إلى أبيهم مسرورين و ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِيٍّ ﴾ ... وأي شيء نطلب بعد هذا ، وقد أكرمنا متولّي الخزائن بإعطائنا الغلال مجاناً؟

ثم أخذوا يعدّدون مزايا الرحلة التي يعتزمون القيام بها إلى مصر ، لإغراء أبيهم بالموافقة على إرسال أخيهم معهم : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ وستفعلننا في المبادلة ﴿ وَتَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي نأتيهم بالميرة (الطعام) ، ﴿ وَتَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ باستصحاب أخينا ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ ... من السهل أن نحصل عليه في حال مرافقته لنا .

رضي يعقوب عليه السلام أخيراً بإرسال ابنه (بنيامين) معهم ، ولكن بشرط أن يعطوه عهداً مؤكداً بالآيمان أن يعيدوه إليه سالماً ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لِنَأْتِيَنِي بِهِ ﴾ .

ولما كان قدراتهم محدودة في هذا المجال ، فقد يختطفهم القدر أو ينزل بهم ما لا حيلة لهم في رده ، قال يعقوب مستنياً : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ .
استجاب الأبناء لمطلبه ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ . تذكيراً لهم بأن الله رقيب وشاهد على ما تعهدوا به ، وكأنه تأكيد للحلف .

لما استعدّ أبناء يعقوب للسفر ثانية إلى مصر ، وهم أحد عشر رجلاً ، أوصاهم أبوهم بالاحتراز عن دخول مصر مجتمعين من باب واحد والزمهم

بالدخول متفرقين من أبواب مختلفة: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ
وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾.

ويظهر أنّ المراد من الأبواب هو أبواب المدينة فقد كانت المدائن في
العصور السابقة ذات أبواب.

وقد اختلفت كلمات المفسرين في الغرض من هذا الإيحاء، ويحتمل
أن يكون النهي هو خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحرّاسها حيث
إنّ أزياءهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة، فربما يحسّ الحراس منهم خيفة
فيُسجنون حتى يتبين حالهم وما هو الهدف من سفرهم، فربما ينتهي ذلك إلى
حرمانهم من شراء الطعام الذي هو الغرض الأقصى من السفر.
وقيلت وجوه أخرى، منها:

١. خاف يعقوب عليهم العين، لأنهم كانوا ذوي جمال وهيبة وكمال،
وهم أخوة أولاد رجل واحد.

٢. خاف عليهم حسد الناس إياهم وأن يبلغ الملك قوتهم وبطشهم
فيحبسهم أو يقتلهم خوفاً على ملكه.

إلى غير ذلك من الوجوه. ^(١)

ولعلّ ما ذكرناه نقلاً عن «التحرير والتنوير» أوضح. ^(٢)

وبما أنّ ظاهر الإيحاء أنّ العمل به لا يدفع عنهم الشر مطلقاً، استدرك
يعقوب ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لا يكون ما أمرتكم
به مُغنياً من الله سبحانه، وربما يصيبكم شيء من دون أن يدفعه ما أوصيتكم

١. مجمع البيان: ٣/٢٤٩.

٢. التحرير والتنوير: ١٢/٩٠.

به ، لأنَّ حكمه تعالى نافذ ، ثمَّ علل ذلك بقوله : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ، فالكون وما فيه محكوم بحكمه وإرادته لا تُردّ ، ولذلك يجب إيكال الأمر إلى الله سبحانه بعد الأخذ بالأسباب الظاهرة كما قال : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ، والتوكل عبارة عن تسليط الأمر الذي له نسبة إلى الموكل والوكيل والنسبة هنا هي الولاية المطلقة الإلهية الحاكمة على الكون وما فيه ، ومنه الإنسان .

والمراد من الحكم في الآية إرادته الكونية النافذة في الكون وتدبيره من عالم الغيب إلى عالم الشهود بقريته الأمر بإيكال الأمر إلى الله بخلاف الحكم الوارد في كلام يوسف : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(١) ، فإنَّ المراد بالحكم هذا هو الحكم التشريعي لا التكويني بقريته ما رتبته عليه قوله : ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ .

وصل الإخوة المدينة وعملوا بما أوصاهم أبوهم ودخلوها من أبواب متفرقة ، ومع ذلك أصابهم ما كان يخاف منه يعقوب ، وما تفرَّسه من نزول مصيبة بهم تُفرِّق جمعهم وتنقص عددهم ، ولكن الوسيلة التي اتخذها لتلك الغاية (الدخول من أبواب متفرقة) لم تكن لتدفع عنهم البلاء ، بل صار قضاء الله ماضياً فيهم ، حيث فرَّق شملهم لما سيأتي من أن العزيز أخذ أخاهم من أبيه بتهمة أن صواع الملك قد سُرق ووجد في رحل أخيه ، فعاد الإخوة إلى أرض كنعان وبقي كبيرهم في مصر ، حتى تظهر الحال كما سيوافيك ، ولذلك قال سبحانه : ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

شَيْءٍ ﴿١﴾ أي لم يكن مغنياً عن ردّ القضاء المقدر من الله سبحانه ، ومع ذلك كلّه
 فالله سبحانه استثنى شيئاً وقال : ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ وقد
 فسّرت الحاجة بوجهين :

١ . المراد بها اضطراب قلبه حيث ارتفع بالإيحاء .^(١)

٢ . حرصه على تنبيههم على الأخطار التي تعرض لأمثالهم في هذه
 الرحلة إذا دخلوا من باب واحد وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على
 الله .^(٢)

يلاحظ عليه : أنه لو كان المراد هو هذا فقد قضيت حاجته عندما
 استعد الأولاد للرحيل ولكن ظاهر الآية أنه قضيت حاجته بعد رحيلهم ودخولهم
 مصر .

ولعل المراد هو تهيئة السبب الذي يتوصّل به يعقوب إلى لقاء ابنه
 يوسف ، حيث إنّ الوصال كان حاجة يعقوب التي تدور في خلدّه ليلاً ونهاراً ،
 فصار هذا التفريق سبباً لقضاء ذلك يقول العلامة السيد الطباطبائي : لكن الله
 سبحانه قضى بذلك حاجة في نفس يعقوب عليه السلام ، فإنه جعل هذا السبب الذي
 تخلف عن أمره وأدى إلى تفرق جمعهم ونقص عددهم بعينه سبباً لوصول يعقوب
 إلى يوسف عليه السلام ، فإن يوسف أخذ أخاه إليه ورجع سائر الإخوة إلا كبيرهم إلى
 أبيهم ، ثم عادوا في المرحلة الثالثة إلى يوسف يسترحمونه ويتذلّلون لعزته فعرفهم
 نفسه وألزمهم بإشخاص أباهم وأهله إلى مصر فتبدل الفراق بالوصال .^(٣)

١ . مجمع البيان : ٣ / ٢٥٠ .

٢ . التحرير والتنوير : ١٢ / ٤٩ .

٣ . تفسير الميزان : ١٣ / ٢١٩ .

الرحلة الثانية إلى مصر

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أُخِيهِ ثُمَّ أَدْنَى مُؤَدَّنُ أَيُّهَا الْعَبِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ .

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ .

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ .

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ .

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ .

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رِجْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أُخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أُخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا

لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ .^(١)

نشاهد في هذه المحطة من الرحلة الثانية إلى مصر، التقاء الإخوة بيوسف للحصول على الميرة، وتوفر الفرصة ليوسف للاختلاء بأخيه (بنيامين) وتقريبه منه، ومصارحته بأنه هو أخوه، ثم تطيب نفسه بعدم الابتئاس والاعتماد بما صدر من إخوته من أذى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

وأراد يوسف ﷺ أن يحتفظ بأخيه، فألهمه الله تعالى من أجل تحقيق بغيته تدبيراً محكماً، ستوضح معالمه بعد قليل .

أمر يوسف بعض فتياته بدس الوعاء الذي يُسقى به، والمستعمل عندهم للكيل، أمر بدسه في الرحل المختص بأخيه (بنيامين) عند تجهيزهم بالطعام ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أُخِيهِ﴾ .

ولما أراد أبناء يعقوب الانصراف، نادى المنادي في القافلة: ﴿أَيْتَهَا الْعِيبُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ .

صُعب أبناء يعقوب لهذا الخبر الذي يُسيء إلى سمعتهم (وهم من أهل بيت رفيع الشأن)، ويُغلق عليهم باب الحصول على الطعام في هذه الأوقات العصيبة، ولذا سارعوا إلى فتیان يوسف للتساؤل عن حقيقة الأمر ﴿قَالُوا وَقَبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ فأجابهم الفتیان: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعاً^(١) الْمَلِكِ﴾، وأضافوا: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ^(٢)﴾، وهذا يُشعر بأن فتیان يوسف كانوا خائفين من عدم العثور على الصواع ولذلك عيّنوا جائزة، وهي أن من جاء به سيُعطى حمل بعير من الطعام بالإضافة لما يستحقه .

١. الصواع: مكيال الطعام.

٢. الزعيم: الكفيل والضمين.

وهنا يُطرح هذا السؤال : كيف جاز ليوسف أن ينسب السرقة لإخوته ، مع علمه ببراءتهم ؟

قد أُجيب عن ذلك بوجوه ، أحسنها هذان الوجهان :

الأول : إن الشخص الذي سببت عليه تهمة السرقة وفق الخطة المرسومة هو شقيق يوسف (بنيامين) ، وقد أطلع يوسف على خطته ، فوافق عليها ، ورضي بأن يقوم بهذا الدور ، كما يفهم ذلك من السياق ، إذ لم يُبدِ أي ردود فعل إزاء كل ما جرى له .

الثاني : إن الاتهام بالسرقة صدر من بعض أعوان يوسف ولم يأمره يوسف بذلك ، أي أن الموكل (أو الموكلون) بالصواع لم يعلم بما أمر به يوسف من جعله في رحالهم ، فلما فقدوه ، صار ذلك سبباً لتوجيه الاتهام إليهم . وربما يشير إليه قوله : ﴿وَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ﴾ دون أن يقول «وَأَذِّنْ» الجاعل صواع الملك في رحل أخيه ، وهذا يشعر بتغايرهما .

وعلى كل تقدير ، انتاب الإخوة اضطراب شديد لما سمعوا نداء الاتهام بالسرقة ، وبادروا إلى تبرئة ساحتهم بهذا الكلام المعزز باليمين ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ، فقد رأيتم من صحة معاملتنا وشدة توقينا لما لا يجوز لنا ، ما ينبئ عن مقاصدنا ،^(١) ونزاهتنا عن الفساد ، فقال فتیان يوسف : ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ، فأجاب أبناء يعقوب بأن جزاء من وجد الوعاء في رحله هو استرقاقه تبعاً ، حيث نجزي السارق بهذا الأسلوب في بلدنا كما يحكيه سبحانه : ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ

جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١٠﴾

اتفق فتیان یوسف وأبناء یعقوب علی أنّ من وُجد الصواع فی رحله یسرق ویُستعبَد وهو قریب من استرقاق المغلوب فی ساحة القتال .

فبدأ بعض فتیان یوسف بفتح أوعية الإخوة وتفتيشها قبل وعاء أخى یوسف لإبعاد فكرة المؤامرة عن أذهانهم ، وهذا يدلّ علی أنه كان يعمل وفق الخطة التي رسمها یوسف ﷺ . قال تعالى : ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ .

وعند ذلك استقر الجزاء عليه باسترقاقه ، لكون الصواع في رحله .

ثمّ إنه تبارك وتعالى يشير إلى أنّ هذا التخطيط الدقيق ليوسف ﷺ كان بإلهام من الله سبحانه ، ليتوصل به إلى أخذ أخيه : ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وليس كلّ كيد متفياً عنه سبحانه وإنما ينفي الكيد المبني على الظلم ، ولولا هذا الكيد لم يتوصل يوسف إلى ما يطلبه من أخذ أخيه ، حيث إنّ السارق في القانون السائد عند ملك مصر لا يُعاقب بالاسترقاق ، بل بعقوبة أُخرى ، وهذا هو المراد بقوله سبحانه : ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَنْ يَبْسُطَ يَدَيْهِ عَلَيَّ إِنِّي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ، ويُقصد بالمشيئة هو هذا التدبير الذي أُتيح له فيه أخذ أخيه ، وهكذا يرفع الله من يشاء بالعلم ، كما رفع يوسف : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ حتّى ينتهي إلى الله تعالى الغني بنفسه عن التعليم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ .

التنصل من فعل أخيههم

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ .
 ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ .^(١)

فوجئ أبناء يعقوب بالصواع وهو يُستخرج من رحل أخيههم ، مع أنهم أكدوا براءة ساحتهم من السرقة ، وعندئذٍ اعتراهم الاضطراب والارتباك ، وأخذوا يتشبهون بالبهتان كما يتشبه الغريق بالحشيش و﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ، وهكذا يعبر الحقد الكامن في نفوسهم تجاه يوسف وأخيه ، يعبر عن نفسه باختلاق هذه التهمة الباطلة في حق يوسف وكأنهم أرادوا بقولهم : ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أنفسهم ، لا المتهم بالسرقة ولا أخاه لأنهما كانا أخوين لهم من جهة الأب فقط ، وكأنهم لم يحسبونهما أخوين لهم .

أوردت مقالتهم هذه المأ ممضاً في قلب يوسف ﷺ ، ولكنه تحملها ولم

يؤاخذهم بها كعادته ، واعتصم بحلمه وكرمه ، وقال في نفسه^(١) : أنتم أسوأ حالاً (أو منزلة) لصدور القبائح منكم ، والله أعلم بحقيقة ما تقولون : ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ .

لم يجد الإخوة الذين أخذ أبوهم منهم العهد المؤكد بالإتيان بأخيهم إليه سالماً ، لم يجدوا وسيلة للتخلص من هذه الورطة التي وقعوا فيها سوى استعطاف العزيز وتهيج عواطفه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ وكل هذه الصفات تقتضي الرقة والعطف : حنان الأب وشغفه بابنه ، وضعف الشيخوخة ، وكبر السن . استعطفوه بهذه الكلمات مقدمين بين يديه هذا العرض ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ . . أن يُطلق أخاهم (بنيامين) ، ويأخذ بدله واحداً منهم ، ويختاره من بينهم ، وهم عشرة رجال ، ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فمثلك يرحم الأب الطاعن في السن الذي له رغبة في هذا الولد .

اعتذر يوسف عن قبول طلبهم ، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ غيره مكانه ، لأن أخذ من وجد المتاع عنده أخذ على نظام العدل ؛ وأما أخذ غيره مكانه فهو عدول عن الحق ، فلو فعلنا ذلك لأصبحنا من الظالمين .

١ . لا في لسانه ، ولكن يبدو من بعض التفاسير أن يوسف ﷺ جابه إخوته بقوله : ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو بعيد ، لقوله تعالى ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ، ولأنه ﷺ ضرب المثل الأعلى في الحلم والصفح والتجاوز عن الإساءة ، ويتضح ذلك بجلاء في موقفه الكريم منهم يوم اعترفوا أمامه بخطيئتهم بعد أن كشف لهم عن هويته ، إذ قال لهم : ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

العودة الخائبة

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

﴿ازْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ .

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَةَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ .

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِبيضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ .

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوْنَا تَذْكُرُ يُّوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿يَا يَسَّىٰ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا

يَأسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .^(١)

شعر أبناء يعقوب بالخيبة وغمرهم اليأس بعد فشل مساعيهم في إقناع العزيز بأخذ أحدهم بدل «بنيامين»، فانتحوا جانباً، وعقدوا اجتماعاً خاصاً بهم بعيداً عن أعين الناس للتشاور بصورة سرية في كيفية التعامل مع هذه المشكلة المستعصية ﴿فَلَمَّا اسْتِأْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ .

انتهى الاجتماع بتسجيل وإقرار رأي أخيهم الكبير الذي ذكرهم بأمرين :
العهد المأخوذ عليهم من أبيهم بشأن بنيامين ، وتقصيرهم في شأن يوسف فيما مضى من الزمان ، إشارة منه إلى إلقاءهم إياه في البئر ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ .

وانطلاقاً من شعوره بالحرج الشديد أمام أبيه ، عزم كبيرهم على البقاء بمصر وعدم مغادرتها ، إلا أن يأذن له أبوه بالرجوع ، أو يجعل الله له من أمره فرجاً ﴿ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

ثم طلب من إخوته أن يعودوا إلى وطنهم ، ويخبروا أباهم بحقيقة ما جرى لهم في حضرة العزيز ﴿ اذْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ﴾ فقد رأينا بأمر أعيننا أن صواع الملك كان في رحل ابنك ، وكان هذا هو مصدر علمنا ، ونحن وإن أعطيناك الموائيق بإرجاعه إليك إلا أننا لم نكن عالمين بالغيب وأنه سيسرق : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ .

ثم أضاف وقال : لو شك الوالد وصار متردداً في القضية فعليه أن يستخبر الواقعة من أحد طريقين :

١ . أن يسأل أهل مصر ، بأن يرسل إليهم أحداً ، أو يكاتبهم لتحقيق الحال ، حيث شاعت سرقة في مصر : ﴿ وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ .

٢ . أن يسأل أصحاب القافلة القادمين معنا من مصر إلى أرض كنعان،
فقد رأوا ما رأينا ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ .

رجع سائر الإخوة إلى بلدهم ، وأخبروا أباهم بما حدث ، فتألم كثيراً
وخاطبهم بنفس العبارة التي خاطبهم بها ليلة زعموا أن يوسف قد أكله الذئب
﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ لكنه أضاف هنا : ﴿ عَسَى اللَّهُ
أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ . . انه الإيمان الذي يملأ القلب ، ويمدّه بأمل اللقاء
بأبنائه الثلاثة . . حتى يوسف الذي غُيب عنه منذ أمد بعيد!! ، الإيمان بالله
وعلمه وحكمته في تدبير كل شيء ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

آثر يعقوب عليه السلام الإعراض عن أبنائه ، والاختلاء بنفسه ، إذ لم يجد فيهم من
يعزيه ويواسيه في نوائبه ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ . . عجيب
أمر هذا الصبي الذي ترك في قلب والده كل هذه الذكريات التي لا يمحوها كثر
الأيام والسنين ، وكل هذه اللوعات التي لا يخفف من وطأتها سائر المصائب
والأحزان .

وظل الحزن يستعر في صدر يعقوب حتى أثر ذلك في بصره ﴿ وَابْيَضَّتْ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ وذهب بصره ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ . . يطوي حزنه عن الناس ،
ويكظم غيظه .

ولم يزل اسم يوسف يتردد على شفثيه ويلهج به لسانه إلى أن تبرم
وضجر^(١) منه أبناؤه و ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُوا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ
الْحَرَضِ ﴾ .

١ . قيل : إنما قالوا له ذلك إشفاقاً عليه وتعطفاً ورحمة له . وما ذكرناه أقرب إلى نفوس الأبناء المليئة
بالحقد على يوسف ، فهذا القول يذكرهم به ويجريمتهم في حقه ، ويؤيده أيضاً رد أبيهم عليهم في
الآية اللاحقة ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ .

الْهَالِكِينَ ﴿ . . أي حتى تمرض ويذوى جسمك أو تموت غمًا .

وجاء ردّ أبيهم عليهم منسجماً مع إيمانه العميق وبصيرته النافذة ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي ^(١) وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الذي لا يُيرمه إلحاح الملحّين ، ولا يخيب في حضرته الراجون ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وقد ألهمني أنّ هذا الغم زائل ، والأمل بقاء الحبيب حاصل .

ثمّ هداه هذا الأمل والرجاء إلى القول : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ . فالمؤمن لا ينطفئ أمله مهما عصفت به ريح الشدائد ، وامتدّ ظلام المآسي . . ويظل يرنو إلى عين الله الرحيمة وينتظر سحائب الرأفة ولو جفاه الدهر وقسى عليه القدر .

١٨

الرحلة الثالثة إلى مصر

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .
 ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .
 ﴿ قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

١ . البتّ: الهمّ الذي لا يقدر صاحبه على كتمانها فيبته، أي يفرقه، وكلّ شيء فرقه فقد بشته .

﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آتٰرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَاِنْ كُنَّا لَخٰطِئِيْنَ﴾ .

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيَّكَمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ اَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ﴾ .

﴿اِذْهَبُوْا بِقَمِيصِيْ هٰذَا فَاَلْقُوْهُ عَلٰى وَجْهِ اَبِيْ يَبْتَأْ بِصِيْرًا وَاْتُوْنِيْ بِاَهْلِكُمْ

اٰجْمَعِيْنَ﴾ .^(١)



توجّه أبناء يعقوب للمرة الثالثة إلى مصر، بقصد الحصول على الطعام، ولتقصي أخبار يوسف وأخيه، كما أوصاهم أبوهم بذلك - وإن كانوا آيسين من التقاط أخبار عن يوسف بعد هذا الغياب الطويل - فلما دخلوا على العزيز شكوا إليه ما نابهم وناب أهلهم من شدة صمّاء، وفاقة مُجهدة، راجين إحسانه ونواله، لأن ما يحملونه من بضاعة، لا يساوي - لقلته أو رداءته - ثمناً لشراء الطعام ﴿قَالُوْا يَا اَيُّهَا الْعَزِيْزُ مَسَّنَا وَاَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَاَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا اِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِيْنَ﴾ .^(٢)

أمام هذا المشهد المؤلم للإخوة، وكلمات الاستعطاف التي أطلقوها، رأى يوسف ﷺ أن الوقت قد حان للكشف عن وجه الحقيقة، والتعريف بنفسه، واستلهاهم نتائج الدروس من الوقائع والأحداث، وتبيان عواقب الأمور: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيْهِ﴾ بهذه الكلمة القصيرة والعبارة ودون الخوض في تفاصيل ما ارتكبوا من أعمال ذميمة، فتح يوسف ﷺ صندوق الأسرار، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على سمو أخلاقه وسعة صدره

١. يوسف: ٨٨-٩٣.

٢. قولهم ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي تفضل علينا بالمساعمة والإغماض عن البضاعة المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها. وقيل: معناه: تصدق علينا بردّ أخينا (بنيامين) وتخليه سبيله.

وأريحيته ، والألطف من ذلك أنه التمس لهم العذر بقوله : ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فالسبب هو جهلكم آنذاك ، مشعراً بذهاب الجهل عنهم الآن .

أثارت كلمته القصيرة هذه ، انتباه الإخوة وذكرياتهم ، فقالوا في صيغة الاستفهام التقريري : ﴿أَتِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾^(١) ، فأجابهم بقوله : ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ فعرف نفسه وأخاه ، مع أنهم لم يسألوه عنه ، تفخيماً لشأنه ، وإدخالاً له في قوله : ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ، ثم أشار إلى وجه المن ، وقال : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

وهذا هو الدرس الكبير الذي أراد يوسف عليه السلام أن يستلهمه البشر ، كل البشر ، ومنهم إخوته :

أن يتق الإنسان ربه تعالى ، ويستشعر رقابته في كل ما يصدر عنه . . أن يخشاه حق خشيته ، فيبادر إلى طاعته ، ويتجافى عن معصيته . . أن يتبع صراطه المستقيم ، ويصدّ عن جميع السبل التي تفرق به عن سبيله .

وأن يصبر : يصبر على المحن والشدائد والمواقف الصعبة ، فلا يضعف أمامها ولا ينهار ، بل يواجهها بعزم وإصرار ، ويصبر على طاعة الله ، فلا يزيغ ولا ينحرف ولا يملّ ولا يسأم ، وعلى نعم الله ، فلا يبطر أو يتجبر ويطنفئ ، ويصبر عن المعاصي ، فلا يُقدم على المنكرات والموبقات ، ولا يسترسل مع الأهواء والشهوات .

ومن جمع هاتين الخصلتين الساميتين ، (التقوى والصبر) فهو من المحسنين الذين لا يضيع الله تعالى أجرهم وثوابهم .

١ . حيث أكدوا كلامهم هنا بـ(إن) و(اللام) و(الضمير الفاعل).

جدير بالذكر ان كلام يوسف هذا وقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ انما هو مصداق واضح لامثال أمره سبحانه حيث قال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾^(١). ولا يصحَّ عَدُّ هذا الكلام من مصاديق إعجاب المرء بنفسه، الذي هو بعيد كل البعد عن شخصية يوسف الإيمانية.

ومن هنا جاء اعتراف الإخوة وإذعانهم بمنزلة يوسف وعلو درجته عند الله: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَاكَ اللَّهُ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالصَّبْرَ وَالتَّقْوَى وَبِالْمَلِكِ وَالْقُدْرَةِ ﴾ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿ أي آثمين فيما فعلنا.

وهنا في موقع الحاكم الغالب القادر، أبان يوسف ﷺ عن جوهره كما أبان عنه، وهو في موقع المحكوم المغلوب المقهور... ذلك الجوهر الذي صنعه الرسالة، وطهره الإيمان والتقوى، وصقلته المصاعب والتجارب ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ . لا لوم عليكم ولا توبيخ ولا تقرير فيما فعلتم.

ثم قال: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي بَاتٍ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أمر يوسف إخوته أن يذهبوا بقميصه إلى أبيه وذلك لغايتين:

الأولى: أن يكون إرسال القميص علامة لأبيه على صدق كلام إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف وأنه حي وله شأن ومنزلة.

الثانية: ان الإخوة جاءوا - من قبل - بقميص يوسف ملطخاً بالدم وصار ذلك سبباً لحزنه وبكائه إلى أن انطفأ نور عينيه، فأرسل اليوم قميصه معهم ليصير سبباً لسروره وعودته بصيراً، كما قال: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي

يَأْتِ بِصِيرًا ﴿١﴾ ، وهذا أيضاً أحد الألفاظ الإلهية على يوسف بعد ما وصل إلى هذا المقام حيث إن الله قد جعل لوقوع قميصه على وجه الأب سبباً لإبصاره، ولا مانع من أن يكون وقوع القميص سبباً لعودة البصر، ومن المعلوم أن المؤثر هو إرادة يوسف غب إرادة الله سبحانه حيث تعلقت مشيئته على إجراء فيضه عن طريق الأسباب، والسبب منه طبيعي وعادي ومنه غيبي وغير عادي.

ثم إن يوسف أمرهم بإتيان أهلهم من البدو إلى مصر، وقد قيل: إن عشيرة يعقوب كانت ستاً وسبعين نفساً بين رجال ونساء.

١٩

القميص... وسريان النور في عيني يعقوب عليه السلام

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. (١)

اتجهت القافلة التي تضم أولاد يعقوب ومعهم قميص يوسف إلى أرض كنعان، وما أن تجاوزت أرض مصر، حتى أحس الأب المفجوع بفراق ولده منذ أمد

طويل، أحسّ بشيء عجيب يغمر كيانه، فقال لمن حوله من أهله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ولما كان يعلم أنهم لا يستسيغون كلامه هذا، استدرك بقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ وتتهموني بالسفاهة وضعف الرأي.

وقد تحقق ما تنبأ به يعقوب عليه السلام من ردهم عليه، إذ خاطبوه بجفاء قائلين: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ حيث لازلت تنتظر يوسف وترقب عودته وتتلهف إلى لقائه بسبب إفراطك في حبه، وما هذا إلا تحليق في الخيال، وانطلاق مع الأوهام.

لم يستطع هذا الرد العنيف أن يخنق روح التفاؤل لدى هذا الأب العارف الصابر، أو يُذوي أمل اللقاء بحبيبه، فلم تمرّ إلا أيام قصيرة حتى أدرك الجميع صدق ما ينبض به قلب هذا النبي المفعم بالإيمان من مشاعر وأحاسيس، فقد وصلت القافلة، وأتى من يحمل القميص، فطرحه على وجه يعقوب، فعاد إليه بصره بإذن الله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ وهنا التفت إليهم يعقوب، ليذكرهم مرة أخرى بسرّ هذه الثقة بانفراج الهموم وزوال الشدائد، وتحقق الآمال ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وكان قد قال ذلك أيضاً عندما كان الأبناء يلومونه في بكائه على يوسف فأجابهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا من وجوه الغيب التي علمها الله سبحانه نبيه يعقوب.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فمن أخذ بالتقوى عزبت عند الشدائد بعد دُئوها، واخلوّلت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصّعب بعد إنصابتها، وهطّلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحذبت

عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبئت عليه البركة بعد إرذاذها. (١)

أحس الإخوة بالخجل أمام الأب الذي صار بصيراً ينظر إلى وجوه أبنائه الذين خانوه كما خانوا أخاهم، فعند ذلك اغتتم الأبناء الفرصة، فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

ولكن الأب لم يستغفر لهم فوراً، بل وعدهم بذلك و: ﴿قَالَ سَوْفَ أُسْتَفِرُّ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، فما هو الوجه في التأخير؟

يحتمل أنه آخر ذلك إلى وقت يستجاب فيه الدعاء، وقد ورد ذلك في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، كما يحتمل أنه أخره لتطيب نفسه كل الطيب بنسيان جميع آثار الفراق بعد أن يلتقي بابنه يوسف.

كل ذلك يدل على أن للإنسان الخاطي أن يتوسل بدعاء أخيه أو بدعاء من هو أفضل منه كالأنبياء والأولياء فيطلب منه الدعاء، حيث نرى أن أبناء يعقوب توسلوا بدعاء أبيهم. وقد أمر سبحانه المسلمين أن يتوسلوا بدعاء النبي وطلبوا منه الاستغفار لهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾. (٢)

١. نهج البلاغة: ٣١٣ (الخطبة ١٩٨). عزبت: غابت وبعدت. الإنصاب: الإلتعاب. تحذب عليه: عطف. وبئت السماء: أمطرت مطراً شديداً. أرذت: مطرت مطراً ضعيفاً.
٢. النساء: ٦٤.

استقرار آل يعقوب في مصر

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَابُهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ
آمِينَ﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ
مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ
الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ
يَمْكُرُونَ﴾. (١)

قد تقدم أن يوسف طلب من إخوته أن يهاجروا إليه وقال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ
أَجْمَعِينَ﴾، فلما بلغ هذا الخبر يعقوب وأسرته، استعد الجميع للرحيل إلى مصر
ولكن القرآن طوى ذكر سفرهم من كنعان إلى مصر، لعدم وجود عبرة فيه، فلذلك

بدأ بذكر دخولهم مصر وقال:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ﴾ أي ضمتهما إليه وأنزلها لديه، وظاهر الآية كون الأم أيضاً مع يعقوب، وقال أكثر المفسرين عنى بأبويه أباه وخالته، فسميت الخالة أمّاً كما سمي العم أباً في قوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً﴾.^(١)

وقد ماتت أم يوسف في نفاسها بينامين فتزوج أبوه بأختها.^(٢) وما ذكر خبر واحد لا يصلح لتفسير القرآن الكريم. وظاهر الآية انها كانا أبويه الحقيقيين.

ولما دخلوا حياتهم يوسف بقوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾. ولعله حياتهم بذلك عند استقباله إياهم خارج مصر، ويحتمل أن يكون ذلك دعاء منه بعد دخولهم مصر وأريد به الاستقرار والاستيطان فيها بأمان واطمئنان، حيث استقر يعقوب وأولاده في مصر وكانوا - كما قيل - ثلاثاً وسبعين نفساً وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً.^(٣)

ثم حضر أبوا يوسف وإخوته عنده، فأجلس أبويه على سرير الملك الذي كان يجلس عليه، تعظيماً لهما ﴿وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾. بمعنى انحطوا (أبوا يوسف وإخوته) على وجوههم ووضعوها على الأرض، وربما يُفسَّر السجود بمجرد الانحناء، وهو لا يناسب قوله ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ إذ هو من قولهم: خرّ الماء أو الريح أي سمع صوته فهو خزار، ويستعمل في السجود كما في قولهم: خرّ يخر خروراً سقط من علو إلى أسفل وما هذا إلا لأن السقوط من العلو

١. البقرة: ١٣٣.

٢. مجمع البيان: ٣/ ٢٦٤.

٣. مجمع البيان: ٢/ ٢٦٤.

إلى الأسفل يشتمل على الصوت. والضمير في قوله: «له» يرجع إلى يوسف الذي دلّ عليه ضمير الرفع في قوله: رفع.

فلما رأى يوسف ﷺ سجودهم بين يديه، التفت إلى والده ﴿وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فالشمس والقمر هم والداه، والأحد عشر كوكباً هم إخوته، وهكذا أصبحت الرؤيا حقيقة واقعة.

في هذا المقام الذي يبعث الإنسان على الزهو والغرور، وفي هذه اللحظات التي يشعر فيها المعتدى عليه بالرغبة في الثأر والانتقام، راح يوسف ﷺ يستذكر ما أعطاه ربه من مواهب هنيئة وما أفاضه عليه من نِعَمٍ سابغة، ومنها التحرر من السجن، ومجيء أهله من البادية إلى المدينة، وانتقالهم من معيشة الرعاة وحياة الفقر إلى الحياة الطيبة الناعمة، قال ﷺ وهو يحدث ببعض آلاء الله تعالى عليه ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ و«البدو» عكس «الحضر»، وسمي بدواً لأن سكانه بادون أي ظاهرون لكلّ وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب.

وقد تجنّب ﷺ ذكر ما يؤذي مشاعر إخوته الذين بالغوا في إيذائه، ونسب ما دبّ بينه وبين إخوته من شرّ إلى الشيطان ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، أي بعدما أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي.

ثم أسند كلّ تلك النعم إلى ربه اللطيف وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

أي لطيف في تدبير عبادته يدبّر أمرهم على ما يشاء ويُسهل لهم العسير وبلطفه حصلت هذه النعم علينا.

ولمّا فرغ من ذكر النعم الإلهية عليه، أخذ بمناجاة ربه ذاكرةً أعظم نعم الدنيا

والآخرة عليه ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وهذه النعم الأربع التي ذكرها، اثنتان منها دنيويتان واثنتان أخرويتان... وإليك البيان:

أ. ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾، الظاهر هو ملك مصر.

ب. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، أي تأويل الرؤيا.

هاتان النعمتان من نعم الله سبحانه الدنيوية التي أنعمها عليه في الدنيا وقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كأنه دعا الله يعني يا فاطر السماوات والأرض، أي خالقهما على غير مثال سابق لهما.

ج. ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وهي جملة خبرية بمعنى الإنشاء، أي كن ولي في الدنيا والآخرة. وهذه نعمة أخروية وهي الأولى التي طلبها يوسف.

د. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وهذه نعمة أخروية وهي نعمة الدين الحق... ﴿وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إذ أنه من لوازم الوفاة على الدين الحق حيث يكون محشوراً مع الأنبياء والأولياء.

إلى هنا تم ذكر قصة يوسف وحياته وما جرى عليه من المحن والبلايا، كما تم بيان جزاء الله له على تقواه وصبره على المصائب والطاعات وتصبره عن المعاصي، وقد ذكر سبحانه أن هذه القصة مما أوحى الله سبحانه إلى نبيه، وهي من أخبار الغيب ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

والغيب ما غاب عن الناس... وكانت القصة من أنباء الغيب، وقد أوحاها الله إلى رسوله الكريم ﷺ ليخبر بها قومه وتكون دليلاً على نبوته ومعجزته

مشيرة إلى صدقه.

والدليل على أنها من أنباء الغيب ومن وحي السماء، هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مع الإخوة حتى يقف على مكرهم وحيلتهم ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي لدى الإخوة ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي عزموا عليه بكلمة واحدة ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

تنويه:

لقد درجنا فيما سبق على كتابة خلاصة لكل قصة، قمنا بدراستها في هذا الكتاب، وبما أن قصة يوسف عليه السلام قد عُرضت كلها في سورة واحدة، وجاءت أحداثها متسلسلة، فقد استغنيا بذلك عن كتابة خلاصة لها. ومع ذلك فمن أراد قراءة خلاصتها، فليرجع إلى تفسير الميزان^(١) فقد لخصها الأستاذ - قدس الله سره -

٢١

الدروس والعبر

١. إن المتحمّل لمسؤولية الدعوة إلى الحق والخير يقوم بهذه المسؤولية بكلّ كيانه، ويغتنم كلّ الفرص لأدائها، فلا يقعد به غمٌّ أو ضيق وشدة عن القيام بها، كما لا تلهيه عنها شؤونه الدنيوية.

فالصديق يوسف عليه السلام نهض بمهامه الرسالية وأعباء الدعوة إلى الله وهو في السجن، ونهض بها وهو يُمسك بزمام الأمور ويعتلي عرش الملك.

وكان عليه السلام مبلغاً ناطقاً بالكلمة الطيبة الصادقة المؤثرة المعززة بالبرهان،

١. الميزان: ١١، ص ٢٨١-٢٨٧.

وكان داعية صامتاً بسيرته وسلوكه في زمنٍ سادت فيه القيم المادية الزائفة، وانحسرت فيه معاني الشرف والفضيلة والكرامة.

ونحن - في هذا العصر - أحوج ما نكون إلى أن نحمل هموم الرسالة الإسلامية الخالدة التي تتعرض لهجمات شرسة ومخططات صهيونية وصليبية حاقدة تستهدف النيل منها ومن قادتها وأتباعها، وأن لا ندخر جهداً في الدعوة إليها بالحكمة وبالتجسيد الحي لها في سيرتنا.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليرَوا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية».^(١)

٢. إن المؤمن بعقيدته، الوثيق الصلة بربه، يظل ملتزماً بمواقفه ومبادئه وقيمه الإلهية في كل الظروف والأوضاع: في الشدة والرخاء، والعسر واليسر، وعند إدبار الدنيا عنه أو إقبالها عليه.

وكان يوسف عليه السلام مثلاً أعلى لهذا الالتزام الواعي، فلم تصرعه شهوة أو يذله طمع، ولم يطغيه غنى أو جاءه وقوة، ولم تزلزله نكبة أو تُبطره نعمة.

وقد تقلبت به الأحوال، فلم تختلف حالاته في أيّ منها، قال الإمام علي عليه السلام: «في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال».^(٢)

٣. إن صاحب الأهداف الإلهية وإن كان يبدي الكثير من المرونة في التعامل الاجتماعي، ويتغاضى عن الكثير من الممارسات الخاطئة في حقه، ويحلم ويكظم غيظه في الموارد التي يُساء فيها إليه، إلا أن ذلك لا يمنعه من اتخاذ مواقف حازمة وممارسات صارمة من أجل إنجاز الأهداف التي تفرضها المصلحة

١. أصول الكافي: ٧٨/٢، باب الورع، الحديث ١٤.

٢. نهج البلاغة: ٥٠٧، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم ٢١٧.

الرسالية والقيم الإيمانية، وعدم إبداء أي نوع من التساهل أو التراجع تحت ضغط العاطفة والإحساس الرهيف أو سائر الضغوط.

والصديق يوسف عليه السلام قد تعرض لمحن قاسية بسبب مواقف إخوته تجاهه، فعفا عنهم وصفح ولم يعنفهم أو يوبخهم، بل دعا لهم بالمغفرة والرحمة، ولكنه في الوقت نفسه أصر - قبل أن يكشف هويته لهم - على تلقينهم دروساً صعبة، تطلبتها مسؤوليته الرسالية لا رغباته النفسية التي قد تدعو إلى الثأر والانتقام، ومن هنا لم يخضع لعواطفه تجاه أبيه، ولم يستجب لتوسلات إخوته وضراعتهم بين يديه بشأن إطلاق أخيهم بنيامين، قبل أن تتحقق الأهداف التي كان يتوخاها.

٤. قد يتصور الإنسان أنه يمتلك من الإرادة والعزيمة ما يجعله قادراً على تجنب ممارسة بعض الأعمال غير اللائقة، فيقوم بتعبير من يمارسها، ويصفهم بكل قبيح، ولكنه عندما يقع في بوتقة الاختبار يفشل ويسقط، إذ يرتكب نفس تلك الأعمال، ويلقى المصير الذي لقيه من عابهم وأزرى عليهم فيها.

وفي هذه القصة نجد أن نسوة مصر كنّ يلمن امرأة العزيز في مراودة فتاها وينددن بعملها، ويصفنها بأنها في ضلال مبین، ولكنهنّ لما واجهن ما واجهت تلك المرأة، وقعن في المصيدة ذاتها التي وقعت فيها، فقطعن أيديهن بمجرد رؤيته، وطارت عقولهنّ لجمالها.

ومن هنا ينبغي التريث وعدم التسرع في نقد الآخرين والطعن عليهم قبل التأكد من امتلاك إرادة قوية وعزيمة ماضية، تحصن الفرد من الانزلاق بتلك المداحض، فـ (أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله)^(١) كما يقول الإمام علي عليه السلام.

٥. انّ الله تبارك وتعالى إذا شاء - لحكمة ما - أن يرفع إنساناً ويُعلي مكانته

ويعطيه القدرة والعظمة، فإن مشيئته سبحانه غالبية لا راد لها، إذ يهيئ له الأسباب التي ترتقي به إلى أسمى المقامات، ويمدّه بلطفه وعنايته.

وهذا النبي يوسف عليه السلام قد نُبذ في البئر، وأقام في بيت العزيز عبداً رقيقاً، ثم زُجّ في السجن بضع سنين. ولكنه غدا بعد كل ذلك عزيزاً مصر وسيداً لها، وموئلاً للناس، وأملهم المرّجى... كل ذلك بعناية الله جلّ شأنه وفضله العميم، ومواهبه الجزيلة.

٦. إن اللجوء إلى أساليب غير نزيهة، واعتماد طرق ملتوية للوصول إلى مآرب وغايات معينة، يضرّ الفرد ولا ينفعه، ويفتح عليه نوافذ الشرّ من حيث لا يحتسب، فأولاد يعقوب عليه السلام قد نسجوا مؤامرة دنيئة ضدّ أخيهم غير الشقيق يوسف عليه السلام، وأذوا أخاهم الآخر شقيق يوسف (بنيامين)، وتوسّلوا بالأباطيل للوصول إلى هذه الغاية: الاستئثار بحبّ أبيهم وعطفه، ولكنهم - ليس فقط - لم يبلغوا مآربهم، بل ابتعدوا عنه كثيراً، وارتدّ إليهم مكرهم، ففقدوا ثقة والدهم بهم، وأصبحوا موضع شكّه واتّهامه، وجنّوا من وراء ذلك ثماراً مرّة نغصت عليهم طعم الحياة... وما أصدق قول شاعرنا الكبير أبي فراس الحمداني:

إذا كان غير الله للمرء عدّةً أنته الرزايا من وجوه الفوائد

٧. إنّ أصحاب الرسالات الإلهية، يستطيعون بمواهبهم وقدراتهم وبوحي من رسالاتهم، قيادة المجتمع نحو الأرقى والأفضل في مختلف مجالات الحياة المادية، وحلّ أزماته ومشاكله وفق تخطيط دقيق وحكمة ودراية، وعلى أسس العدل والخير والفضيلة.

إنّهم يستطيعون ذلك تماماً كما استطاعتهم في قيادة المجتمع وتوجيهه في المجالات الروحية والمعنوية.

ولا ريب في أنّ المجتمع إذا استكمل هذين البُعدين: المادي والروحي،

فإنه سيعيش في رخاء وسعادة وهناء، وفي سمو ورفعة وكرامة.

وفي هذه القصة، أبدى يوسف عليه السلام من المواهب والقابليات، ما جعله محط أنظار الملك وحاشيته لإنقاذ البلاد من التردّي في هوة الفقر والحاجة في سنين الجذب والقحط واستفحال الأزمة الاقتصادية.

٨. إن الحوادث التي مرّ بها يوسف خلال حياته وإن كانت بظواهرها مؤلمة وحزينة، لكنّه جنى منها ثماراً حلوة انتهت إلى بلوغه درجة عالية من الكمال وصار مظهراً لإرادته ومشيته سبحانه. ومن مصاديق ذلك، أنه عليه السلام بعث بقميصه إلى أبيه يعقوب ليعيد إليه بصره الذي فقده حزناً وكمداً على فراقه، فلما ألقاه البشير على وجهه ارتدّ بصيراً، وهذا يشير إلى أنّ المحن والفتن هي الطريق الذي يبلغ به الإنسان ذروة الكمال، وقد ورد في الحديث الشريف: «إنّ الجنة حُفّت بالمكاره»^(١).

٩. إنّ الحب النابع من الغريزة الحيوانية لا يثبت أمام القيود الاجتماعية والعلاقات الشخصية، وربّما ينسى المحبُّ غرامه ولوعته إذا كان الثبات عليه سبباً للثمة، وربّما يسعى لإلصاقها بحبيبه ليتخلص هو من تبعاتها، وهذا ما رأيناه عند امرأة العزيز عندما خاطبت زوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وأما الحب النابع عن صفاء النفس والميل إلى الكمال المطلق الذي ليس فوقه كمال فيدفع صاحبه إلى العكوف والثبات عليه وإن كلفه ذلك دفع ثمن غال، واحتمال المشقة والعنت، ولهذا نرى أنّ يوسف رجّح السجن طواعيه ورغبة، في سبيل حفظ نفسه وصدّها عن مخالفة مولاه الجليل.

١٠. من صفات المؤمن أن يدفع عن حيثته وسمعته السوء كما يدفع عن نفسه الأخطار المادية فلا يساوم بها بأي شيء غالي، لأنه يراها من أغنى الأشياء عنده، وإن استدعى حفظها البقاء في السجن والعذاب. وعلى هذا الأساس نرى أن يوسف عندما أبلغه الرسول طلب الملك بأن يخرج من السجن ويلتحق ببلاطه، رفض هذا الطلب حتى يتبين البريء من المجرم في القضية التي زُجَّ بسببها في السجن، وبذلك أعاد النظر في هذه القضية فثبتت نزاهته، حتى اعترفت بها امرأة العزيز نفسها والنساء اللواتي كن معها حيث: ﴿قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وعند ذلك طاب له الخروج من السجن.

والحق أن قصة يوسف كلها عبر ودروس، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ثنايا عرضنا للقصة، أو إلى بعض التفاسير والكتب التي استخلصت منها جملة من الدروس والعظات، وما ذكرناه من الوجوه العشرة ليس إلا نزرأ يسير منها.

تم الجزء الأول، وبنعمته سبحانه تتم الصالحات.

ويليه الجزء الثاني

ويبدأ بقصة موسى الكليم ﷺ

إن شاء الله تعالى

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٩	مقدمة المؤلف: القصص القرآنية موضوعها، أهدافها، وخصائصها
١١	موضوع القصص القرآنية
١٢	غايات القصص القرآنية
١٤	أ. الدروس والعبر
١٤	ب. وحدة هدف الأنبياء
١٥	ج. تثبيت فؤاد النبي ﷺ
١٦	خصائص القصص القرآنية
١٦	أ. الموضوعية والواقعية
١٧	ب. تصحيح التحريف
١٨	ج. الإيجاز في سره القصة
	١
	ادم ابو البشر
٢١	أهم المحاور في حياة النبي آدم ﷺ
٢٣	١. نشأته وخلقته، وفيها مراحل ثلاث

الصفحة	الموضوع
٢٣	الأولى: المرحلة الترابية وتوابعها
٢٥	الثانية: مرحلة التصوير
٢٦	الثالثة: مرحلة نفخ الروح
٢٧	خلقة آدم ونظرية تكامل الأنواع
٣٠	تطبيق بعض الآيات على نظرية التطور
٣١	استمرار ذريته
٣٤	٢. استخلاف آدم في الأرض
٣٥	خلافته في الأرض
٣٦	محاكاة المستخلف في صفاته
٣٧	خلافه آدم عنه سبحانه في التصرف بالعالم
٣٨	الخلافه عن الأمم البائدة
٤١	الخلافه لآدم بنوعه
٤٢	٣. تعليم الأسماء لآدم ﷺ
٤٢	الأسماء
٤٣	العرض على الملائكة
٤٣	إنباء آدم بالأسماء
٤٤	علمه سبحانه بغيب السماوات والأرض

الصفحة	الموضوع
٤٤	٤. سجود الملائكة لأدم ﷺ
٤٥	جعل آدم قبلة فقط
٤٦	السجود بأمر الله سبحانه
٤٧	العبادة هي الخضوع عن اعتقاد خاص
٤٩	تحديد العبادة تحديداً منطقياً
٥٢	هل كان السجود لشخص آدم؟
٥٣	هل كان إبليس من الملائكة؟
٥٦	حقيقة استكبار إبليس
٥٨	استمهال إبليس
	٢
	النبي إدريس ﷺ
	معلم الخط
٩٥	النبي إدريس ﷺ في القرآن الكريم
٩٥	نسبه ومولده
	٣
	نوح شيخ الأنبياء
٩٧	أهم المحاور في حياة النبي نوح ﷺ

الصفحة	الموضوع
٩٨	١. فضائل نوح ومناقبه وسماته
١٠٠	٢. التهم والشبهات المثارة حوله وحول أتباعه
١٠١	١. الجنون
١٠١	٢. التفوق والتفضل
١٠٢	٣. الضلالة
١٠٢	الاعتراضات الناجمة عن الأنانية والجهل بمبادئ الحق
١٠٢	١. اجتماع الأراذل حولك
١٠٢	٢. ما أنت إلا بشر
١٠٣	٣. التهديد
١٠٣	٣. رد نوح ﷺ على التهم والاعتراضات ودحضه للشبهات
١٠٥	ردوده على اعتراضات قومه
١٠٦	وقفة تأمل مهمة
١٠٧	٤. ثباته في طريق الدعوة وتمادي قومه في الظلم
١٠٨	١. ثباته في طريق دعوته
١٠٩	٢. أسلوبه في الدعوة، وفيه اتجاهان:
١٠٩	أ. الترغيب بالنعم الدنيوية غب الإيمان
١١٢	ب. التنبيه على الحياة الأخروية

الصفحة

الموضوع

١١٢

٣. عنادهم ولجاجهم قبال دعوته

١١٤

٥. دعاؤه على قومه واستئصالهم بالطوفان

١١٥

صنع الفلك (السفينة) وسخرية قومه

١١٦

علائم البلاء في السماء والأرض

١١٧

استواء السفينة على الجودي

١١٨

نهاية قصة الطوفان

١١٩

هل كان الطوفان عالمياً؟

١٢٢

٦. حقيقة سؤال نوح عن ابنه

١٢٤

ما هو المراد من الوعد الحق؟

١٢٤

كيف دعا نوح ابنه إلى ركوب السفينة مع كونه كافراً؟

١٢٥

ما هو المراد من قوله «إِنَّهُ عَمَلٌ خَيْرٌ صَالِحٍ»؟

١٢٥

هل كان نداؤه لربه بشأن ابنه واقعاً في غير محله؟

١٢٦

قاعدة ربانية

١٢٧

خلاصة قصة نوح

١٣٠

نكات وعبر

الصفحة	الموضوع
	٤
	هود المبعوث إلى قوم عاد
١٣٩	أهم المحاور في حياة النبي هود ﷺ
١٣٩	١. خصائص قوم هود ﷺ
١٤١	١. البسطة في الخلق
١٤١	٢. مساكنهم الرفيعة
١٤٢	٣. النعم الوفيرة
١٤٢	٤. روح الاعتداء والتنكيل
١٤٢	٥. تكبرهم على الباري تعالى
١٤٣	٢. مضمون دعوته ومنهجها
١٤٤	منهج دعوته
١٤٤	أ. عدم طلب الأجر على دعوته
١٤٥	ب. الرجوع إلى الله لغاية زيادة النعم
١٤٥	ج. تحذيرهم من مغبة العصيان
١٤٦	٣. حوارهم مع قومه وردّ التهم الموجهة إليه
١٤٧	التهم الملتصقة بهود ﷺ
١٤٧	١. السفاهة

الصفحة	الموضوع
١٤٨	٢. الكذب
١٤٨	٣. الخبل
١٤٨	الاعتراضات الموجهة له
١٤٩	أ. كونه بشراً
١٤٩	ب. أسطورة الأولين
١٥٠	ج. أين البيئته؟
١٥٢	٤. التهديد بالعذاب
١٥٤	٥. وقوع العذاب وهلاك قومه
١٥٧	خلاصة قصة هود <small>عليه السلام</small>
١٥٩	٦. الدروس والعبر
	٥
	النبي صالح <small>عليه السلام</small> وقوم ثمود
١٦٤	أهم المحاور في دعوة صالح <small>عليه السلام</small>
١٦٥	١. خصائص قوم صالح
١٦٧	٢. مضمون رسالته وأسلوب دعوته
١٦٨	مضمون دعوته
١٦٩	٣. حوار صالح مع قومه وردّ التهم الموجهة إليه

الصفحة	الموضوع
١٦٩	التهم الموجهة إليه
١٦٩	أ. كونه مسحوراً
١٧٠	ب. كونه بشراً مثلهم
١٧٠	ج. التطير
١٧١	٤. الناقة معجزة صالح
١٧٣	٥. عقر الناقة ونزول العذاب
١٧٦	كيفية نزول العذاب
١٧٧	قد أعذر من أنذر
١٧٩	خلاصة قصة صالح ﷺ
١٨١	٦. الدروس والعبر
٦	
إبراهيم بطل التوحيد	
١٨٤	أهم المحاور في دعوة إبراهيم ﷺ
١٨٧	١. فضائل إبراهيم وسماته ومنزلته الرفيعة
١٩١	٢. نشأة إبراهيم ﷺ
١٩١	حياته في بابل
١٩٢	٣. مناظرات إبراهيم وحواراته

الصفحة

الموضوع

١٩٢

أ. مناظرته مع آذر

١٩٦

وقفة في وعد إبراهيم لآزر

١٩٧

علاقة آزر بإبراهيم

١٩٩

ب. مناظرته مع عبدة الأجرام السماوية

٢٠٦

عدم رؤية إبراهيم للأجرام السماوية

٢٠٨

ما هو المراد بالملكوت؟

٢١٠

موقف المشركين من إبراهيم ﷺ

٢١٢

ج. مناظرته مع عبدة الأصنام

٢٢٠

د. مناظرته مع ملك بابل

٢٢٤

٤. تحطيم الأصنام

٢٣١

٥. إصدار الحكم بإحراق خليل الرحمن

٢٣٣

٦. هجرته من أرض قومه

٢٣٤

٧. ولادة إسماعيل وإسحاق

٢٣٧

٨. الخليل وبناء الكعبة

٢٤١

النداء العام لزيارة البيت

٢٤٢

٩. الخليل والابتلاء العظيم

٢٤٦

الذبيح هو إسماعيل

الصفحة	الموضوع
٢٤٨	١٠. خليل الرحمن وطلب إراءة إحياء الموتى
٢٤٩	نظرية المنار ونقدها
٢٥١	١١. تنصيبه لمقام الإمامة
٢٥٢	الكلمات والابتلاء
٢٥٣	ما هو المراد من الإتمام؟
٢٥٤	ما هو المراد من الإمام؟
٢٥٥	ما هو الملاك في إمامة الخليل ﷺ؟
٢٥٦	١. الملاك هو النبوة
٢٥٧	٢. الملاك كونه أسوة لمن بعده
٢٥٩	٣. الملاك كونه مفترض الطاعة
٢٦٤	١٢. مناجاة إبراهيم وأدعيته
٢٦٧	خلاصة قصة إبراهيم ﷺ
٢٧١	١٣. الدروس والعبر
	٧
	إسماعيل الذبيح ﷺ
٢٧٧	إسماعيل ﷺ في القرآن الكريم

الصفحة	الموضوع
	٨
	إسحاق بن إبراهيم <small>رحمته الله</small>
٢٨١	الآيات الواردة في شأن إسحاق <small>رحمته الله</small>
	٩
	النبي لوط <small>رحمته الله</small> في أرض المؤتفكات
٢٨٤	أهم المحاور في قصة لوط <small>رحمته الله</small>
٢٨٥	١. ممارسة الخبائث
٢٨٩	٢. معارضة القوم لنبيهم لوط <small>رحمته الله</small>
٢٩١	٣. نزول الملائكة وطمع القوم بهم
٢٩٧	٤. إسرائ لوط مع أهله في غسق الليل
٣٠٠	٥. وقت نزول العذاب
٣٠١	٦. كيفية إهلاكهم
٣٠٢	الصبيحة
٣٠٢	قلب القرية أسفلها أعلاها
٣٠٢	الإمطار بالحجارة
٣٠٥	خلاصة قصة لوط <small>رحمته الله</small>
٣٠٧	٧. الدروس والعبر

١٠

النبي شعيب في مدين

٣١١	زمانه ﷺ
٣١٢	مكانه ﷺ
٣١٢	قبيلته ﷺ
٣١٣	أصحاب الأيكة هم أصحاب شعيب
٣١٤	خصائص شعيب وقومه
٣١٤	محاورة دراسة قصة شعيب ﷺ
٣١٥	١. أصول دعوة النبي شعيب ﷺ
٣١٦	الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك
٣١٧	الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر
٣١٧	حفظ الحقوق في المعاملات
٣١٨	النهي عن الإفساد في الأرض
٣١٩	النهي عن صدّ الناس عن الإيمان
٣٢٠	٢. أسلوب دعوته ﷺ
٣٢١	الاعتماد على الدليل والبرهان
٣٢١	التذكير بنعم الله سبحانه

الصفحة	الموضوع
٣٢٢	التذكير بمصير المفسدين
٣٢٣	التبشير والتحذير
٣٢٤	الدعوة إلى نبذ التنازع
٣٢٤	الإخلاص في الدعوة
٣٢٥	٣. موقف قومه من الدعوة
٣٢٦	ادعاء الغموض في مضمون الدعوة
٣٢٧	ضعف المكانة الاجتماعية
٣٢٧	الآتهام بأنه مُسحَّر
٣٢٨	البشرية لا تناسب الرسالة
٣٢٨	التهديد بالنفي
٣٢٨	رفض الدعوة التي تصادم عقيدة الآباء وتنهى عن الكسب الحرام
٣٣٠	٤. إبادتهم ونزول العذاب
٣٣٢	نجاه شعيب والمؤمنين من العذاب
٣٣٣	خطاب شعيب لقومه
٣٣٤	خلاصة قصة شعيب <small>عليه السلام</small>
٣٣٧	الدروس والعبر

الصفحة	الموضوع
	١١
	يعقوب <small>عليه السلام</small>
٣٤١	يعقوب <small>عليه السلام</small> في الذكر الحكيم
	١٢
	يوسف بن يعقوب <small>عليه السلام</small>
٣٤٨	مراحل حياة يوسف <small>عليه السلام</small>
٣٤٩	المرحلة الأولى: مرحلة الصبي
٣٤٩	١. حياته في صباه بين حب الأب وحسد الإخوة
٣٥٢	٢. المؤامرة الغادرة لإخوة يوسف <small>عليه السلام</small>
٣٥٥	تنفيذ المؤامرة
٣٥٧	٣. تمثيلية مفضوحة
٣٦٢	المرحلة الثانية: في بيت العزيز
٣٦٢	٤. في بيت عزيز مصر
٣٦٤	٥. صراع الإيمان والغريزة
٣٦٦	الخطوة الأولى: المراودة
٣٦٦	الخطوة الثانية: تغليق الأبواب

الصفحة	الموضوع
٣٦٦	الخطوة الثالثة: الأمر بالمبادرة
٣٧٣	الشهادة الكبرى التي تقطع السنة السوء
٣٧٤	٧. نجاة يوسف من المكيدة
٣٧٧	٨. اطلاع النسوة على غرام العزيزة
٣٨٠	المرحلة الثالثة: حياة يوسف في السجن، وخروجه منه
٣٨٠	٩. حياة يوسف في السجن
٣٨٧	١٠. رؤيا الملك: مفتاح تحرر يوسف من السجن
٣٩١	١١. نزاهة يوسف مما نسب إليه
٣٩٧	المرحلة الرابعة: انتخاب يوسف للوزارة
٣٩٩	١٢. السبع المجذبة وإخوة يوسف في مصر
٤٠١	١٣. عودة الاخوة إلى وطنهم
٤٠٧	١٤. الرحلة الثانية إلى مصر
٤١١	١٥. التنصل من فعل أخيهم
٤١٣	١٦. العودة الخائبة
٤١٦	١٧. الرحلة الثالثة إلى مصر
٤٢٠	١٨. القميص.. وسريان النور في عيني يعقوب <small>عليه السلام</small>

الصفحة

الموضوع

٤٢٣

١٩. استقرار آل يعقوب في مصر

٤٢٧

٢٠. الدروس والعبر

٤٣٣

فهرس المحتويات

